آية الله جوادي آملي

المعاد والقيامة في القرآن

ترجمة
دار الصفوة



دار الصفوة
بيروت - لبنان



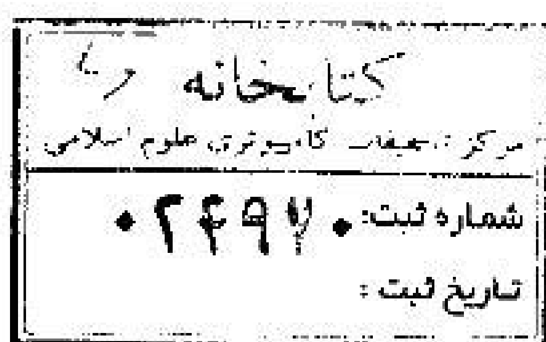
المعاد والقيامة

في القرآن



التفسير الموضوعي

للقرآن الكريم



المعاد والقيامة في القرآن

آية الله جوادي آملي



دار الصفوة

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



بيروت ـ بئر العبد ـ الصنوبرة ـ مقابل سنتر داغر ـ بناية دياب مهدي

ت: ٨٢٣٥١٨ ـ ٨٢٢١٦٧ ـ ٦٠١٠٠٢

فاكس: ٠٠٩٦١١٦٠١٠١٩

ص.ب: ٦٣ / ٢٤

Tel: 823518 - 822167 - 601002

Fax: 009611601019

P.o. Box: 36/24

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يُعتبر العلاّمة الشيخ عبد الله الجوادي الآملي من أبرز أساتذة الحوزة العلمية في قم في التفسير والفلسفة والعرفان ، وهو يقوم بتدريس هذه العلوم منذ سنوات عديدة ويشارك في مجلس درسه جمع غفير من الطلاب ، كما أنه قد صدر له كتب عديدة حول مواضيع قرآنية أو فلسفية أو فكرية عامة معظمها بمثابة تقرير للمحاضرات التي كان يلقيها على طلاّبه أو في مناسبات عامة وبعضها قد كتبها بنفسه . ومن جملة هذه الكتب ما يزيد على عشرة أجزاء في مواضيع قرآنية متنوعة كان يلقيها كمحاضرات عبر التلفزيون ومن ثم صدرت بصورة كتاب .

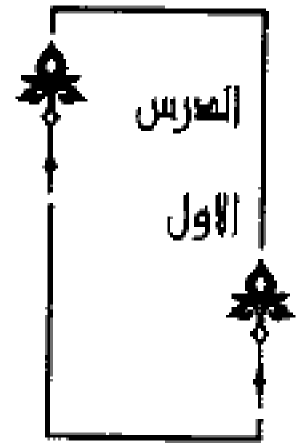
وهذا الكتاب الذي بين أيدينا عبارة عن جزء من تلك المحاضرات يشمل خمساً وعشرين محاضرة أغلبها يتمحور بشكل عام حول موضوع المعاد هذا بالإضافة إلى استطرادات في مواضيع أخرى . وقد قمنا بنقله إلى العربية عن الطبعة الفارسية والتي هي أيضاً تقرير حرفي لنص المحاضرات ولذا يظهر فيه كثرة تكرار وشيء من الاضطراب . كما أنّا لم نقم بحذف شيء

من فقراته مما له ارتباط بالموضوع بل أبقينا النص على حرفيته وترتيبه بشكل كامل تقريباً . وجهدنا مع هذا لإبراز المعنى بعبارة سليمة دون أن نتعدّى أسلوب الكتاب وألفاظه .

ونرجو أن نكون قد وفّقنا في تيسير هذا المتن للقارىء العربي بشكل يمكّنه من الاستفادة منه في التعرّف إلى هذه الموضوعات المذكورة فيه وإلى فكر المؤلف ونهجه .

والحمد لله رب العالمين

دار الصفوة



اليقين بالمبدأ والمعاد والبراهين عليه

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمّد وآله الطاهرين .

اتّضح من الدروس السابقة أن لا نعمة أسمى من اليقين ، ولا شيء أيضاً أقل من اليقين ، واليقين هو الجزم المطابق للواقع غير القابل للخلل . ومن وصل إلى مقام اليقين في التوحيد فهو يتمتع بنعمة لا يصله معها أي حزن ورهبة . لا يحزن على ما مضى ولا يتوجس خيفة ممّا هو آت .

والقرآن الكريم حيث أنه كتاب نور وهداية : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾[1] فهو يعالج كل هموم القلب وأحزانه . ولا هم وغمّ أسوأ للقلب من الاضطراب والتحيّر والقلق والخوف . ولهذا سعى القرآن الكريم أن يجعل الروح هادئة مطمئنة . ونور اليقين هو الذي يؤمن الهدوء والسكينة للروح . واليقين يجب أن يتعلّق بمبدأ متيقّن ليحصل على هذه الخواص ،

(١) سورة يونس، الآية : ٥٧ .

أي يكون أساس سكون الروح ، وعلاج الأمراض التي تجلب الشقاء للروح ، ويقلع جذور الحزن والقلق والخوف ، ويحافظ على هدوء الروح وسلامة النفس . وإذا كان اليقين أفضل نِعَم الله تعالى وأساس الطمأنينة (لأن هذه صفات المتيقّن لا اليقين) فالقرآن الكريم يسعى إلى أن يوصل الإنسان إلى مرحلة اليقين بالمبدأ والمعاد ليجد الإنسان اليقين بأنّ الله تعالى ربّ العالمين الذي هو أرحم الراحمين وهو عالم بكل شيء وقادر على كل شيء ولا حدّ لرحمته . وقد طرح القرآن الكريم براهيناً من أجل وصول الإنسان إلى مقام اليقين والتوحيد الكامل .

وكما أنّ للتوحيد درجات فكذلك للبراهين أقسام ودرجات :

درجات التوحيد :

١ ـ توحيد الوجود .
٢ ـ توحيد الواجب .
٣ ـ توحيد الخالق .
٤ ـ توحيد الربّ .
٥ ـ توحيد المعبود .

وعندما نبدأ بالترتيب من أسفل إلى أعلى تكون درجات التوحيد هكذا : التوحيد العبادي ، والتوحيد الربوبي ، وتوحيد الخالق ، وتوحيد الواجب ، وتوحيد الوجود . والقسم الأخير خارج عن محلّ بحثنا . والمطروح على بساط البحث هو من توحيد الواجب إلى توحيد المعبود . والطرق التي يعدها القرآن وينصبها للإنسان مختلفة . لأنّ القرآن مأدبة الله الجاهزة ، وقد جلس جميع الناس من الأنبياء والأولياء والآخرين إلى هذا الطعام المُعدّ . وقد تمتّع الأنبياء والأولياء بحقائق القرآن وأسراره ، وكذلك

تلاميذهم والمؤمنين بهم وعموم الناس كلّ بحسب استعداده قد استفاد وانتفع من هذا الغذاء الجاهز .

التوحيد العبادي وبرهان الحركة :

طرح القرآن الكريم برهان الحركة على التوحيد العبادي والربوبي بشكل أوسع وأيسر من البراهين الأخرى . فيرى القرآن بأنّ كل حركة إلى جهة الكمال هي سائرة إلى الله ، وبأن مبدأها الأول هو الله تعالى أيضاً . وكل هذه التكاملات ينسبها القرآن إلى الله . وإذا وجد نقص أو عيب أو خلل وأمثال ذلك فهو ناشٍ من عدم لياقة قدرة ذلك المورد والمحل . وإلاّ ـ لا يأتي من الخير المحضْ غير الجمال ـ فإنّ فيض الله دائم ، فهو دائم الفيض ودائم الفضل على البرية ، ولكن الآخذين مختلفون فمرّة يأخذون وأخرى لا يأخذون ، وأحياناً يأخذون المقدار الكافي وحيناً لا يأخذون ما يكفي .

أقسام الحركة

عدّ القرآن الكريم خمسة أقسام للحركة ، وهو يرى أن هذه الحركات تؤمَن بإرادة الله ، والله هو المحرّك والمغيّر والمموّن لهذه الحركات .

وهذه التحوّلات والتبدّلات السائرة إلى جهة الكمال في عرف القرآن هي بواسطة الله تبارك وتعالى مركز الكمال . وهذه الحركات الخمسة هي :

الحركة الأولى : ما وضع الله في السماوات من حركة النجوم وتحوّل الكواكب وسير الأفلاك قد نسبها تبارك وتعالى إلى نفسه .

الحركة الثانية : الحركة النازلة من السماء إلى الأرض مثل الأمطار قد نسبها الله تعالى أيضاً إلى نفسه .

الحركة الثالثة : الحركة الخارجة من الأرض كالأعشاب والأشجار

منسوبة إلى الله تعالى .

الحركة الرابعة : الحركات والتحولات الموجودة في جوف الأرض كالعيون والمياه الجارية تحت الأرض منسوبة إلى الله تعالى .

الحركة الخامسة : ما يحصل في روح الإنسان من تحوّلات في معرفة النفس وينسبها القرآن إلى الله تعالى .

وهذه الحركات الخمسة المرتبطة بالله سبحانه ذُكِر قسم منها في سورة الأنعام والأقسام الباقية بيّنت في سائر سور القرآن الأخرى . ففي سورة الأنعام يقول الله تعالى : ﴿ **إنّ الله فالق الحبّ والنوى يخرج الحيّ من الميت ومُخرج الميّت من الحي ذلكم الله فأنّى تؤفكون** ﴾[1] . وذلك المسبب الذي فلق الحبّ والنوى هو الله . والمبدأ الذي يفلق النوى ويوجد الشق في الحبة فيمتد قسم منها إلى باطن الأرض ويسمّى جذراً ، وقسم آخر يخرج من الأرض ويسمى ساقاً أو جذعاً . القرآن الكريم ينسب انفلاق الحب والنوى وامتداد عروقها إلى باطن الأرض ونمو سيقانها وأغصانها خارج الأرض ينسب كل ذلك إلى الله تبارك وتعالى ﴿ **إنّ الله فالق الحبّ والنوى** ﴾ . فهذه الحبّة لا تنفلق لوحدها ، وهذه النواة لا تشقّق لنفسها ، هي لا تدري كيف تنفلق ولا تستطيع أن تفلق نفسها ، بل تقبل الانفلاق فقط . فالحبة تقبل الانفلاق لا أنها تصنعه ، والنواة آخذة لا معطية . هي تستطيع الانفلاق ولكن تحتاج إلى فالق . هي لا تملك هذا الانفلاق وإنما تأخذه فقط ، فهي محتاجة إلى معطي . وهي لا تملك هذا الجذر ولا هذا الفنن فهي محتاجة إذن إلى واهب . هي لا تملك هذه الصفة فكيف تمنحها لنفسها . فسواء كانت آخذة فهي تأخذ لأنها محتاجة أو كانت قابلة فهي تقبل لأنها محتاجة .

---

(١) سورة الأنعام، الآية : ٩٥ .

فلو كانت تملك شيئاً كما كان عندها قابلية واستعداد لقبوله ، فالموجود إنما يقبل الشيء الذي لا يملكه فهو يقبل الشيء الذي يكون محتاجاً له . فلو كان عنده لما قبله إذ المحتاج هو الذي يقبل . . وهي بنفسها لا تستطيع أن تعطيه لأنها فاقدة له . وليس من الممكن أن يكون الشيء قابلاً وفاعلاً . وكل انفلاق يوجد في الحب والنوى فهو بواسطة ذلك المحرّك الذي يسمّى الله . وكل انفلاق يوجد في الأفق فهو بواسطة الله . الله هو الذي يشق صدر الظلام بطلوع نجم مضيء في كبد السماء . وأينما وجد الإنفلاق والنمو والحركة وفلق النوى فالله هو ربّها وبارئها . ﴿ **قل أعوذ بربّ الفلق** ﴾[1] وهو أيضاً فالق الصبح وهي مسألة سماوية ونجومية ، وهو أيضاً الذي فلق الحب والنوى وهي مسألة زراعية ﴿ **إنَّ الله فالق الحبّ والنوى** ﴾ ولكي لا يتخيل أحد بأنّه أوصل الحب إلى الثمر أو النوى وصيّره بصورة بستان فقد فصّل الله تعالى في سورة الواقعة ذلك فقال : ليس بأيديكم نمو الحب والنوى ﴿ **أفرأيتم ما تحرثون * ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون** ﴾[2] يقول : العمل الذي يتأتّى من الفلاح في الزراعة هو الحرث لا الزرع ، نثر البذور لا انفلاقها ونمو الجذور والسيقان . أنتم حارثون لا زارعون . وبذر الحبوب حركة مكانية فالإنسان يحمل الحبوب والبذور والنوى من المخازن إلى المزارع وبعد الحرث يودعها التراب . وأمّا تلك الحركة الأصيلة والتكاملية والتي تنفلق فيها الحبّة وتنشق إلى نصفين فتنطلق أحدها إلى الأسفل وتسمّى جذراً وتصعد الأخرى إلى الأعلى وتسمّى ساقاً هي بعهدة الله تعالى . ويقول : الله هو الزارع لا أنتم ، أنتم تنثرون البذور فقط مع أن هذه تنتهي إلى الله أيضاً . وكذلك الأمر في تكثير النسل عين هذا الموضوع ففي

---

(١) سورة الفلق، الآية: ١ .

(٢) سورة الواقعة، الآيتين: ٦٣ ـ ٦٤ .

نفس الوقت يقول : المرأة حرث ومزرعة لزوجها ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم** ﴾[1] فنمو الجنين في بطن أمّه ليس من فعل الأب ، عمل الرجل هو الإمناء فقط . يقول تبارك وتعالى : ﴿ **أفرأيتم ما تمنون * ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** ﴾[2] فالرجل بعملية الإمناء يعطي حركة مكانية فقط ، أمّا الذي يصنع من قطرة الماء إنساناً مفكّراً فهو الله : ﴿ **ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** ﴾ . حركة قطرة ماء إلى إنسان كامل والذي هو خلق وتحريك فالق هي حركة لأجل تكامل قطرة الماء في عهدة الله تعالى بشكل مباشر . ويقول القرآن سواء في المزارع الإنسانية فالله هو المحرّك ، أو في المزارع الزراعية فالله أيضاً هو المحرّك .

فالحركة والمحرك والتكامل هذه الأمور تحتاج إلى مصدر للكمال ، النمو يحتاج إلى مرشد وفاتح للطريق ، يحتاج إلى حامل لكي يحمله والحركة في سطح الأعشاب والأشجار الله هو باعثها كما جاء في عدّة مواضع من القرآن الكريم . وفي سورة البقرة إشارة إلى هذا الموضوع أيضاً . يقول تبارك وتعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾[3] .

وتلك الحركة التكاملية التي تبدأ من الأرض إلى أن تنتهي بفاكهة شهية تتم بواسطة محرّك اسمه الله ﴿ **إنّ الله فالق الحبّ والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي** ﴾[4] إذا خرجت شجرة أو نبتة حيّة من حبّة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٢) سورة الواقعة، الآيتين: ٥٨ ـ ٥٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

ميّتة فالله هو مخرجها ، وإذا خرجت حبّة أو نواة ميتة من شجرة أو نبتة حيّة فالله هو مخرجها أيضاً ﴿ **ذلكم الله فأنّى تؤفكون** ﴾ هذا إلهكم فأين تذهبون ؟ يقول النظامي في أبياته المشهورة : كل إنسان مفكّر يعلم بأن وراء كل تغيّر مغيّر ، وهذا عنوان برهان الحركة لأن كل حركة تحتاج إلى محوّل ومحرّك يحرّك الشيء إلى سمت معين . وكما أن الله سبحانه يفلق حبة القمح فيخرج منها سنبلة لتكون مزرعة خضراء كذلك يفلق أفق الظلام بكوكب مضيء ليخرج الضياء من صدر الليل البهيم ليكون مضيئاً كالنهار ﴿ **فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[1] جعل الليل للسكن والهدوء وجعل ذلك الكوكبين المنيرين يعني الشمس والقمر يتحرّكان بشكل دقيق بحيث هيّأهما ليكونا حسباناً ، وكل الحسابات قد نظمت على ضوء حركة الشمس والقمر ، وحركتهما أيضاً تحتاج إلى محرّك وكذلك نظام حركتهما يدل على ذلك الناظم العزيز العليم وهو عزيز لأنه غير قابل للافتراق . ولا يستطيع أي عامل الوقوف في وجه خططه وبرامجه . وعليم لأنّه يعرف كيف يخطط ويضع البرامج السليمة ، يعرف كيف يعطي الحركة وكيف ينظم تلك الحركة ولذلك يقول : ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ . فهذه الحسابات الدقيقة هي لمهندس مطّلع ومقتدر ﴿ **وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾[2] والله عزّ وجلّ قد نظم حركة النجوم والكواكب بشكل يهتدي بها المسافرون في الصحارى والبحار والجو . وهذه حركة الكواكب والنجوم ، وأمّا حركة النباتات والأشجار في الأرض فقد طرحها لعموم الناس ، لأنّ حركة الفلك منظمة وفق حسابات دقيقة وعميقة لا يتيسر لعموم

---

(١) سورة الأنعام، الآية : ٩٦ .
(٢) سورة الأنعام، الآية : ٩٧ .

الناس الاطّلاع عليها ، ولذا يقول القرآن حول حركة النجوم ﴿ **قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ فهنا العلم والمعرفة والإطلاع لازمة . والعالم المتخصص بعلم الكواكب والنجوم يستطيع الاطلاع بشكل جيد على حركة الكواكب المنظّمة والاستدلال عليها . ثم يقول تعالى في القسم الآخر : ﴿ **وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوات دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[1] حركة المطر من السماء إلي الأرض تحتاج إلى محرّك . والشيء لا يتحرّك بنفسه إلى هدفه لأنّ المتحرك يستطيع أن يقبل الوصول إلى هدفه وكمال حركته ، فهو قابل وفاقد لما يقبله ، ولأنّه فاقد له يحتاج إلى واهب . لأنّه فاقد ويأخذ فيحتاج إلى معطي . وهو فاقد ولهذا يأخذ من المبدأ ويصل به إلى حدّ الكمال . يقول القرآن الكريم : حركة المطر من السماء إلى الأرض بإرادة الله تعالى : ﴿ **وهو الذي أنزل من السماء ماء** ﴾ عندما ينزل هذا المطر إلى الأرض ويجري فيها فذلك الحب والنوى الذي انفلق وتحرك إلى جهتين بشكل جذر وساق بوصول المطر يأخذ بالنمو والترعرع ويتضخّم فيعطي الثمر ﴿ **فأخرجنا به نبات كل شيء** ﴾ والله تعالى بواسطة المطر يعطي النمو لكل نبات . وهذا الإخراج وهذه الحركة ينسبها الله تعالى إلي نفسه . فالبذرة في بطن الأرض تنفلق وانفلاقها نتيجة حركتها هو بإرادة الله تعالى . وعندما تخرج إلى سطح الأرض فذلك بواسطة الله أيضاً . وكذلك انفلاق قطرة ماء في رحم امرأة ونموّها ، وهذا النمو يكون بصورة يد ورجل وعين وأذن ، كل هذا بواسطة قدرة الله ﴿ هو

(١) سورة الأنعام، الآية : ٩٩ .

الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء ﴾[1] وعندما يقترب موعد الولادة يتحرك الجنين من رحم أمّه إلى طرفها ، وهو يحتاج إلى محرّك ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلّكم تشكرون** ﴾[2] . وهذه الحركة محرّكها هو الله تعالى .

وبشكل عام فكل حركة تكون نحو الكمال فمصدر حركتها ومحركها هو الله ومَنْ يمنح هذا الكمال لا بدَّ أن يكون هو مركز الكمال وعين الكمال . والآخر أو الآخرون هم مبادىء وسيطة مهما كان وجودهم ومهما كان عندهم فليسوا إلاّ وسائط الفيض ومجرى الفيض ومسير الفيض لا مبدأ الفيض ومركز الإفاضة ﴿ **فأخرجنا منه خضراً** ﴾ الله تعالى يُخرج من النبات ساقاً أخضراً ، ويخرج من الساق الأخضر عنقوداً ، ويخرج من العنقود حبّاً متراكباً ومتراكماً ﴿ **نخرج منه حبّاً متراكباً** ﴾ .

وأمّا النواة التي تخرج منها الشجرة ﴿ **ومن النخل من طلعها** ﴾ يعني أنبت من النواة نخلة فأثمرت عنوق التمر المتدلّية ﴿ **قنوان دانية وجنّات من أعناب** ﴾ بساتين الأعناب ﴿ **والزيتون والرمّان مشتبهاً وغير متشابه** ﴾ فاكهة الزيتون والتمر والرمان ، بعضها يشبه بعضاً ، وبعضها لا شبيه له ﴿ **انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه** ﴾ انظروا إلى ثمره حينما يصل إلى حدّ النضج ، كيف تحرك من مرحلة ظهور الثمرة أو ما قبل ذلك إلى أن وصل إلى مرحلة النضج ؟ مَنْ أعطاها هذا النضوج ؟ مَنْ الذي أخذ بيدها وأخرجها من الأرض وشقّ نواتها ؟ مَنْ الذي صيّر هذه النواة ثمرة ؟ مَنْ الذي مسك زمام هذه الثمرة فجعلها طريّة طيّبة لذيذة الطعم ؟ .

يقول القرآن الكريم : يُرى في كل هذه المراحل التحريك والتكميل

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ٦ .

(٢) سورة النحل، الآية : ٧٨ .

الإلهي : ﴿ إنَّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ يقول في هذا القسم أنّه يكفي أن ينظر في هذا البرهان من كان من أهل الإنصاف خالٍ من التعصب ويكون متوسطاً في الإيمان والعقيدة ليوصله برهان الحركة هذا إلى الهدف التوحيدي . وهذه المسألة ليست نظير مسألة علم النجوم والفلك لتحتاج إلى متخصّص رياضي بحيث يعجز غيره عن إدراك دقّة وعمق حركة الكواكب وأسرارها . فهناك يحتاج إلى عالم متخصص وهنا يكفي الإنصاف ، هناك يُحتاج إلى الفهم العميق وهنا يكفي الفهم المتوسط والإيمان المعتدل .

وقد اتّضح وتبيّن إلى الآن ثلاثة أقسام من الحركة فما يمرّ في السماء وما ينزل من السماء وما يصعد من الأرض محرّكها جميعاً هو الله . وبقي قسمان من أقسام الحركة أحدها الحركات في باطن الأرض والتي أطلقنا عليها حركة تحت الأرض ، والقسم الآخر التغيرات والتحولات في النفس الإنسانية وهي أعمق الحركات وأدق التحولات . يقول تبارك وتعالى في سورة الزمر : ﴿ ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إنَّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾[1] . إذا دققتم جيداً فالمطلب ليس معقداً ، وهو إلى حدّ ما قابل للرؤية والشهود . يقول : ألم تروا بأن المطر لا يحصل هكذا لوحده ، ولا يتحرك هكذا لوحده ، فالمطر الذي ليس له هذا الكمال من أين أتي به ؟ ألا تعلم بأنّ واهب الكمال هو الذي أمسك قطرات المطر وهداها للنزول ؟ ﴿ ألم ترَ أنّ الله أنزل من السماء ماء ﴾ وعندما ينزل المطر فإنَّ الأرض تجذبه . وينزل بشكل مطر وأحياناً بشكل ثلج وأحياناً بشكل بَرَد ، والأرض تمتصها جميعاً . وحينئذ تنتظم مجاري تحت الأرض كعيون أو آبار أو عروق تحت الأرض . وهذه المياه الموجودة تحت الأرض ترشد إلى أن

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢١ .

تدير تلك الحركات تحت الأرض وتستمر فيها ﴿ **فسلكه ينابيع في الأرض** ﴾ فهذا الماء النازل من السماء إلى أعماق التراب وهذه الحركات التي تحت الأرض بشكل يحدد أين تكون بئراً ؟ وأين تكون عيناً ؟ وأين يكون الماء قريباً من الأرض ؟ وأين يكون بعيداً عنها ؟ وأين تكون في متناول اليد ؟ وأين لا تكون في متناول اليد ؟ كلّ هذا قد أخذه الله في عهدته .

فإذا علم بأن المصلحة بأن يكون سطح الماء والمجاري والعيون والآبار التي تحت الأرض في أعماق بعيدة تحت الأرض بحيث لا تصل إليها يد الإنسان الابتدائي الأعزل ولا أيدي المهندسين المدججين بالعلم والآلة ، فلا بئر عميق يصل إلى ذلك الماء فضلاً عن عدم إمكان الحصول عليه باليد والدلو ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين** ﴾[1] إذا غار هذا الماء أكثر من المقدار الذي يحب ، إذا كان هذا الماء المعيّن الآن من الآبار والعيون والذي هو تحت متناول أيديكم قد غار واختفى في باطن الأرض فماذا سيكون غير جفاف وبوار أراضيكم بعد أن كانت مخضرّة ذات ثمار طرية ؟ وغير عجز أي عامل وسبب آخر عن استخراج هذه المياه من أعماق الأرض البعيدة ؟ إذن فحركة الماء الصاعدة إلى الأعلى والنازلة إلى الأسفل بيد الله تعالى .

إنّ كثيراً من الأراضي الخصبة المخضرّة بأنواع الثمار الطرية قد ذبلت وتحوّلت إلى أرض جرداء بسبب غور ماءها . وأنَّ كثيراً من الأراضي الجافة الخالية من الحياة الخضراء قد تحوّلت إلى بساتين مزدهرة بسبب ظهور عين ماء فيها . يقول القرآن : الحركات في باطن الأرض وتنظيم الحركات الصعودية والنزولية والأفقية تحت الأرض هي بيد الله تعالى . فإذا أراد نقل هذه المياه من مكان إلى مكان آخر لاقتضاء المصلحة فإنه يهديها إلى

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣٠.

مجاريها وتنظيم حركاتها وتحريكاتها فربّي الذي يسيّرها ويدلّها على سبلها . إذا أراد أن يكون سير الماء في باطن الأرض عمودياً فينزل إلى الأسفل بعنوان العذاب أو إلى الأعلى بعنوان الرحمة فهو أيضاً بيد القدرة الإلهية ﴿ **أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ إذا غارت المياه في أعماق الأرض البعيدة فمن يأتيكم بهذا الماء ويجعله في متناول أيديكم ؟ الله تعالى ينسب مثل هذه الحركات إلى نفسه : ﴿ **ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه** ﴾ الثمار المختلفة والمتنوعة بواسطة الله تصل إلى نضجها . والأفراد الذين لا ينظرون إلاّ إلى مظاهر الطبيعة والذين هم ليسوا من أهل المعرفة والتحقيق فيدركوا قوانين الحركات النجومية ودقّتها فتكون لهم علامة توصلهم إلى الله . كما أنهم ليسوا مؤمنين منصفين لتكون مشاهدة الآيات الإلهية دليلاً لهم للوصول إلى الوحدة الربوبية . وهم يفتقدون الفهم الظريف ليصلوا إلى التوحيد الربوبي بواسطة معرفة النفس وهمّتهم منحصرة في الأكل والشرب واللبس والنوم والراحة فقط . القرآن يرى هؤلاء بأنّهم بمنزلة الحيوانات والنباتات لا أكثر . يقول القرآن : في الأرض ألوان مختلفة من النباتات وأنواع متنوعة وفئة من الناس تمشي في الأرض لا تختلف عن الحيوانات إلاّ في اللون . والقرآن يأتي باسم هؤلاء مع النباتات والحيوانات مع فارق واحد هو اللون . فيقول هناك : انظروا إلى اختلاف أنواع الثمار والأشجار والنباتات كيف تنمو . ويتكلّم حول الإنسان عديم التفكير بنفس التعبير الذي يتحدّث فيه عن الحيوانات والنباتات ، وقد استثنى من ذلك العلماء والمفكرون العاملون . يقول في سورة فاطر : ﴿ **ألم ترَ أنّ الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها ومن الجبال جُدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه**

كذلك ﴾[1] الثمار من أقسام النبات . والأنعام والدواب وبعض الناس الذين همّهم وفكرهم في الأكل والشرب واللباس تختلف مع بعضها في اللون وهي في صف النباتات والحيوانات والإنسان الذي ليس له هم سوى بطنه ونومه هو في الحقيقة حيوان لا يختلف عنها إلاّ في اللون **﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾** . ولكن يوجد بين هؤلاء فئة ممتازة وهم العلماء العاملون والملتزمون الأحرار المنفصلين عن الآخرين والذين يخافون الله تعالى **﴿ إنّما يخشى الله من عباده العلماء إنّ الله عزيز غفور ﴾**[2] إذا كان هناك شخص عاقل ومؤمن ويفكّر أسمى مما تفكّر به الحيوانات فهو يختلف عن باقي الناس . وقد استثنى القرآن هذه الفئة . وأمّا الآخرون فهم والحيوانات في صف واحد يمتازون فقط باللون لا غير ، مثل كل الثمار فهي جميعاً نباتات إلاّ أنها تختلف بعضها عن البعض الآخر باللون .

والقرآن لا يعد هؤلاء الذين يفكرون على طرز تفكير الحيوانات من صنف الإنسان ويقول عنهم أنهم والأنعام والدواب في صف واحد ولكن يختلفون في اللون . والذي يتميز عن كل هؤلاء هو الإنسان المتحرّر من سلطنة الشهوات الذي يخشى الله ، ويرى الله حاضراً في جميع حالاته فيرجع إليه في كل مشكلة ومهمة ، ويعلم بأن جميع النّعم هي من الله ، ويتسلّى بذكره في جميع المهام الجسام والمصائب العظام . هذه هي الأبعاد الثلاثة التي طرحت في الجلسات السابقة أي أن الحاجة من الله والنّعمة من الله والصبر والسلوان على المصائب من الله **﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾**[3] .

(١) سورة فاطر، الآيتين: ٢٧ ـ ٢٨ .
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨ .
(٣) سورة النحل، الآية: ٥٣ .

الحركة في النفس الإنسانية

وأمّا الحركة الخامسة التي طُرحت في مقدمة البحث فهي أهم الحركات . وقد تطرّق لها القرآن الكريم في سورة الأنعام هكذا : ﴿ **وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾[1] . التغيرات التي تطرأ على الإنسان عديدة فبعضها تبقى في الأصلاب والأرحام وبعض آخر ينتقل من الأصلاب والأرحام إلى المجتمع . والتغيرات والتحولات التي تعرض على الإنسان يستطيع أن يلاحظها بنفسه ، كنت قطرة ماء والآن على هذه الصورة السوية فمن الذي حوّلني من تلك الحالة إلى هذه الحالة ؟ وهذه غير الحركة العلمية لتحتاج إلى عالم رياضي ليعلمها ولا إلى متوسط الإنصاف عند عامة المؤمنين ، بل يحتاج إدراك ذلك إلى فهم فقاهتي والذي هو فهم ظريف . وهذا السير في النفس مشاهدة المحرّك من خلال الحركات النفسية ، وجعل النفس في تصرف ذلك المحرك « عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم وحلّ العقود »[2] رؤية النفس متحركاً ومشاهدة زمامها بيد الله . هذا ليس عمل كل عالم بالرياضيات ، وليس أيضاً عمل كل مؤمن بسيط التفكير متوسط أيضاً ، بل هو عمل إنسان فقيه يتمتع بالفقه وهو نظير الشعور الذي هو فهم دقيق فالإنسان إذا صار يرى مثل الشعرة الرفيعة يقال له شعور ورقيق . يقول : ﴿ **قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾ فهنا الفقه لازم . فإذا لم يكن الإنسان صاحب هذه الدرجة من الفهم يعدّه القرآن في صف الدواب والأنعام ويفرق عنها باللون . إذ أن الله تعالى يبيّن النِّعم . هذا البيان من الإمام السجّاد عليه السلام والذي هو القرآن الناطق يقول عليه السلام : إن كل آية من القرآن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ٢٤٢.

هي خزانة من الخزائن الإلهية . ويقول : إن دأب القرآن وطريقته عند عدّ النّعم الظاهرية يقول : نحن أرسلنا السحاب وأنزلنا المطر وجعلنا الشمس مضيئة لتنمو زروعكم وثماركم ، وأنزلنا المطر لتنمو محصولاتكم **﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾**[1] ، فشيء لكم وشيء لأنعامكم الغذاء المادي هو غذاء الإنسان والحيوان معاً ، ولكن عندما تكون المسألة علماً ومعرفة وإيماناً يقول : **﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلاّ أولوا الألباب ﴾**[2] أي الأشخاص أصحاب الأفئدة والعقول .

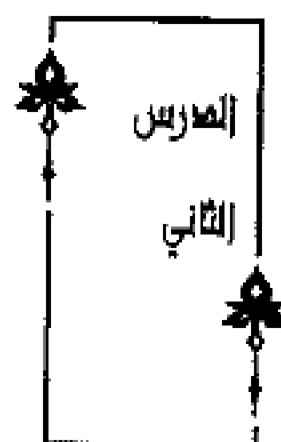
ونلاحظ من مجموع ما ذكره القرآن في سورة الأنعام وسورة الزمر وسورة الملك وسائر السور أنّ كل الحركات السائرة نحو الكمال قد نسبها إلى الله تعالى . وقد قسمت هذه الحركات كما قلنا إلى خمسة أقسام : الحركات في السموات ، والحركات النازلة من السماء إلى الأرض ، والحركات الصاعدة من الأرض نحو الأعلى ، والحركات في باطن الأرض ، والحركات التي أطلق عليها التحوّلات النفسية . وقد نسب الله كل هذه الحركات السائرة نحو الكمال إلى نفسه .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل قلوبنا وعاء للتوحيد الربوبي وما فوقه حتى تلهج القلوب بذكر المعشوق **﴿ إلاّ بذكر الله تطمئن القلوب ﴾**[3] وأن يمتعنا باليقين بالتوحيد الربوبي الذي هو أعظم النّعم ، وحينئذٍ لا خوف يهدد القلب ولا حزن **﴿ ألاَ إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**[4] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة النازعات، الآية : ٣٣.
(٢) سورة البقرة، الآية : ٢٦٩.
(٣) سورة الرعد، الآية : ٢٨.
(٤) سورة يونس، الآية : ٦٢.



الوحي السماوي وطرق التفكير في النظرة الفلسفية للعالم

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

خلاصة بحث الجلسة السابقة أنّ للتوحيد درجات . وذلك الذي يرتبط به الناس من أجل التكامل ويعتمد عليه القرآن أكثر من اعتماده على الأقسام الأخرى هو التوحيد الربوبي ، أي أنّ في عالم الوجود مبدأ هو ربّ العالمين وكل الموجودات هي خاضعة لتدبير وإرادة هذا المبدأ الأول . وقد أشرنا في إحدى الجلسات إلى هذا الموضوع . وبما أنّ القرآن كتاب نور وهداية وليس كتاباً فلسفياً محضاً لكي ينظم البراهين العقلية في قوالب فلسفية جافة . بل نظمت بشكل تكون على ارتباط بالعمل وبطريقة بحيث يكون الإيمان والاعتقاد جزءاً من نتائجها وآثارها ويحذّر المعاندين أنه إمّا أن يقيموا في الدرجة الأولى برهاناً على مدّعياتهم أو لينقضوا البرهان الذي أقمناه . وإذا لم يكن لديهم دليل (لا دليل عقلي ولا دليل نقلي) ولا يعتمدون على وحي سماوي ولا يستندون إلى دليل نقلي جاء به الأنبياء السابقون فلا مفرّ لهم حينئذٍ من الخضوع والتسليم . وإذا لم يكن لهم دليل

عقلي ولا نقلي في الاعتراض على النبي الأكرم ﷺ يُحْكم عليهم بالفشل والخسران . وليس هناك سبب ينصركم ، فلا قوة الأقوياء تستطيع الوقوف والصمود أمام الوحي والعقل ، ولا ثراء الأثرياء قادر على المقاومة ، ولقد كان من قبلكم من هو أشدّ منكم قوة وتمكّنا ولكنهم باؤوا بالفشل الذريع والخسران المبين .

وأما القسم الأول من البحث من أن القرآن كتاب نور وهداية وقد بيّنت فيه المسائل العقلية بشكل يكون الاعتقاد فيه مرتبطاً بالعمل ومقارناً معه فنلاحظ هذا في كثير من الآيات القرآنية ، كما في هذه الآية من سورة فاطر التي طرحت في البحث السابق ﴿ إنّما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1] فهنا ثناء ومدح للعلماء الذين يكون علمهم مقارناً للخشوع والخضوع أمام الحضرة الإلهية . وبما أن الإنسان على تحولاته الباطنية أثناء الاستدلال وإقامة البرهان فإنّ هذا الاطّلاع سيكون مقارناً للإيمان والاعتقاد .

وفي نهاية سورة الأنعام طرحت مسألة التوحيد من خلال ثلاث طرق .
وفي سورة الأنعام أيضاً أمر الله تبارك وتعالى رسوله الكريم ﷺ في أربعين موضعاً بـ ﴿ قل ﴾ أي احتجّ عليهم هكذا ، وعلى حد تعبير الأستاذ العلاّمة الطباطبائي من المناسب أن تسمّى هذه السورة بسورة الاحتجاج . وأمّا إطلاق اسم سورة الأنعام على هذه السورة فهو ظاهراً من التسامح المتعارف في الإعلام بالغلبة ، ولو راجعنا كتب التفسير التي كتبها القدماء وقبل عشرة قرون أو في هذه الحدود مثل تلخيص البيان للشريف ولطائف المعارف للقشيري ، فمن المتعارف أن هؤلاء كانوا يقولون عن هذه السور : « في تفسير السورة التي يذكر فيها الأنعام أو البقرة أو الفيل أو العنكبوت » . وأمّا السور التي سُمّيت بأسماء خاصة في زمن رسول الله ﷺ أو سماها الأئمة

---

(١) سورة فاطر، الآية : ٢٨ .

المعصومين عليهم السلام إسماً خاصاً فحسابها على حدة ، وإلاّ فبقية أسماء السور الأخرى إعلام بالغلبة . وفي آخر سورة الأنعام عند إتمام حكاية احتجاجات إبراهيم الخليل يقول الله تعالى لرسوله الكريم : ﴿ **قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم** ﴾[1] الهداية حركة خاصّة ، سواء كانت بمعنى الأخذ إلى الطريق أو كانت بمعنى طي الطريق والإيصال إلى الغاية . فكلتاهما حركة ، وعلى ضوء برهان الحركة ـ الذي طُرح في الجلسة السابقة ـ تحتاج إلى المحرّك ، وذلك المحرّك هو الله الهادي : ﴿ **ديناً قيّماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾[2] وهذه الآية قد مرت في استدلالات إبراهيم الخليل ﴿ **قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للّه رب العالمين** ﴾[3] ، وقد مرّت هذه الآية في بحوث الإيمان والأخلاق في نظر القرآن : ﴿ **لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين** ﴾[4] فالله تعالى لا شريك له ورسول الله مأمور بهذا التوحيد . وأمّا الأولية في ﴿**أول المسلمين**﴾ في ليست أولية زمانية لأن كل نبي بالنسبة إلى أمّته هو أوّل المسلمين ، ومع أنّ الأنبياء السابقين مثل إبراهيم عليه السلام لهم هذه الأسبقية الزمانية والأولوية الزمانية بالنسبة إلى الأنبياء والأمم التي جاءت بعده إلاَّ أنّه لم يرد في القرآن الكريم التعبير بـ ﴿ **أول المسلمين** ﴾ لأحد من الأنبياء سوى رسول الله صلى الله عليه وآله . فقد جاءت الإشارة إلى ذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم . وهي إشارة إلى مقام خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله الذي له الأولوية الوجودية والرتبية ، وهو في العزّة والرفعة أشرف مسلمي العالم ، درجة إسلام وانقياد خاتم الأنبياء هي أعلى وأرفع من كل مسلمي العالم في الماضي والحاضر والمستقبل ، وهو أول

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦١ .
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦١ .
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢ .
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٣ .

المسلمين ، وحينئذ يعلّم الله سبحانه رسوله الكريم ﷺ الاحتجاجات ويذكر ثلاث طرق للاستدلال .

الأول : حول أصل نشأة الحياة الدنيا .

الثاني : حول وجود الإنسان والحياة الإنسانية وتنظيم المجتمعات البشرية.والتشكيلات الاجتماعية وأمثال ذلك .

الثالث : حول ما يجري بعد الدنيا من الحساب والثواب والعقاب والجنّة والنار .

وبتعبير آخر طرح في هاتين الآيتين ثلاث حجج أو ثلاثة براهين .

أحدها بلحاظ الحياة الدنيا والآخر بلحاظ ما قبل الحياة الدنيا والثالث بلحاظ ما بعد الحياة الدنيا . الإنسان ما قبل الدنيا ، والإنسان في الدنيا ، والإنسان بعد الدنيا .

الأول : الاستدلال المرتبط بمجموع النظام وقبل وجود الحياة الإنسانية مع غض النظر عن الحياة البشرية وهو : ﴿ **قل أغير الله أبغي ربّاً وهو رب كل شيء** ﴾[1] أي لا يمكن أن لا يكون الإنسان تحت ربوبية مبدأ ما ويقول : أنا أدبر أمري بنفسي ولا يستطيع أن يتّخذ غير الله ربّاً ويقول أنا لست بحاجة إلى ربّ . أي ينكر نظام العلة الفاعلية ويقول : هذه الكمالات تكوّنت بنفسها ، أي أنّ هذه الكمالات كانت بلا مكمّل وبلا واهب للفيض . وهذا إنكار للعلة الفاعلية التي هي روح قانون العلية . ولا يمكن البحث مع هذا العقل ، ومن ينكر العلّة الفاعلية لا يستطيع أن يرتّب مقدّمات ويستخلص منها النتيجة . ولا يمكن القول البشر ربّ ولا يحتاج إلى مربّ ومعلم . ولا يمكن القول أيضاً بأنّ ربّ البشر غير الله لأنّ غير الله محتاج إلى

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

الله . يقول : ﴿ **قل أغير الله أتّخذ ولياً فاطر السمٰوات والأرض وهو يطعم ولا يُطعم** ﴾[1] فكل مَنْ وكل ما اتّخذه بعنوان ربّ هو مربوب . وإذاوصل منه إلى الآخر أو الآخرين كمال فهو واسطة الفيض لا مبدأ الفيض . والله رب كل شيء ، إذن يجب أن يكون هو الله .

الثاني : ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[2] وبما أنّ العمل حيّ والعالم منظّم ، ولأنّ خالق العالم ليس عاطلاً ، وكل مَن عمل عملاً يجزى به . ولا يمكن أن يكون حساب المحسنين والمسيئين واحداً .

يقول القرآن : لا يتخيل أحد أنّهم ﴿ **سواء محياهم ومماتهم** ﴾[3] المؤمنون والمجرمون ليسوا على حدّ سواء ، ولا يستوي المصلحون والمفسدون . لكل واحد منهم كتاب وحساب . وكل عمل حيّ . وكل وزر لصاحب ذلك الوزر . ولا يحمل الإنسان في يوم القيامة عبء غيره . وكل إنسان مسؤول عن حمل ثقله . لأنّه يوجد حساب في العالم ولا بدّ من الثواب والعقاب . إذن يوجد مثيب ومعاقب ومفتش ومحاسب في تصرف الله . مالك يوم القيامة ، وهذا الاستدلال على المبدأ من طريق المعاد : ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها** ﴾ كل مَن يعمل عملاً فعلى نفسه يعمل . فلا يمكن أن ينمحي ذلك العمل من البين ، ولا يمكن أن يتنصل أحد عن عمله ويلقيه على عاتق الآخرين ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[4] كلّ مطوق بعمله . إلاّ أولئك الرجال الأحرار غير المدينين لأحد ﴿ **إلاّ أصحاب**

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤ .
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤ .
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢١ .
(٤) سورة المدّثر، الآية: ٣٨ .

اليمين * في جنّات يتساءلون ﴾[1] وأمّا الآخرون فهم في رهن أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم الفاسدة . وبما أنّه يوجد نظام للمحاسبة والتفتيش فلا بدّ إذن من وجود محاسب خبير وعادل وهو الله تبارك وتعالى . وهذا الاستدلال على التوحيد الربوبي من طريق المعاد . عندما نقرأ أيضاً وفي سورة الفاتحة : **﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمٰن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾** فهي ناظرة أيضاً إلى هاتين الحجّتين من طريقين . أحدهما هو أنّ كل المخلوقات والموجودات خاضعة لربوبية الله تعالى ، والله تعالى هو ربّ العالمين . وهذا هو التوحيد الربوبي بلحاظ بدء الخلقة . وثانيهما هو أنه لا بدّ من وجود يوم الجزاء ، والكل يحضرون في ذلك اليوم عند ذاك الذي أعطاهم هذه القدرات والإمكانيات وقد أحاط بما قدّمت أيديهم وهو خبير بأعمالهم ، ولذا هو **﴿ مالك يوم الدين ﴾** وهذا استدلال على التوحيد من طريق المعاد .

وهذان البيانان المذكوران في سورة فاتحة الكتاب يتناسبان مع البيانان المذكوران في سورة الأنعام : **﴿ ثمّ إلى ربّكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾**[2] . تنتهي في ذلك اليوم كل تلك الاختلافات ويتضح مع مَنْ كان الحق . ويتبيّن في ذلك اليوم لماذا كانت كل هذه الاتجاهات والمدارس المختلفة ؟ ولماذا كانت حروب الاثنين وسبعين فرقة ؟ ما هي الحقيقة التي اعتبرها الآخرون من الخرافات ؟ وما هي تلك الحقيقة التي رآها الآخر أو الآخرون باطلاً ؟ وفي ذلك اليوم يتضح كل شيء وتختم كل الاختلافات الفكرية والعقائدية والعملية . وفي ذلك اليوم لا يمكن أن يختلف اثنان حول موضوع هل هو حق أو باطل لأنّ هناك **﴿ حتى يتبيّن لهم أنّه**

(١) سورة المدثر، الآيتين: ٣٩ ـ ٤٠ .
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤ .

الحق ﴾[1] أنّه يوم ظهور الحق ، ويوم محو الظلام فلا ظلمات فكرية ولا ظلمات أخلاقية هناك . وكل من يخفي معه شيئاً يضطر لإخراجه في ذلك اليوم **﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾**[2] لا يستطيع أحد في يوم القيامة أن يخفي شيئاً في نفسه ويكتمه ولا يتحدّث به **﴿ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾**[3] .

الثالث : عن طريق نشأة الحياة الإنسانية قال : **﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾**[4] تكوين المجتمعات البشرية ، خلق الإنسان ، ظهور مجموعة واندثار مجموعة أخرى ، استخلاف مجموعة موجودة ، أو جعل الإنسان خليفة الله ، كل هذه الحركات والبرامج هي بعاتق المحرّك الأول والمخطط الأول . وجعل الله عزّ وجلّ هذه الاختلافات من أجل حفظ النظام . وهذه الاختلافات لا قيمة لها ، وأمّا الفوارق الحقيقية فهي بالإيمان والعقائد ، وهي أيضاً تصير معلومة عند الله **﴿ إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾**[5] . وأما هذه الاختلافات الموجودة فهي لحفظ النظام الاجتماعي . يقول : رفع بعضكم فوق بعض درجات ليكون التسخير متبادلاً من الطرفين لا من طرف واحد **﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير ممّا يجمعون ﴾**[6] يقول : الاختلافات والفوارق الموجودة في المجتمعات البشرية لا تصلح أن تكون أساساً للافتخار والتكبّر وليست ذات قيمة . وإنما القيمة الحقيقية للإيمان والكرامة . وهي أيضاً عند الله . والإنسان المحترم هو الذي يترك التفاخر

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ٥٣ .
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٢ .
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨ .
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥ .
(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٣ .
(٦) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

جانباً لأن الافتخار غير لائق به . وهذا التفاوت في الدرجات هو أفضل للحياة الإنسانية ، لأنّهم لو كانوا جميعاً في درجة واحدة فإنّ الحياة البشرية ستصاب بالشلل . وهذا التفاوت في الدرجات لأجل التسخير المتبادل بين الطرفين لا التسخير من جهة واحدة . ونشأة الحياة البشرية وهذه التحوّلات وهذه الحركات وهذا الذهاب والمجيء يحتاج إلى محرّك ، يحتاج إلى مظهر وصانع ، وذلك هو الله تعالى : **﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم ﴾**[١] لأنّ كل ما يعطيه الله هو اختبار وامتحان . وأفراد البشر ما داموا أحياءً فهم جالسون في قاعات الامتحان والاختبار . أحياناً يتمتعون من الإمكانات المبذولة لهم وأخرى لا يستفيدون . يقول تبارك وتعالى في سورة الفجر : إن كل ما نهبه للإنسان هو من باب الابتلاء والامتحان ولكن الإنسان يتخيل باطلاً بأنّ الله عزّ وجلّ إذا أعطاه نعمة فإنما يعطيه إكراماً له وإذا سلبها منه فإنّما هي إهانة له ، يقول تعالى في سورة الفجر : **﴿ فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه ﴾**[٢] فإذا امتحنه الله تعالى وابتلاه بأن يعطيه مالاً أو علماً وتمتع بهذه النعم والكرامات الظاهرية **﴿ ونعمه فيقول ربّي أكرمن * وأمّا إذا ما ابتلاه فقدّر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن ﴾**[٣] هذه نظرتان للطبقة المرفهة والطبقة المحرومة . يقول : جلست الطبقة المرفهة في قاعدة الامتحان تتنعم وقعدت الطبقة المحرومة تصبر وتتحمل . ويقول : ليس صحيحاً ما تخيلته الطبقة الأولى ولا ما توهّمته الطبقة الثانية ، فالأثرياء موضع اختبار وكذلك الفقراء . وأما الكرامة فهي عند الله وهي « أنّ الغِنى والفقر بعد العرض على الله »[٤] . وستعلم في يوم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥ .

(٢) سورة الفجر، الآية: ١٥ .

(٣) سورة الفجر، الآيتين: ١٥ ـ ١٦ .

(٤) نهج البلاغة: ص ٥٥٥ الكلمات القصار (صبحي الصالح).

القيامة . ولا يوجد هنا شيء يبعث على التكريم أو الإهانة ، وكل ما في الدنيا هو للامتحان لأنّه ﴿ ليبلوكم في ما آتاكم إنّ ربّك سريع العقاب ﴾[1] فإذا أراد أن يأخذ فلهذا وإتماماً له [أي ليبلوكم] ﴿ وإنّه لغفور رحيم ﴾ وطريق التوبة مفتوح .

هذه استدلالات ثلاثة أمر الله تعالى رسوله الأكرم ﷺ الاحتجاج بها على التوحيد الربوبي . ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم في عدة مواضع وأحدها في سورة الأحقاف يقول للمشركين وعبدة الأصنام : إنّ كلامكم وادّعائكم إما أن يستند إلى أصل عقلي توصّل إليه عقل مفكّر أو يستند إلى رؤى الوحي السماوي جاء به رسول مرتبط بالسماء . يعني إمّا بالعقل أو بالوحي . وهذا الحصر يقول به العقل . فالعقل يقول بأنّ النظرة الفلسفية للعالم لها طريقان :

١ ـ طريق الشهود والوحي .
٢ ـ طريق الفكر والعقل .

فالعقل يصدّق الوحي ، والوحي يحترم مكانة العقل . وكما قلنا فإنّه لا يوجد أكثر من طريقين . والإنسان الذي يقدّم نظرية عن المفهوم الفلسفي للعالم فإمّا أن يستند إلى دليل عقلي متقن أو يؤيّده وحي قطعي . وأمّا إذا لم يؤيّده الوحي وليس له تفكير عقلي ومنطقي مقبول فنظريته باطلة . وإذا كان نظره باطلاً فلا يستطيع الوقوف في وجه الحق ومقاومته . وقد شخّص القرآن أدوات الباطل . وهو يقول : في كل وقت يدخل فيه الباطل مع الحق في صراع فهو مهزوم لا محالة . وقد حذّر القرآن الكفار وعبدة الأوثان في الحجاز والأشخاص الذين وقفوا في وجه رسول الله ﷺ أنّه كان قبلكم من

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥ .

هو أشدّ منكم قوّة وآثاراً في الأرض ولم يستطيعوا الوقوف أمام دعوات الأنبياء . فلا ثروة الأثرياء ولا قوّة الطواغيت استطاعت الوقوف بوجه الرسالات السماوية . وقد بيّن القرآن كل هذه الأقسام بشكل واضح . وعندما يستدل في سورة الأحقاف على التوحيد الربوبي يقول : ﴿ **ما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق** ﴾[1] فخلق السماء وما فيها والأرض وما عليها كان بالحق ومع الحق . فالحق ليس منفصلاً عن الخلق . فإذا لم يكن في العالم نظام وكتاب وحساب فهو عبث وباطل . . وإذا كان العالم بحيث كلٌّ يفعل كما يشتهي ويقول كما يحلو له ثم ينتهي كل شيء بلا حساب ولا ثواب ولا عقاب فهو مخلوق عبثاً . ولكن إذا كانت الدنيا تسير نحو الكمال ولهذه السفينة التي تبحر في عالم الطبيعة المتلاطم ميناء ترسو عنده باسم القيامة ، وبتعبير القرآن الدقيق ﴿ **إيّان مرساها** ﴾[2] يسألون عن يوم القيامة متى ترسو هذه السفينة الماخرة في بحر عالم الطبيعة المتلاطم والصاخب ؟ وأين هو ذلك الميناء ؟ فإذا كان لهذه السفينة مكان ترسو فيه وتخلد إلى الهدوء من جهد المسير فيكون حينئذ حقاً وعالم الحق . يقول القرآن : لم يُخلق العالم عبثاً بل خُلق بالحق ، وأنّ لهذا النظام مدّة معينة يصل إلى هدفه عند انتهاءها ﴿ **وأجل مسمّى والذين كفروا عمّا أنذروا معرضون** ﴾[3] فالكفار معرضون عمّا حذّرهم وخوّفهم منه الأنبياء وبيّنوا لهم العواقب الوخيمة للفساد .

وعندئذ يستدل القرآن ويقول : إنّ كلامكم وما تقولون مخالف للتوحيد الربوبي ، فهل دبّرت هذه الأصنام أمراً ؟ وهل رأيتم ما تنطقون به

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣ .
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧ .
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣ .

مسطوراً في كتاب سماوي ؟ أم هل دلّكم على هذا الكلام عقل مفكّر منصف ؟ ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله** ﴾[1] أخبرونا عن مقاصد الشرك ؟ وأنبئونا عمّا تعبدون من دون الله ؟ ﴿ **أروني ماذا خلقوا من الأرض** ﴾[2] ماذا فعلت هذه التي تعبدونها من دون الله ؟ هل هي خالقة ؟ هل خلقت شيئاً لوحدها ؟ أم هل لها دور وشركة في الخلق ؟ فإذا لم تكن قد خلقت شيئاً لوحدها وكانت شريكة لله سبحانه في بعض الأعمال ﴿ **أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات** ﴾[3] ثم يقول في ذيل هاتين الجملتين : ﴿ **ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين** ﴾[4] فإذا كان ما تقولون صحيحاً فأتوا بشاهد عليه من الكتب السماوية السابقة أو أيّدوه ببقايا علم ودليل وتفكير منطقي . فإمّا أن يكون كلامكم مؤيّداً بوحي السماء أو عقل مفكّر وعالم يدافع عنه . وأمّا إذا لم يؤيّد شرككم الوحي السماوي فلا أصل سماوي له ، ولم يستند إلى التفكير العقلي فلا أصل عقلي له أيضاً فحينئذ سيكون قولكم باطلاً ، ولا يستطيع الكلام الباطل أن يصارع الحق ﴿ **ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم** ﴾[5] فإذا كنتم قد جئتم في مقابل دين الله بمذهب لم يؤيّده وحي من السماء ولم يشهد له دليل من العقل مُحكم فكيف يستطيع مثل هذا المذهب أن يقف أمام دين الله ! وإذا لم يكن قد أيّده فكر وبرهان واستدلال ووحي سماوي فيضطر حينئذ أن يتوسّل بأساليب الترغيب والترهيب لإطفاء نور الله ، وإذا كانوا يريدون أن يصارعوا الحق من هذا الطريق فاعلموا أنّه كان

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٤ .
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٤ .
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٤ .
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٤ .
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ٤ .

من قبلكم مَن كان أكثر أموالاً وأشدّ قوّة لم يفلحوا وباؤوا بالفشل . وعندما يحكي القرآن ما كان مع قارون في سورة القصص عندما نهض لمقارعة موسى عليه السلام يقول : لقد أعطينا قارون أموالاً لا تُحصى لكثرتها بحيث كان يجهد العصبة القوية أن تنقل صناديق الأموال من مكان لآخر . يقول هكذا : ﴿ **إنّ قارون كان من قوم موسى** ﴾[1] كان قارون متحولاً من قوم موسى الكليم عليه السلام ﴿ **فبغى عليهم** ﴾[2] وأصبح من العصابة التي بغت على موسى عليه السلام بما آتيناه من ثروة ﴿ **وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة** ﴾[3] وكانت أمواله على كثرتها ـ وقد أعطيناه هذه الأموال اختباراً وامتحاناً ـ بحيث ينوء بحمل مفاتيح خزائنها العصبة أولو القوة أو تنوء بحملها من مكان إلى آخر : ﴿ **إذ قال له قومه لا تفرح إنّ الله لا يحب الفرحين** ﴾[4] . وقد نصحه قوم هارون حينما قالوا له : لا تفرح بهذه الثروة الطائلة فسيهلك هذا السرور الكاذب ، لأنّ كل من يُسرّ سروراً باطلاً يخرج عن حبّ الله : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ﴾[5] واسعِ فيما آتاك الله من هذه النعمة إلى كسب الفضائل والمقامات المعنوية والفوز في الدار الآخرة : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾[6] لا تنس نصيبك من الدنيا فكم سيكون نصيبك ؟ لا تنس نصيبك فإنه ليس دائمياً ، أو أن لا تنس نصيبك من الدنيا أيضاً . ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إنّ الله لا يحبّ المفسدين** ﴾[7] الله تعالى لا يحب الإنسان المفسد والإنسان

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٦.
(٣) سورة القصص، الآية: ٧٦.
(٤) سورة القصص، الآية: ٧٦.
(٥) سورة القصص، الآية: ٧٧.
(٦) سورة القصص، الآية: ٧٧.
(٧) سورة القصص، الآية: ٧٧.

المسرور بالمسرّات الباطلة . فقال قارون في جواب قومه : ﴿ **إنّما أوتيته على علم عندي** ﴾[1] ولم يقبل نصحهم وقال : لأنّي قد حصلت على هذه الثروة بعلمي فأنا حرّ في طريقة إنفاقها هو لا يعلم بأنّ كل نعمة تصل للإنسان هي إمتحان واختبار له . والله تبارك وتعالى قد وضع كل هذه النِّعم تحت تصرّف الإنسان ليمتحنه بها . وهذا النمط من التفكير هو تفكير قاروني حيث يقول الإنسان : أنا الذي بذلت جهدي فكنت عالماً أو فناناً أو مؤلفاً أو خطيباً أو ثرياً . وهذا التفكير تفكير باطل . يقول في سورة النحل : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾[2] فكل نعمة تصل إليك فمحرّكها وموصلها وآخذها ومعطيها إنما هو بالعناية والإرادة الإلهية .

وعندما قال قارون : أنا الذي بذلت هذا الجهد وبما أعرفه من علم الاقتصاد ، وبعلم الاقتصاد وصلت إلى هذه الثروة الطائلة ، يقول الله تعالى : ﴿ **أولم يعلم أنَّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعاً** ﴾[3] ألم يطالع قارون التاريخ ليعتبر بما فعل الله بمن كان قبله ممّن كان أكثر ثراءً وأموالاً منه كيف أهلكهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر ؟ وإن وجد قارون الذي كان يمتلك من الكنوز ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة فقد وجد في الدنيا مَنْ هو أكثر كنوزاً منه امتدت إليه يد الهلاك والإبادة الأبدية ﴿ **من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعاً ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾[4] إلى أن يقول : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾[5] وعندما يجيء يوم

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣
(٣) سورة القصص، الآية: ٧٨.
(٤) سورة القصص، الآية: ٧٨.
(٥) سورة القصص، الآية: ٨١.

الخطر فإنّ هذه العصابة المفسدة التي وقفت في وجه الحقّ ليس لها قدرة الانتصار والانتقام وليس لها فئة من الخارج تساعدها . فلا انتصار ولا نصرة ، لا قدرة انتقام ولا مساعدة من خارج ، لا قوة تعينها من الداخل ولا قوّة تعينها من الخارج ، لأنّ الداخل والخارج تحت نفوذ الله وسلطته ﴿ **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله** ﴾ فلا يمتلكون قدرة ذاتية على الانتصار وليس لهم قوة خارجية تنصرهم .

وقال في سورة سبأ بعد الذي بيّنه من أنّ منطق الكفار لا أساس له من وحي السماء وليس له أصل عقلي : ﴿ **وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير** ﴾[1] أي أنّ أقوالهم لا تستند إلى وحي سماوي ولا إلى منطق عقلي . وحينئذٍ يقول : ألم يطالع الذين هم على الباطل كيف أهلكنا من قبلهم من كان أشدّ قوّة منهم .

﴿ **وكذب الذين من قبلهم** ﴾[2] وقبل هؤلاء كان هناك أفراد ماديون من عبدة الأوثان وغيرهم كذّبوا دعوة الأنبياء إلى التوحيد : ﴿ **وكذّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم** ﴾[3] يقول الله تعالى لرسوله الأكرم ﷺ : إنّ هؤلاء الكفّار وعبدة الأوثان الذين تآزروا على محاربتك والقضاء عليك لم يمتلكوا معشار قوة ما كان يمتلك من قبلهم . فإن كان من جهة المال فهم لا يملكون عشر ما كان يملكه أولئك ، وإن كان من جهة الأسلحة والقبيلة والحزب والمؤامرات الداخلية والخارجية فليس لهم عشر ما يتمتع به أولئك من القدرات السياسية والعسكرية . كان الطواغيت من الذين قبلهم يمتلكون أضعافاً مضاعفة ممّا يمتلكه الكفار المعاصرون ومع

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٤ .
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٥ .
(٣) سورة سبأ، الآية: ٤٥ .

ذلك أهلكناهم واندثرت آثارهم . ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رُسلي ﴾[1] لقد كان الكفّار السابقون يمتلكون من القدرات السياسية والاقتصادية والعسكرية عشرة أضعاف بل أكثر مما يمتلكه هؤلاء ونهضوا لمحاربة رسلي ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾[2] فأصبحوا وجهاً لوجه أمام الانتقام الإلهي ﴿ إنّا من المجرمين منتقمون ﴾[3] يقول : مَنْ كان باطلاً فإنّا نحطم باطله يعني ﴿ قل جاء الحق ﴾ . ولكن كيف يحطم الحق الباطل ؟ يقول في سورة الأنبياء : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾[4] نحن بالحق نسحق الباطل ، يحطم الحق مخ الباطل ويسحق أنفه ، وحينئذ ينمحي الباطل وتندرس آثاره .

والنتيجة أنّ القرآن بما أنّه كتاب نور وهداية وشفاء فهو يطرح البراهين على التوحيد جنباً إلى جنب مع الاعتقاد والإيمان . وقد علّم الله تعالى رسوله ﷺ عدّة طرق لكيفية الاستدلال والاحتجاج ، ومن ذلك ما يقوله لأولئك الذين تحصنوا أمام الحق : أما أن تقيموا البرهان على مدّعاكم أو تقبلوا دليلنا . ويجب أن يستند برهانكم إلى وحي سماوي أو إلى منطق عقلي . وأمّا إذا لم يؤيّدكم وحي السماء ولم يسعفكم العقل في ذلك ولم تقبلوا دين الله فاعلموا أنكم ستفشلون في مقاومة الحق ، لأنّ من قبلكم كان أشدّ منكم قوة ومع ذلك تعرّضوا للهلاك والانتقام الإلهي .

أتمنى أن يترسخ علم التوحيد هذا في قلوبكم مع الخشية والخضوع الخاص ﴿ إنّما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[5] . وأرجو أن تعم هذه

---

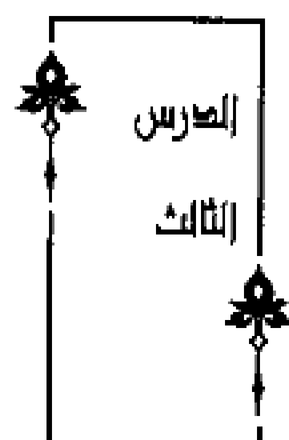
(١) سورة سبأ، الآية : ٤٥ .
(٢) سورة سبأ، الآية : ٤٥ .
(٣) سورة السجدة، الآية : ٢٢ .
(٤) سورة الأنبياء، الآية : ١٨ .
(٥) سورة فاطر، الآية : ٢٨ .

النورانية جميع أفراد الأمة الإسلامية ونكون مشمولين لهذه الآية الكريمة : ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾[1] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



(1) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢ .



العلم والمعرفة أرضية التولي والتبري

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

بما أن القرآن كتاب نور وهداية إلهية للإنسان ، وهو يبين جميع المعارف والأحكام الضرورية والنافعة التي لها دور في تكامل الإنسان . والإنسان موجود يعمل بالإرادة ، ولذا فإنّ القرآن لو أراد تعيين طريق تكامل الإنسان فيجب أن ينظم مبادىء تكوّن إرادته ، الأشياء الحسنة التي يتعوّد عليها والأشياء التي يجب أن يبغضها وماذا يفعل بالنسبة لموارد ميوله وموارد بغضه ؟ وإذا كان الإنسان موجوداً ذا بُعد واحد ويتحرك في بُعد واحد فلا يحتاج إلى كل هذا السعي والجهد . ولأنّ الإنسان ذو بُعدين ويرغب في بعض الأمور فيجهد في سبيل أداءها ، وينفر من بعض الأشياء فيحذر من أداءها ، وسعادته أيضاً في الأعمال الاختيارية ، لذا ينبغي توجيهه وإرشاده ماذا يُحِبّ وماذا يكره . ويجب عليه قهراً تهذيب مسألة الحب والبغض في نفسه وهذا هو الأمر الرسمي للدين المسمى بالتولّي والتبرّي أنه أي أمر وأي شخص يتولّى ، ويتمتع بولايته ، ويكون له عقد ولاء معه . ومن أي أمر

ينفر ويتبرى .

وإذا كانت إحدى العناوين المهمة في التربية هي المحبة والعداوة ، وإذا كانت إحدى الطرق البارزة للرشد الميل والبغض فيجب تنظيم مبادىء هذه الأمور . والإنسان ليس موجوداً يعمل على وفق العلم والاطلاع فقط ، بل علمه ومعرفته تشكل الأرضية للتولي والمحبة والميل . فالتولي والمحبة تكون أساساً للإقدام أو تكون أرضية التبري والكراهة أساساً للإحجام . وهذا التبري والانزعاج سيكون مانعاً له عن الإقدام . وأساس التنظيم هو التولي والتبري . الموجودات الأخرى تتمتع بالجاذبة والدافعة فهي تجذب ما هو مناسب لها وتطرد ما هو غير مناسب لها . وبهذين الجناحين الجاذبة والدافعة تصل إلى كمالها . وهذه الجاذبة والدافعة عندما تتلطف تظهر بصورة الشهوة والغضب . وإذا صارت أرق من هذه المرحلة تظهر بصورة المحبة والعداوة . وإذا جاءت إلى أعلى من هذا المقام تظهر بصورة الإرادة والكراهة . وإذا صارت أرق وألطف من هذه المرتبة تتجلى بصورة التولّي والتبرّي وتكون إحدى أعمدة الدين . ويجب على الإنسان أن يستمد من الوحي والعقل لينقذ نفسه من خطر التولّي الباطل والتبري من الحق ، وأن يعلم موضع التولي الحق وأنّ ما يتبرّأ منه هو الباطل . والإنسان لا يستطيع الحياة بدون الميل والمحبة كما لا يستطيع الوصول إلى كماله إذا كان مستغرقاً في حب باطل . ولا يستطيع أيضاً أن يجمع حب الحق وحب الباطل . وما يستنتج من القرآن أمور هي :

١ ـ الإنسان بالمحبة يعيش وبالمحبة يعمل .

٢ ـ مقرّ المحبة هو القلب .

٣ ـ كل إنسان يتمتع بقلب واحد وليس لأحد من قلبين في جوفه .

٤ ـ كل من كان قلبه مشغولاً بحب الحق فليس في قلبه مكان للمحبة الباطلة . والقلب الذي يكون وعاءً للمحبة الباطلة لا يترك فراغاً فيه لحبّ الحقّ .

وهناك قواعد ينبغي مراعاتها في الوصول لحب الحقّ كما هناك لوازم بعد الوصول لحبّ الحق ، وقد بيّن القرآن بصورة مفصّلة هذه القواعد واللوازم . وأمّا أن الإنسان لا يستطيع الحياة بلا حب فالقرآن يعرّف الإنسان بأنّه فاعل مختار وفاعل بالإرادة . والاختيار والإرادة فرع التعلق . فالإنسان عندما يريد شيئاً يحبّه ويطّلع على منافعه ، فيتعلّق قلبه بمنافعه إلى أن تتكوّن عنده إرادة ذلك الشيء . وكذلك يكره ويبغض الشيء الذي يطّلع على ضرره ، فإذا عرف ضرره تبرّأ منه . ونسبة المشيئة والاختيار في القرآن إلى الإنسان من هذا الطريق . وليس هناك شك في أنّ المشيئة والاختيار فرع المحبة أيضاً . والقلب هو محلّ الحب لأنّ الجذب والحب أمران معنويان ملازمان للإدراك .

وبما أن قلب الإنسان هو محل الإدراك وموضع الأمور المعنوية فستكون الروح إذن هي وعاء الحب . فالقلب يمنح مكاناً للحب ، والحب له مكان في قلب المحب ، والروح هي وعاء الحب . وأمّا أنَّ الإنسان ليس له أكثر من قلب وأكثر من روح فقد بيّنها القرآن في سورة الأحزاب : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾[1] . وأمّا أنّ الحق والباطل لا يجتمعان لأنّهما نقيضان ، وأساساً عندما يترسّخ الحب في مكان فلا مجال حينئذ للباطل ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾[2] فمرّة يكون الحق قديماً وأخرى يكون جديداً ، وعندما يأتي الحق ويظهر فلا مكان للباطل

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤ .
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٩ .

القديم أو الجديد . فالبطلان عدم الحق ، والحق مع عدم الحق لا يجتمعان . وليس هناك أي ارتباط بين الحق والباطل . فمرّة يكون الباطل قديماً ومجرّباً ومرّة يكون جديداً ومبتدئاً ﴿ **قل جاء الحق** ﴾ وعندما يأتي الحق فحينئذ ﴿ **وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ لا الباطل المبتدىء ولا الباطل القديم .

هذه هي أسس البحث ، وهي تظهر بصورة جيدة من خلال الآيات القرآنية . لأنّ مسألة التولّي والتبري تعتمد على الحب ، أي أنّ الإنسان الفاقد للحب فاقد للتولّي والخالي من البغض خالٍ عن التبري . فالميل فرع المحبة والتنفّر فرع العداوة والكراهة ، ولذا يجب أن نكون أكثر دقّة في بحث المحبة في نظر القرآن الكريم . فحسن الحب وقبحه وحب الحق والباطل مرتبطان بحسن المحبوب وقبحه ، لأنّ الحب حقيقة ذات إضافة ، فقيمة الحب من قيمة المحبوب . فإن تعلّق الحب بالباطل فهو الحب الكاذب ، وإن تعلّق الحب بالحق فهذا هو الحب الصادق . فإذا كان المحبوب باطلاً فسيكون هذا الحب ضاراً ، وإذا كان المحبوب حقّاً فسيكون هذا الحب نافعاً . وقد بيّن الدين الحب الحق والصادق والحب الباطل والكاذب واللذان هما أرضية السعادة والشقاء هكذا : حب الدنيا بداية كل خطأ وزلل وحبّ الله أساس كل فضيلة وكمال . وفي المجامع الروائية كما في الكتاب القيّم أصول الكافي في باب حب الدنيا وردت روايات عديدة عن المعصومين عليهم السلام منها هذه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « حبّ الدنيا رأس كل خطيئة » العلاقة بالدنيا هي أصل كل خطأ وخطيئة . وإذا كان حب الدنيا هو بدء كل خطأ ومعصية ، والدنيا ليست بمعنى الأرض والسماء ، فكل ما يُبعد الإنسان عن الله فهو دنيا . فأحياناً تكون الدنيا هي العلاقة بالطبيعة ، وأخرى تكون هي العلاقة بالعلم والبحوث الفكرية التي تُبعد الإنسان عن

الكمال وتوجد عنده الغرور وحبّ الذات والتكبُّر وهي الحجاب الأكبر ، وأمثال ذلك . فكل ما يُبعد الإنسان عن الله هو دنيا . وأساس كل الأخطار حب الدنيا . وكل ما يقرّب الإنسان إلى الله فهو بداية الفضيلة وأساس كل صواب . وقد أخذ القرآن الكريم هذين البُعدين بنظر الاعتبار وكذلك روايات المعصومين ﷺ . فيقول حول المؤمنين : إذا كان الآخرون يتعلّقون بالأوثان وأشباه ذلك فإنّ المؤمنين تتعلّق قلوبهم بالله تعالى . ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله ﴾[1] . ويشخّص في سورة البقرة الحب الكاذب فيقول : ﴿ ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله ﴾[2] ثم يقول : ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله ﴾ ، فإذا كان الآخرون متعلّقون بالباطل فإنّ المؤمنين أكثر تعلّقاً بالله تعالى لأنّ أرواحهم أسمى من أرواح أولئك ومحبوبهم أيضاً أرفع وأعظم من محبوب أولئك ، ولذا يكون حب المؤمنين لله أشدّ ﴿ والذين آمنوا أشدّ حباً لله ﴾ .

واتّباع الوحي الإلهي هو طريق الوصول لحبّ الله ، يقول الله تعالى لرسوله ﷺ في سورة آل عمران : ﴿ قل إن كنتم تحبّون الله ﴾[3] لأنّ المحبّ يحبّ آثار المحبوب ويتعلّق قلبه بآياته . ورسالتك هي أثر من آثار المحبوب . ولذا يجب عليهم اتّباعها ويطيعونك ويتّبعونك ﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني ﴾ اتّبعوا رسول الله ﷺ لأن المحبّ يحبّ آثار المحبوب . وعندما يتّبع آثار المحبوب تتكوّن عنده الإرادة ويوجد التولي . وإذا وجد التولي وجد المحرّك والدافع للإقدام والعمل . يقول : إذا كنتم تحبّون الله فاتّبعوا رسوله لأنّ هذا الحب يوصلكم إلى الله ، ولكي يقرّب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

المحبوب أحبائه إليه فقد دلّهم على الطريق إليه ، بواسطة رسل الله ، وهذا الدين واتّباع النبي وإطاعة الأوامر الدينية هي طي للطريق يقرب المحب إلى المحبوب . فإن طوى هذا الطريق وصل المحب إلى الحبيب وعندئذ سيصير المحبوب أيضاً محبّاً له . وفي هذه الصورة ـ صورة الحب المتبادل ـ الذي هو علامة وصول المحب إلى الحبيب لأن « وصول الأثر أثر الوصول » فإذا وصل أثر المحبوب إلى المحب فهو علامة على وصول المحب إلى المحبوب . وذلك لأن المحب يتحرّك على أساس هذا الحب ﴿ **قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله** ﴾ فإذا اتّبعتم رسول الله ﷺ فإنكم ستكونون أحبّاء الله ، وإذا كنتم لحد الآن محبين فمن الآن وصاعداً ستكونون محبوبين وكل محبة تعطي آثارها للمحبوب . وتظهر آثار القدرة الإلهية في المحبوب على نحو التجلي لا التفويض . لأن الأولى حق والثانية محال . وقد بيّن القرآن الكريم كثيراً من الطرق التي توصل الإنسان إلى محبوبه وإلى خالقه . يقول : التقوى طريق يقرّب الإنسان إلى محبوبه ، فإذا كان الباري تعالى قد قال في سورة آل عمران : ﴿ **قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله** ﴾ فقد قال في سور أخرى : إن أحباء الله لديهم هذه الخصوصيات ﴿ **إنّ الله يحبّ المتّقين** ﴾[1] فالتقوى طريق من طرق المحبوبية عند الله . فالإنسان الذي يحب الله يكون تقيّاً ، والإنسان الصالح يكون محبوباً عند الله ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ ، ﴿ **يحب المحسنين** ﴾ ، ﴿ **يحب الصابرين** ﴾ ، ﴿ **يحب المتوكّلين** ﴾ ، ﴿ **يحب المقسّطين** ﴾ ، والمقسط هو الذي يعطي قسطاً وسهماً للآخرين ، والقاسط هو الذي يأخذ سهم الآخرين . والقاسط من كان عنده قَسط (بفتح القاف) فهو يظلم ويأكل سهم الناس . ولكن المقسط يعطي صاحب كل ذي حقّ حقّه . وكل

---

(١) سورة التوبة ، الآيتين : ٤ و ٧ .

من أعطى حق الآخرين على وفق ما أمر الله فسيكون حبيب الله لأنّه طوى الطريق إلى الله ﴿ إنَّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهرين ﴾[1] متطهر ومطهر أيضاً . والتقي نقي القلب طاهر الروح لأنّه طوى طريق الطهارة . فطريق الطهارة يوصل المحب إلى المحبوب بشكل يكون محبوباً عند الله أيضاً ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾[2] أولئك الذين طووا طريق الجهاد ووقفوا كبنيان الرصاص في الكفاح والنضال مع أعداء الخارج وأهواء الداخل وانتصروا وطووا طريق الجهاد والقتال ووصلوا إلى المحبوب وعند الوصول إلى المحبوب حظوا بمحبته تعالى . يقول : إنَّ أصحاب الهمم العالية والذين وقفوا بصلابة حديدية في مقابل الأعداء هم أحبّاء الله . وإذن فإذا كان قد قال في سورة آل عمران : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ﴾ فأحباء الله هم الذين يتبعون خطى الرسول ﷺ فإنّه قد قال في سورة الصف : إن الله يحب أولئك الذين طووا طريق الجهاد واتّبعوا الرسول ﷺ : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾، فيجب أن يكون الإنسان قوياً في مواجهة شيطان نفسه في الجبهة الداخلية وكذلك قوياً في مواجهة العدو الخارجي ليكون بنياناً مرصوصاً في الجهادين وفي الجبهتين ليكون في النتيجة محبوباً عند الله . وفي الصحيفة السجادية زبور آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يطلب الإمام السجّاد عليه السلام من الله تبارك وتعالى أن يلحقه في صفوف أوليائه وأن يكتب إسمه مع الشهداء ، فيقول عليه السلام في الدعاء الأول من الصحيفة السجادية : « هب لي ذلك التوفيق ، لأكون لك من الحامدين . حمداً نسعد به في السعداء من أوليائه ونصير به في نظم الشهداء بسيوف أعدائه إنه ولي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٢) سورة الصف، الآية: ٤.

حميد » .

فهذا هو الدعاء الأول من أدعية الصحيفة السجادية يطلب فيه أن يوفّقه الله تعالى للحمد والثناء الذي يوصله إلى نيل الشهادة في سبيله « في نظم الشهداء بسيوف أعدائه » فيرزقه الشهادة في سبيله بسيوف أعدائه . وهذا البنيان الحديدي في مواجهة العدو الخارجي .

ويقول عليه السلام في الدعاء الرابع والأربعين : « واجعلنا في نظم من استحق الرفيع الأعلى برحمتك » يعني اللّهم ارزقنا توفيق الانتصار في جبهة الجهاد الأكبر على هوى النفس لنكون في صف أوليائك الذين نالوا أعلى الدرجات وأرفع المنازل ، في سلك الشهداء وفي ضمن الأولياء معاً وفي الحرب الداخلية نكون أولياء وفي الحرب الخارجية من جند الله أيضاً وإذا استشهد الإنسان يصير محبوباً لله كما أنه لو انتصر في الجبهات الخارجية فسيكون محبوباً عند الله وولياً له لأنه ما لم يطو الطريق إلى المحبوب فلن يصير قريباً منه ولن يصير محبوباً للمحبوب والإنسان يصير محبوباً لله عندما يطوي الطريق المقرب له عندما تكون الصلاة قربان كل تقي ، والشهادة قربان كل تقي ، وأداء الفرائض الدينية قربان كل تقي وتقربه وتجعله يتقرب من الله فعندئذ يصبح محبوباً عند الله . . وإذا طوى شخص المسافة إلى الله وصار محبوباً عند الله فستكون روحه وعاء للحب والولاء الإلهي ، ولا يتعلّق قلبه بأي شخص ولا بأي شيء إلّا إذا كان في طريق الله وفي طريق الحبيب .

ولقد شخّصت سورة التوبة وسورة المجادلة الخطوط العريضة للحب الإلهي . يقول في سورة التوبة : كل من يطوي المسافات في طريق الله لا يستطيع أن يكون قاطع طريق على نفسه بأن يترك قلبه يتعلّق بأنواع الحب الباطلة أو يتعلق بأشياء لا تدعه يواصل سلوك الطريق إلى الله أو تكون له علاقة مع شخص آخر يكون عائقاً له عن المسير . ويعدّد في سورة التوبة

ثمانية أشياء من الأمور المهمة من أمور الطبيعة والدنيا ويقول : فإذا كانت هذه الأشياء قطّاع طريق للإنسان فلن يستطيع الوصول إلى الله أبداً أو إذا كان حبّ هذه الأشياء مانعاً لكم عن طي الطريق إلى الله فانتظروا العذاب الإلهي . ومن المعلوم أنّه إذا كان حب الله متمكناً في القلب فليس هناك أي أثر لهذه الأمور التي تقطع الطريق إلى الله . ومن كان أسيراً لهذه الأمور فسيحكم عليه بالعذاب الإلهي . فهي تقدّم له الأعذار حين الجهاد فتقول له مرة : لا يوجد أحد في بيتنا ، وتقول له أخرى : إنّ والدي يمنع من ذلك ، ومرّة تقول له : إن أمي تمنع من ذلك ، ومرّة تقول له : الولد ، ومرّة تقول له : الأخ . وتطرح هذه الأعذار كقطّاع طرق في طريق الجهاد . وفي سورة التوبة خطاب للنبي ﷺ بأن يقول لهم : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها** ﴾[1] فإذا كانت أحد هذه الأمور الثمانية تقطع عليكم الطريق إلى الله فانتظروا حينئذٍ العذاب الإلهي ﴿ **أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله** ﴾[2] وتحبّون هذه الأشياء أصالة ـ لا حب آلي وطريقي ـ حبّاً يمنعكم عن طي الطريق إلى الله ﴿ **فتربصوا حتى يأتي الله بأمره** ﴾[3] فإذا كان حب أحد هذه الأشياء الثمانية التي ذُكرت على نحو المثال لا من باب التعيين أو حب أي شيء آخر أكثر من حب الله وحب رسوله وأكثر من حب الجهاد في سبيل الله فانتظروا العذاب الإلهي ﴿ **فتربصوا حتى يأتي الله بأمره** ﴾ واعلموا أنكم لن تصلوا إلى المقصد إذ أن هذا العمل فسق وانحراف ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾[4] ويطلق الفسق على الانحراف عن الصراط ،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤ .

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤ .

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٤ .

(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٤ .

ولا يمكن أن يوصل الفسق إلى المقصد لأنّه انحراف ، والفاسق لا يصل إلى أي هدف إنساني لأنّه منحرف .

وقد بُيّن هذا المعنى بشكل آخر في سورة المجادلة ، وهو الجانب الإيجابي من القضية . يقول في سورة المجادلة : لا يضلّ أبداً أولئك الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر ولا تودّوا المنحرفين عن طريق الله . ثم يقول : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلّين** ﴾[1] إنَّ الذين يقولون بحد آخر غير حدّ الله ويتعدّون حدود الله ويؤمنون بحدود أخرى غير حدود الله في أسفل طبقة وأحقرها وكتبت عليهم الذلّة والهوان . ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلي** ﴾[2] وهذا في حتميات القانون الإلهي الذي لا يقبل الاستثناء ولا التخلّف وهو حتمية انتصار الرسل واتباعهم لأنهم يتكئون على الله والله هو القوي العزيز ﴿ **إنّ الله قوي عزيز** ﴾[3] ثم يقول : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله** ﴾[4] ولأن هؤلاء يحبّون الله تعالى فلا يحبّون المنحرفين عن طريق الله لأنّه ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾[5] وعندما لا يكون للإنسان غير قلب واحد فلا يمكن في قلب الإنسان الصالح غير حب الله ، ولا يمكن أن تميل قلوبهم إلى أولئك القائلين بحدود أخرى غير حدود الله حتى إذا كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ وتحظى أربعة أمور من الثمانية المذكورة في سورة التوبة بأهمية خاصة . وهذه الأمور الأربعة

(١) سورة المجادلة ، الآية : ٢٠ .
(٢) سورة المجادلة ، الآية : ٢١ .
(٣) سورة المجادلة ، الآية : ٢١ .
(٤) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .
(٥) سورة الأحزاب ، الآية : ٤ .

المهمة من الأمور الثمانية قد بيّنت هنا يقول : أحباء الله لا يمكن أن يحبّوا المنحرفين عن طريق الله ﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾[1] وعلامة محبة الله هي عدم محبّة ما هو غريب عنه ، وأثر محبّة الله هو أن الله يثبت الإيمان في قلب مثل هذا الإنسان المحب ﴿ **كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه** ﴾[2] كما ثبتت الذنوب والانحرافات في بعض القلوب ﴿ **بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ ويثبت الإيمان في بعض القلوب أيضاً ﴿ **كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ ويدخلهم الجنان تحت الأشجار المتشابكة الأغصان وتجري الأنهار في أراضيها الخضراء ﴿ **خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[3] لأنّ الرضا لازم الحب ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون** ﴾ إذا كان القلب ملوثاً بحب الغير فليس هناك مكان لحب الله فيه . والقلب النقي هو القلب الذي ليس فيه مجالٌ للحديث حول الأغيار ، وإذا لم يخرج الشيطان من القلب فلن تدخل فيه الملائكة ، وليس في المكان الذي تتحكم فيه الملائكة طريقاً للشيطان لأنّ الشيطان يفرّ من القوم الذين يتلون كتاب الله . ولكن طرد الشيطان ومجيء الملائكة في محلّه يحتاج إلى إحياء ليالٍ طويلة حتى لا يكون في هذا البيت ذكر سوى ذكره . وهذا من آثار المحبة . والحب طريق كلّما طوى منه السائر مسافة ازداد حبّه لله واقترب أكثر من محبوبه . فالحب لا يوافق الجمود ، والحب لا يوافق الركود والخمول والسكوت والقعود . والحب طريق يوصل المسافر المحب إلى محبوبه ، يقول في سورة آل عمران : ﴿ **إن كنتم تحبّون الله**

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢ .

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢ .

(٣) سورة المجادلة، الآية: ٢٢ .

فاتّبعوني ﴾[1] وطريق الحب هذا يقول للمسافر : إذا كنت تريد الوصول إلى الحضرة المقدسة فهذا هو الطريق إلى حي المحبوب فالمحبة سير ﴿ **إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني** ﴾ إذا كنتم تحبون الله فسيروا على خطى نبيّكم واطووا طريق الحب إلى الله . والنبي حبيب الله ، واتّباع حبيب الله يعني طي طريق الحب بأداء التكاليف والنهوض لمحاربة الشيطان في جهاد النفس وكذلك القيام لمقاتلة الكفّار في الجهاد الخارجي . فالحب ليس جلوساً في الزوايا ، بل الحب طريق القلب وأيضاً طريق في الخارج . الحب سعي وجهد والحب استقصاء . حبيب الله في المقدمة والأمة على أثر حبيب الله لتكون محبوبة عند الله يقول : البيت الذي بناه حبيب الله ، المسجد الذي بني بيد النبي ، المسجد الذي بُني بإشراف نبي الله وساهمت أمّته في بناءه ، فيه رجال يتردّدون على هذا المسجد يريدون أن يتطهّروا ﴿ **فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا** ﴾[2] يريدون أن يتطهّروا من لوث الطبيعة ، يريدون أن يغتسلوا من أدران العالم المادي ، يريدون أن يصلوا إلى درجة يكونون فيها أحباء الله ﴿ **إنّ الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين** ﴾[3] في المسجد رجال يحبّون أن يتطهّروا ، وطريق التطهير والتزكية مسدود لمن كان في قلبه حقد أو بغض لأخيه المؤمن ، فمثل هذا الشخص لم يطوِ طريق الحب بعد ، لأنّه لا ينبغي أن يكون في قلب المسلم حقد على مسلم آخر ﴿ **ولا تجعل في قلوبنا غلاّ للذين آمنوا** ﴾[4] وسنبحث في المستقبل إن شاء الله تعالى معنى الحب الخطر ؟ ومعنى الانحراف عن الصراط ؟ وما هي أضرار الحب الكاذب ؟ وأمّا الحب الحقيقي والحب الصادق فهو أن يطوي الإنسان طريق الله ،

---

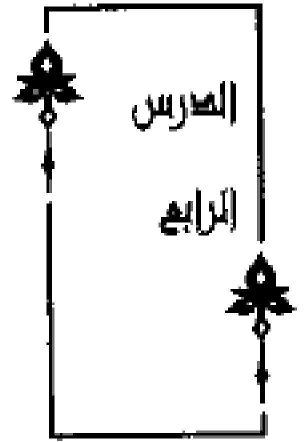
(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٤) سورة الحشر، الآية: ١٠.

يقول: ﴿إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني﴾[1] اتبعوني ، صعد رسول الله إلى الأعلى وقال لأمّته: «تعالوا» اصعدوا أنتم أيضاً إلى الأعلى. فإنّهم إذا كانوا على مستوى واحد فلا يقول لهم تعالوا بل يقول «إليّ»، والذي في قمة الجبل يقول لمن في سفح الجبل تعال. ومن المتعارف في القرى والقصبات الموجودة في سفوح الجبال أن أطفالها ينزلون صباحاً للعب في الوديان فإذا حلَّ الليل فإنَّ أولياءهم ينادونهم: تعالوا. والأستاذ يقول لتلميذه: تعال. والإمام يقول لأمّته: تعالوا، وعلى ضوء تعبير القرآن فإن الرسول قد قال لأمّته: تعالوا لا تبقوا في الأسفل، والنزول إلى الأسفل والبقاء فيه سهل ﴿فلا اقتحم العقبة﴾[2] وقد صعد النبي ﷺ هذه التلال وهو ينادينا من أعلاها: اصعدوا هذه التلال لماذا لا تأتون إلى هنا؟ ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾[3] وتلك القمة هي قمة التوحيد وذلك المستنقع هو مستنقع الشرك فلا تبقوا في المستنقعات، وتلك القمة هي قمة النبوة فلا تبقوا في مستنقع الإلحاد والإنكار ﴿ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾[4] فلا تعلّق قلوبكم بغير الله ﴿ولا نشرك به شيئاً﴾ وهذه القمم العالية هي قمم الكمال الإنساني ، وقد ذهب حبيب الله إلى أعلى هذه القمّة ودعا أمّته للمجيء خلفه إلى هذه القمة ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ﴾ فالتوحيد العبادي قمّة شامخة يجب على الأمّة أن تطوي المسافة إليها ، وأيضاً ﴿ ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ والتوحيد الربوبي قمة ساحقة في الكمال الإنساني .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) سورة البلد، الآية: ١١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.



المحبة طريق الله وطريقته

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

طرحنا في الجلسة السابقة موضوع الحب على أساس أنّ الكمال الإنساني إنما يكون في ظل عمله الإرادي ، والإرادة نتاج الحب . فإذا لم يكن هناك ميل ومحبة فلا إرادة . وإذا لم تكن إرادة فلن يكون هناك نهوض وإقدام . وكذلك إذا لم يكن هناك كراهية وانزعاج فلن يكون هناك إحجام وترك . وإذا كان التولي والتبري من الأسس الأصيلة للدين فإن المحبة والعداوة هي وجه الولاية والبراءة . فالإنسان يتولّى محبوبه ويتبرّأ من مبغوضه ويتولى الشيء الذي يحبّه ويتبرّأ من الشخص الذي يبغضه . وستبقى مسألة التولي والتبري مبهمة ما لم تحدّد مقاييس المحبة . وقد بيّنا في الدرس السابق إلى حدّ ما ارتباط التولي والتبري بالإرادة والكراهة وأيضاً بالمحبّة والعداوة وكذلك بالشهوة والغضب وبالجذب والدفع . والجذب والدفع أقلّ المراتب وأرفعها التولي والتبري . وبين هذه الدرجة الرفيعة والدرجة الوضيعة توجد درجات ومراحل وسطى أيضاً . وقد تبيّن أيضاً في

الدرس السابق بأن روح الإنسان هي وعاء الحب . والإنسان لا يملك أكثر من روح واحدة وأكثر من قلب واحد ، ولا يزيف الحب الحقيقي بختم مزوّر . وإذا كان الإنسان حبيب الحق فلا يمكن أن يكون محبّاً لغير الحق . وإذا كان محبّاً للباطل فلا يمكن أن يكون حبيباً للحق . وتوجد شواهد في الآيات القرآنية على هذا الموضوع .

وينبغي أن يُذكر هذا البحث في ذيل البحث السابق . فقد روي عن الإمام السادس عليه السلام قوله : « هل الإيمان إلاّ الحب والبغض »[1] لأن الإنسان على أساس الحب يُقدم . فإذا كان عنده محبوب حقيقي فيكون حبّه حقّاً ، وينهض على ضوء مقياس هذا الحق . فعندما طرح إبراهيم الخليل عليه السلام البرهان التوحيدي فمع أن الله تعالى أطلعه على ملكوت السماوات إلاّ أنّه عرض المسألة من طريق الحب فيقول : ﴿ **لا أحبّ الآفلين** ﴾ فالآفل غير لائق بالحب . فإذا تعلّق الإنسان بنفسه أو بشيء من أجزاء العالم الطبيعي فإنّما يتعلّق بشيء آفل وفاني ، وإذا كان محبوبه زائلاً وآفلاً فإنّ ما كان سبباً لحبّه وأنسه سيكون باعثاً لحزنه وألمه . والحب المؤقّت من الممكن أن يتحول إلى حب دائمي إذا كان المحبوب دائمياً وخالداً . وأمّا إذا كان المحبوب زائلاً فإنّ ذلك سيجلب الحزن والألم . فإذا تعلّق القلب بأمر مؤقت وزائل فإنّ هذه العلاقة التي كانت سبباً للفرح والسرور ستتحول إلى شقاء وألم . إذا ذهب المحبوب الذي كان إلى الآن باعثاً للذّة والأنس سيكون مثيراً للهم والغم لأنه عند زوال المحبوب فذلك الذي لم يتعلّق قلبه به فلا يؤثر ذهابه عليه شيئاً ، وأمّا من أحبّه وتعلّق به فسوف يكون محزوناً ، فهذه المحبة عندما يزول المحبوب تكون مؤلمة والتعلق عندما يزول المتعلق يجلب الشقاء . وحب غير الله عدا عن أنه طريق

---

(١) أصول الكافي : باب الحب والبغض في الله .

منحرف فإنه يصير من هذا النوع من المحبة بعينها فيكون عاملاً للشقاء .
ولهذا فإنّ الله سبحانه يدعو المؤمنين إلى إحياء منطق إبراهيم الخليل إذ أنه قد صار محباً لله ﴿ لا أحبّ الآفلين ﴾ وقد قبله الله واتّخذه حبيباً وخليلاً ﴿ واتّخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾[1] وحينئذ قال : ﴿ إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتّبعوه وهذا النبي ﴾[2] يعني يجب إحياء منطقهم ، المنطق الذي ينهض على أساس رؤية الملكوت ، فكل ما يميل إلى الغروب والأفول ليس محبوباً ، لأنّ نفس هذا الحب سيتحول يوماً ما إلى عامل شقاء . وما نُقل عن الأئمة عليهم السلام من قولهم : « اللهم ما عبدتك طمعاً في جنّتك ولا خوفاً من نارك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » يرجع إلى هذا الأصل الأصيل . لأنّ الحب للحي الذي لا يموت سيكون أبدياً ولم يطرح على أساس النفس واللذائذ النفسية . والذي لا ينبغي أن يُنسى هو أن الحب طريقة والحب طريق والحب شرع . فالحب ليس عبارة عن خطور وصف في الذهن يقول على أساسه أنا حبيب الله ، وكما شرحناه بالتفصيل في الدرس السابق في سورة آل عمران حين عرّفت حب الله على أنّه طريق : ﴿ إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ﴾[3] إذا كنتم تحبّون الله فاتّبعوا رسوله . فالنبي صلى الله عليه وآله حبيب الله . وحبيب الله يتقدّم المسيرة التكاملية إلى الله فتحرّكوا على أثره ﴿ فاتّبعوني يحببكم الله ﴾ . إذن كلّ من يدّعي حب الله ولا يتّبع رسوله فاعلم أن دعواه لا دليل عليها ، بل ادّعاءه كاذب . وكل من كان يحب الله فلا يترك رسوله وحيداً في المواقف والأوقات الحسّاسة والخطيرة . ويعرّف الله تعالى المؤمنين بأنّهم لا يتركون رسوله في مواقع الشدة والعسرة وحيداً ﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

يستأذنوه ﴾[1] . وفي سورة النور تعريف للمؤمنين الصادقين : ﴿ **إنما المؤمنون** ﴾ المؤمن الحقيقي والكامل مَن توفّرت فيه الصفات التالية : ﴿ **الذين آمنوا بالله ورسوله** ﴾ فهم من الناحية العقائدية يؤمنون بالله ورسوله ﴿ **وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾[2] ومن الناحية الاجتماعية يجب على الجميع أن يتعاونوا فيما بينهم في حال نهضة الأمة ، ولا يتخلّوا عن قائدهم أبداً ولا يتركوا نبي الله وحيداً ، ولا يذهبوا حتى يستأذنوه أولاً مهما كان عملهم ضرورياً . و ﴿ **إذا كانوا معه على أمر جامع** ﴾ فلا يتخلّفون عنه أبداً في المسائل الاجتماعية والأمور العامة إلاّ بعد أخذ الإذن والرخصة في ذلك . وبما أنّ النبي ﷺ في المقدمة وبعنوان إمام الأمّة في المسائل الدينية وأداء الوظائف الإلهية فيجب على الأمّة التي تعيش دعوة الحب لله في عقلها وقلبها اتّباع نبيّها ﷺ . والمحبّة لا توافق السكون والجمود والركود أبداً . المحبة طريق ، فإذا طوى الإنسان هذا الطريق واقترب من المحبوب ، واقترب من الله ، يكون محبوباً عند الله . يقول : اطووا الطريق إلى الله لتكونوا أحبّاء عنده ﴿ **إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله** ﴾ وقد حدّد القرآن صفات أحبّاء الله كما وقد تقدّم بيان آثار المحبة الإلهية في بحث الدرس السابق أنه من هم المحبون عند الله ؟ وما هو الطريق للوصول إلى هذا المقام ؟

أمّا ما جاء في الجوامع الروائية من أنّ أفضل الناس في محبّة الله فهو من رسخ هذا الحب في قلبه وعشق العبادة كما نقل المرحوم الكليني في الكافي في باب العبادات عن أحد المعصومين عليهم السلام قوله : « أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ

(١) سورة النور، الآية: ٦٢ .

(٢) سورة النور، الآية: ٦٢ .

لها »[1] . العشق هو تلك المحبة الكاملة ، العشق حفظ الموجود وشوق طلب المفقود. فالإنسان يعبد مع الشوق ليصل إلى عشق العبادة يقول: أفضل الناس من عشق العبادة لأن نفس العبادة طريق أيضاً لعشق المعبود، وإلاّ فمن عشق العبادة للعبادة فهو لا يزال في الطريق ولم يصل إلى الهدف « من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني »[2] . فمن عشق العبادة فهو في منتصف الطريق ولم يصل إلى الغاية . ومن وصل إلى الغاية هو مَنْ كان معشوقه هو معبوده لا عبادته على أي حال ، يقول : « أفضل الناس من عشق العبادة » أفضل الناس ليس هو الذي يؤدي عباداته بعنوان أنّها تكاليف ويلتذّ بذلك، وليس هو أيضاً من يحب العبادة وتكون العبادة محبوبة عنده، بل هو من يعشق العبادة وهي أشدّ درجات الحب للعبادة. وإذا كان قد جاء في السيرة المربية للسيد ابن طاووس والذي يُعدّ من مفاخر العالم الإسلامي أنه احتفل في سنة بلوغ ولده فإنّ هذا العمل من طليعة ذلك العشق . وقال ابن طاووس لولده في ذكرى بلوغه سن التكليف: اشكر الله سبحانه الذي أوصلك إلى عمر الشباب وإلى سن التكليف بحيث صرت مشمولاً لخطابه تعالى. ولم يكلمك الله إلى الآن ولم يطلب منك شيئاً، ولكنّك من اليوم صرت موضعاً للخطاب الإلهي ومشمولاً بقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا﴾ وأنت الآن جزء من أولئك الذين توجّه الخطاب الإلهي لهم. ـ واشكر هذه الفضيلة وهي وصولك إلى حدّ البلوغ وحدّ التشرّف لا التكليف ـ أقمنا هذا الاحتفال . وهذه حفلة تشريف لا تكليف ، واشكر الله جلّ جلاله الذي جعلك موضعاً لخطابه لا لأداء الوظائف والتكاليف ، لأنّه ليس هناك كلفة ومشقة، واستماع الخطاب الإلهي وامتثال الأمر الإلهي تشريف لا تكليف،

(١) أصول الكافي: باب العبادة.

(٢) إشارات ابن سينا: الفصل العشرون من النمط التاسع.

وهذا طليعة ذلك الحب . وهذا سرّ ما نقله الكليني عن رسول الله ﷺ من قوله : « أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه . . » . لأنّ الإنسان عندما يصل إلى هذا الحدّ ويفهم أنّ العشق الكاذب يتحول إلى هم وغم عند زوال المعشوق . فإذا زال المعشوق فإنّ الآخرين لا يحسّون بذلك الحزن والشقاء بل المحبّ هو الذي يكتوي بنار الفراق . والمحبة التي كانت بالأمس سبباً للسرور أصبحت اليوم سبباً للآلام .

إذن إذا كان المحبوب زائلاً فسيكون سبباً لجلب الحزن وأفضل الناس من عشق « الحي الذي لا يموت » وعندما يكون المحبوب أبدياً فيجب أن يطوي المحب المسافة إلى أسمى درجات الحب وهو العشق . والعشق يحيي آثار المعشوق في العاشق . وهناك نوع من النبات ينمو إلى جانب الشجرة ويلتف على ساقها يقولون إن هذه الشجرة قد عشقت : يلتف على الشجرة ويغلق عليها طرق التنفس ، ويجعل أوراقها صفراء ، ويجعل خريفها يصل سريعاً فيمنع مْن نضوج ثمارها ، ويجعل منظرها أصفراً ولا يدعها تتنفّس « كل من كان أكثر يقظة يكون وجهه أكثر صفرة » وهذا العاشق أصفر الوجه لأن تلك العشقة قد سدت عليه منافذ التنفّس ، وذلك الشوق والهيجان لا يدعها تواصل نموّها ولا يدعها تأخذ حجمها المناسب . مع أنها من جهة نموّها بنفسها أكثر من هذا الحجم التي هي عليه . يقول : « أفضل الناس من عانق العبادة وباشرها بجسده » وهذه النيّة التي نصطحبها أثناء الصلاة هي نية بالحمل الأولي ولكن باصطلاح أهل المعنى هي غفلة بالحمل الشائع . ومَنْ يقول : أصلّي هذه الركعات الأربعة قربة إلى الله تعالى ، فهذا المعنى الذي يخطر في الذهن هو نيّة بالحمل الأولي ولكنّه غفلة بالحمل الشائع . والنيّة هو ذلك الانبعاث والطيران والميل والتخلّي عن العالم الطبيعي . وهذا هو ما يقوله العظماء وبعض العرفاء : إنّي أنفعل عندما

أسمع بعض المصلّين حينما يقيمون الصلاة وكل حواسهم مع الدنيا والطبيعة والناس يقولون السلام عليكم عندما تنتهي الصلاة ، وسبب انفعالي هو أن من ينفصل عن الجماعة ثم يعود إليها مرة أخرى أي من كان غائباً عن الجماعة ثم يرجع إليها ، يستطيع أن يهدي السلام والتحية ويقول السلام عليكم ، ولكن مَنْ كان مع الجماعة ومع الآخرين ، وفي حضورهم ، والآخرون في حضوره ، مع الناس والناس معه فليس له سلام . يقول هذا العارف العظيم : إذا كانت صلاة المصلّي « معراج المؤمن » أو « لو يعلم المصلّي من يناجي ما انفتل »[1] لقد كان يناجي ربه أو إذا كانت « الصلاة قربان كل تقي »[2] فيطير بنيّته ويطير من الطبيعة والدار والديار . فهو قد كان غائباً عن الطبيعة وعن الجماعة وعن حضور الآخرين ولم يخطروا بذهنه أيضاً وكان هو مع معبوده فقط فعندما تنتهي الصلاة ويرجع من أوج عروجه ويفرغ من مناجاته مع الله ويتصل مع الجماعة ويأتي إلى محضر الآخرين ويأنس بهم حينئذ يقول : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . فهذه الصلاة التي تحريمها التكبير وتحليلها التسليم وهذا المصلّي الذي يحرم بقوله الله أكبر ويتحلّل بقوله السلام عليكم مثل هذا الشخص يستطيع أن يسلّم على الآخرين . ولكن ذلك المصلّي الذي هو مع الناس بكل حواسّه ، ولم يغب عن خاطره ذكر الدنيا وأهلها فهو لم يغب عنها ليرجع إليها ويسلّم .

يقول : « أفضل الناس مَنْ عشق العبادة » كل أنواع العبادات : المالية والبدنية والتلفيقية من البدنية والمالية ، وكل العبادات الداخلية والخارجية

(١) من لا يحضره الفقيه : باب فضل الصلاة.
(٢) من لا يحضره الفقيه : باب فضل الصلاة.

«هل الإيمان إلاّ الحب والبغض»[1] أفضل الناس وأكرم الناس وأعزّ الناس مَنْ عشق العبادة فعانقها وباشرها بجسده. ولكن الذي يمنع الإنسان من الوصول إلى هذا المقام الرفيع هو حب الدنيا. ففي باب حب الدنيا من كتاب الكافي ينقل عن أحد المعصومين٣ قوله: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[2].
ونقل الفريقان عن رسول الله ﷺ قوله: «ما ذئبان ضاريان في غنم قد فارقها رعاؤها أحدهما في أولها والآخر في آخرها بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المسلم»[3] والحب الباطل والارتباط بالدنيا والجاه والمنصب يذهب بالدين من أساسه بحيث لا يصل إليها هجوم ذئبان ضاريان في قطيع بلا رعاة لأن الذئب حين هجومه على القطيع يفترس بقدر وحشيته لا بقدر سدّ جوعته، فهو لا يفترس لأجل بطنه بل لإطفاء نار غضبه، ويهجم بقدر وحشيته لا بقدر حاجته للطعام، فهو لا يشبع أبداً، ولا يمكن إرضاء طبيعته الوحشية أبداً.

وقد كتب عدّة من علماء الشيعة والسنّة رسائل حول الموضوع الذي تحدّث عنه الخبر الشريف السابق المنقول عن الرسول الأكرم ﷺ: وكان أيضاً موضع اهتمام أهل النظر من الخاصة والعامة أخيراً فكتبوا رسائل عديدة في شرح هذا الحديث. وإذا كان قول المعصوم عليه السلام «حب الدنيا رأس كل خطيئة» فمن المسلّم به بأنّ حب الله رأس وأصل وأساس كل صواب ومصلحة وفضيلة. وكلاهما له أصل قرآني. فأمّا حب الله رأس كل فضيلة فقد تقدّم الحديث عن أصلها القرآني في الدروس السابقة. وأمّا «حب الدنيا رأس كل خطيئة» فقد جاء هذا المعنى في سورة النحل: ﴿ ولكن من

---

(١) أصول الكافي: باب الحب والبغض في الله.
(٢) أصول الكافي: باب حب الدنيا.
(٣) أصول الكافي: باب حب الدنيا.

شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ﴾[1] أولئك الذين امتلأت أرواحهم كفراً (في مقابل الآخرين الذين شرحت صدورهم بالفضيلة ، أي المنشرحة أرواحهم والمفتوحة والمملوءة من الفضيلة) فطفحت أرواحهم بالسيئات والآثام ـ فبعض قد شُرح صدره ووسّع لتمتلىء بالمعارف الإلهية والبعض الآخر شُرح صدره ووسّع ليمتلىء من السيّئات والانحرافات ـ وسعة الصدر للمعاصي مقارن للضنك والضيق ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكا ﴾[2] ، ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ فأولئك يستحقون الغضب الإلهي ويسقطون نتيجة طغيانهم ، لأنّ كل من استحق الغضب الإلهي فهو ساقط ﴿ ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾[3] وإذا هوى فليس هناك طريق لصعوده وتكامله ، وعُرِّف حب الدنيا هنا بأنّه سرّ السقوط والغضب الإلهي ﴿ ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴾[4] فهؤلاء قد اتّخذوا الدنيا محبوباً لهم وفضّلوا الحياة الدّنيا على الآخرة ، فكانت الدنيا محبوبهم دون الآخرة ، وما يقرّب الإنسان إلى الله هي الآخرة ، ولها بعد هذا العالم ثواب . وما يُبعّد الإنسان عن الله هو الدنيا ، ولها في ذلك العالم جزاء . يقول : علّة جميع الانتقامات الإلهية هو اتّخاذهم الدنيا محبوباً لهم ، وقبلوا الدنيا بعنوان أنّها محبوب . وحب الدنيا هذا هو الذي صار سبباً للغضب الإلهي واستتبع هذا الغضب الإلهي ﴿ وذلك بأنّهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأنّ الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ فالذين اتّخذوا الكفر عادة لن يصلوا إلى الهدف لأنّهم قد ضيّعوا الحق وطريق الحق . فيسيرون منحرفين تاركين

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦ .
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤ .
(٣) سورة طه، الآية: ٨١.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٧ .

عقولهم جانباً ويمشون في التيه ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون * لا جرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون** ﴾[1] أولئك الغافلين الذين ضرب الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . فما يجب أن يفقهوه بقلوبهم لا يفقهونه . وما كان يجب أن يرونه ببصيرتهم لا يبصرونه وما كان يجب أن يسمعوه بآذان قلوبهم لا يسمعونه . فهؤلاء سيكونون غافلين بشكل قهري ومصير الغفلة أيضاً هو الخسران ﴿ **لا جرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون** ﴾ فالإنسان الغافل هو قد أقفل عقله فلا يدرك به وقد أسلم زمامه للخيال ، والإنسان المحروم من الوحي والعقل سيقع في مصيدة الخيال وأسير الخيال لا يطوي طريق الحب إلى الله . ومن كان كذلك لا يكون محبوباً عند الله أيضاً . يقول تعالى في القرآن الكريم : ﴿ **إنّ الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾[2] وقد جاء هذا المضمون في عدّة مواضع من القرآن . والمختال هو ناسج الخيال ، ومَن كان أسير الخيال يسمّى إنساناً خيالياً ، وهو الإنسان الذي يؤدي أعماله على ضوء ما يوحيه إليه خياله . ومن كان رهين خياله وأسير أوهامه والمعتمد على نسيج خيالاته والإنسان الذي يعتمد على العناوين الاعتبارية التي جعل خياله لها قيمة يسمى مختالاً أي ناسج الخيال وأسير الخيال . فكل ما هو غير الله وما هو من صنع الاعتبار خيال .

ومن كان معتمداً على منسوجات خياله فهو مختال . وعندما يكون مختالاً يكون فخوراً . والفخور هو من افتخر بالباطل . يقول : الإنسان المأسور بخياله المتطاول بالفخر ليس محبوباً عند الله ، لأنّ طريق الحب هو طريق العقل لا طريق الوهم . ومن كان محبوباً عند الله فقد طوى طريق

---

(١) سورة النحل، الآيتين: ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٨ .

الوحي والعقل . ومن كان أسيراً لخياله فلن يكون محبوباً عند الله ﴿ **والله لا يحب كل مختال فخور** ﴾[1] وكل من وصل إلى مقام معيّن وافتخر بذلك فليعلم أنّه لا زال بعيداً عن طريق الحب وبالتالي بعيداً عن الدين أيضاً : « هل الإيمان إلاّ الحب والبغض » ويسعى الدين ليجعل العقل هو المدبر والمدير لشؤون الإنسان ، لا الخيال والوهم . وفي باب الحب نقل المرحوم الكليني قولاً للإمام الخامس عليه السلام يقول فيه : مثل من عشق الدنيا كمثل دودة القز كلما سعت وعملت أكثر فإنها تضيق على نفسها وتخنق نفسها بذلك . تعمل أكثر وتنتج أكثر وتنسج أكثر وتغرق في ذلك الوسط . فهذه دودة القز تجهد وتسعى وتجعل نفسها في حفرة وتملأ ما حولها بالمواد الخام من الحرير والإبريسم وتغرق في وسطها وبعد أن تنتهي من عملها تموت .

يقول : حب الدنيا (والدنيا يعني كل شيء غير الله) يمنع من الوصول إلى الله ونظير عمل دودة القز . وإذ كانت الدنيا عالم تربية ، وبالتربية يتحول ورق التوت إلى حرير فلماذا لا يسلك الإنسان الطريق الصحيح ويصير ملكاً من الملائكة ؟ ولماذا يغرق مثل دودة القز في وسط عمله ؟ لماذا لا يطلق جناحيه ويطير ؟

(**ترجمة شعر**) :

إنك تصير ملاكاً إن بذلت جهداً لذلك كما تصبح بالتدريج ورقة التوت أطلس[2] .

وإذا كان ممكناً في هذا العالم أن يتحول ورق التوت بواسطة التربية إلى حرير فلماذا لا يتحول الإنسان بواسطة التربية إلى ملك ؟ ولماذا يكون

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣ .

(٢) أطلس اسم للبطل الأسطوري عند اليونان الذي يحمل الأرض على رقبته.

الإنسان كدودة القز يغوص في عمله ويبقى فيه . يقول : كل ما عدا الله فهو دنيا ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة : ﴿ **ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة** ﴾[1] والإنسان الخيالي كلّما عمل أكثر وفق ما يوحيه إليه خياله وتلذّذ بتخيلاته وافتخر بها فإنّه يكون كدودة القز على حد تعبير الإمام الخامس عليه السلام ، يغوص في وسط عمله الذي سيكون محلاً لقبره « كدودة القز ينسج دائماً » فهذا الكدّ والسعي مثل دود القز الذي يسعى دائماً لحفر قبره . وإذا كان قد جاء : « القبر إمّا روضة من رياض الجنة » والتي هي محل الطيران « أو حفرة من حفر النيران »[2] فهي ليست من دون ارتباط بهذه المسألة .

والإنسان الخيالي قلبه غافل لأنّ حب الله يجب أن يكون في القلب وهو يفقده . وقد أمر الله تعالى رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن يقطع علاقته مع كل من كان قلبه غافلاً .يقول الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في سورة الكهف : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾[3] يعني اصبر نفسك مع هؤلاء الأفراد المستضعفين الحفاة الذين هم في مال ذكر الله صباحاً ومساءً . لا تقبل اقتراح المرفهين والمترفين الذين قالوا لك اطرد هؤلاء الفقراء حتى نأتي إلى مجلسك . بل كن مع هؤلاء الحفاة ولا تقبل اقتراح المترفين الذين يقولون : يشق علينا الجلوس مع هؤلاء الفقراء في مجلس واحد . ولا تنظر إلى اقتراح أولئك الذين يريدون الجلوس إليك بصورة خاصة واللقاء الخاص معك

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٧.
(٢) فروع الكافي: ج ٣، ص ٢٤٢.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

﴿ **ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ لا تكن مع الذين أغفل الله قلوبهم عن ذكره ، وسلب منهم نعمة ذكر الله التي هي من أعظم النعم لأنّ أرواحهم ليست لائقة لذلك . وكما تقدّم في بحوث الدروس السابقة فإن من كان سلوكهم مع الله سيّئاً ولا يتّبعون حبيب الله ﷺ وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم فإنّ الله عزّ وجلّ يسلب ذكره تعالى من قلوبهم وينزع ذكر الآخرة ويوم القيامة عنها أيضاً . ولا يعطي الله عزّ وجلّ هذا التوفيق لكل أحد ﴿ **إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾[1] فذكر الآخرة هي نعمة خاصة أخلص الله تعالى بها عباده الخاصّين فصاروا بهذه النعمة من عباد الله المخلصين : ﴿ **سأصرف عن آياتي الذين يتكبّرون في الأرض** ﴾[2] يقول : سأصرف ذكري عن أولئك الذين يريدون العلو والكبرياء في الأرض : ﴿ **ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم** ﴾[3] وعندما انصرف أولئك عن تعاليم الدين عمداً صرف الله تعالى قلوبهم عن إدراك الدين ، ولا يعطيهم الله تعالى ثانية نعمة الفهم . وهذه الأقسام الاثنان أو الثلاثة التي طرحت ذُكرت في القرآن في مواضع عديدة بصورة كاملة . يقول : مَنْ كان أسير خياله وافتخر بما يوحيه إليه خياله ، وافتخر بكل مرتبة يصل إليها مع أنها مجرد نسج خيالي فقلبه غافل ، ومن كان غافل القلب فلن يحظى بحب رسول الله ﷺ ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾[4] . وعندما يفضّل إنسان السجن ليحافظ على عفّته يصير يوسف الصدّيق ﴿ **ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه** ﴾[5]

---

(١) سورة ص، الآية: ٤٦ .
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦ .
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٧ .
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨ .
(٥) سورة يوسف، الآية: ٣٣ .

والذهاب إلى السجن أولى من الاستجابة لنداء الدعارة . والدين حب في سبيل الله .

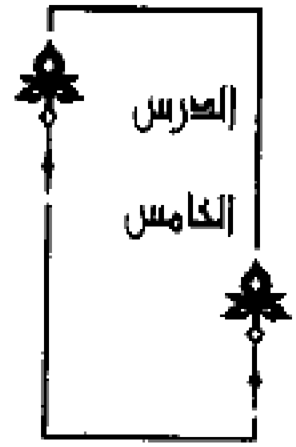
والإنسان أحياناً يترك أبيه أو ولده أو أخيه أو عشيرته في سبيل رضا الله تعالى كما بُيّن ذلك في سورة المجادلة ، فهو غير مستعد أبداً أن يقبل غير الله ، وغير مستعد أبداً أن يعطي مكاناً في قلبه لغير الله ، لأنّه يعلم أنّه متى تسلل غير الله إلى قلبه فإنّه سيلقى مشقة وضنكاً ، لأنّ ذلك المحبوب سيرحل من قلبه وسيحزن في يوم رحيله لأن الحب بلا محبوب ألم وشقاء . وعندما يكون حب الدنيا رأس كل خطيئة فإنّ حب الله أصل كل فضيلة ﴿ **إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾[1] يتّخذكم الله أحبّاء له . ومن يطوي طريق إبراهيم الخليل يصير خليل الله . ومن يطوي طريق الرسول الأكرم ﷺ يصبح حبيب الله . وكل ما في الأمر أنّ هؤلاء أئمّة وقدوة وأسوة والأمّة تسير على خطاهم وكل من يطوي مقداراً معيّناً من الطريق فهو يتمتع من الحب بقدر ذلك لأنّه « هل الإيمان إلاّ الحب والبغض » ويقولون هؤلاء يتمتعون بقلب سليم لأنّه لا شيء في قلوبهم سوى ختم الله تعالى . وقد جاء في بعض الروايات أيضاً أنه سُئِل أحد المعصومين عليهم السلام : إذا كان أهل الجنّة لا يشعرون بالغم والحزن فكيف لا يحس الإنسان بالغم وقد ألقي ولده الكافر مثلاً في الجحيم ؟ كيف لا يحزن الإنسان في الجنّة على ولده أو أخيه أو صديقه وهم يعذّبون في النيران وهو يتنعّم في الجنان ؟ مع أنّ أهل الجنّة يقولون ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن** ﴾[2] فقد ذهب الحزن والغم من الجنّة ولن يكون فيها قلق أو همّ : ﴿ **لا لغو فيها ولا تأثيم** ﴾[3]

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الطور، الآية: ٢٣.

وليس فيها إلاّ السلام والسلامة . فأجاب عليه السلام : ليس في قلوب أهل الجنّة غير الله وأولياء الله ، ولا يتذكرون أنّ لهم ولداً يتعذّب في الجحيم ، لا يوجد في قلوبهم غير الله حتى يحزنوا على فقده . وقد جاء في بعض الآيات القرآنية أنّهم يتساءلون بينهم ﴿ **كان لي قرين** ﴾[1] . وهذا لا تنافي له مع ذلك البحث لأنّه ليس في قلوبهم تعلّق بأحد . الحب طريق الله ، ولا حب إلاّ بالحركة . وتتلخّص هذه الحركة في أقسام العقيدة والأخلاق والأعمال . ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدوة لأمّته في هذه الأقسام الثلاثة ليوصلهم إلى درجة يكونون فيها أحبّاء الله ﴿ **إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله** ﴾ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(١) سورة الصافات، الآية: ٥١.



الطرق المختلفة لمعرفة الله من نظر القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمّد وآله الطاهرين .

القرآن من تلك الجهة كتاب نور وهدى لعموم الناس . ودعوة القرآن هي لجميع الأفراد ، وهي قابلة للإدراك والقبول . وقد طرحت محتويات القرآن الكريم بصورة برهان عقلي قطعي وبيّنت أيضاً على شكل أمثلة ليستفيد من هذه الأمثلة عموم الناس لدرك معاني ومرامي القرآن الكريم . وكذلك يستفيد الإنسان الأوحدي من البراهين العقلية القطعية ويستقي من فيوضاتها . والأمثلة القرآنية هي بحكم الدليل بالنسبة لعموم الناس وبحكم المؤيّد للأوحدي من الناس . وبحث الأمثلة القرآنية يرتبط أيضاً بالبراهين العقلية وهي بحكم التمثّل لا التمثيل . أي بيان المرحلة النازلة لذلك البرهان العقلي ، تمثل تلك المعارف العقلية ، المرحلة النازلة لتلك المراتب العالية وأهم المسائل التي أولاها القرآن أهمية عظمى هي التوحيد والمعاد وقد استفاد القرآن الكريم من طرق مختلفة في سبيل هداية الناس إلى المبدأ والمعاد ، وخاصة في التوحيد ، ومع أنّ جميع موجودات عالم

الإمكان هي آيات الله تبارك وتعالى إلاّ أنّه يمكن إثبات المبدأ من طرق عديدة أخرى ، وقد أشير إلى الكثير منها في الدروس السابقة . ويبيّن القرآن أحياناً الطرق المختلفة لمعرفة الله بعضها إلى جانب البعض الآخر ، وقد ذكر القرآن الكريم أدلة كثيرة لإثبات المعاد وضرورة الثواب والعقاب . ويبيّن القرآن تلك الأدلة أحياناً أخرى بصورة ملخّصة ومختصرة على شكل دليل جامع . وعلى هذا ففي سورة الأنعام ورد نموذج عن جمع عدة أدلة حول التوحيد بعضها إلى جانب البعض الآخر ، وورد كذلك نموذج عن جمع عدة أدلة للمعاد في سورة صاد وجزء مقدار كذلك في سورة الأنعام ، نطرحها ونبيّنها .

في سورة الأنعام والتي هي في الحقيقة سورة احتجاج ويلقّن الله تبارك وتعالى رسوله الأكرم ﷺ فيها أربعين احتجاجاً تقريباً ، يقول فيها ﴿ **قل** ﴾ أو يأمره بإبلاغ أحكام الله ، وكثير من هذه الأحكام مقترن بذكر الدليل والاحتجاج عليه . وما جاء في سورة الأنعام بعنوان أدلة حول التوحيد ورد في آخر السورة خلاصة لها . يقول الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم** ﴾[1] والصراط المستقيم طريق آخره الأبد ، وطي المسافات في هذا الطريق يوصل إلى السعادة الأبدية بدون أي شك ، وأعمال الله سبحانه على أساس الصراط المستقيم ، وإرشادات وتوجيهات الرسول الأكرم ﷺ على أساس الصراط المستقيم أيضاً ، وقطّاع الطريق من الشياطين قد قعدوا على الصراط المستقيم ، لأنّ الشيطان لا عمل له مع الطرق المنحرفة ، بل هو قاعد على الصراط قد نصب كمينه ليقطع الطريق على سالكيه . وطي الصراط المستقيم شاق لأنّ الشيطان قد صمم على قطع الطريق بكل ما أوتي من قوّة . ولهذا

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.

فإنّ طي الصراط المستقيم صعب وشاق إلى درجة قيل أنّ الإنسان يضع قدمه على طريق أدق من الشعرة وأحدّ من السيف .

وأعمال الله تبارك وتعالى على صراط مستقيم **﴿ إنّ ربي على صراط مستقيم ﴾**[1] والبرامج الإلهية على صراط مستقيم ، بل أن برنامج الحق هو هذا الصراط المستقيم . ورسول الله ﷺ يتحرك أيضاً على صراط مستقيم **﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنّك لمن المرسلين * على صراط مستقيم ﴾**[2] .

إذن فالرسول الأكرم ﷺ على صراط مستقيم ، أفكاره وخُلقه العظيم وأقواله وأعماله وهي بمجموعها تشكّل سنّته وحجّته مفروشة على الصراط . وقد قال الله تعالى لرسوله الأكرم ﷺ : إنك على صراط مستقيم . وقد صمّم الشيطان على قطع الطريق على سالكي هذا الصراط **﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾**[3] وقد قعدت لهم على الصراط وعلى الممرات المؤدية إلى هذا الصراط لكي أحرفهم عن هذا الصراط . فالصراط إذن له أهمية كبرى . والله تبارك وتعالى كامن أيضاً على هذا الصراط ليأخذ بيد أولياءه ويمرّ بهم من هذا الصراط . وقعد الشيطان أيضاً في الكمين ليأخذ بأرجل المارّين على الصراط ليحرفها عن الصراط وينثر الأشواك في الطريق . والله تبارك وتعالى يقول لنبيّه ﷺ : «قل ربي اهدني إلى صراطك المستقيم »، وهذا الصراط هو ذلك الدين الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهو الدين الذي كان عليه إبراهيم الخليل : **﴿ ديناً قيّماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي**

---

(١) سورة هود، الآية : ٥٦ .
(٢) سورة يس، الآيات: ١ ـ ٤ .
(٣) سورة الأعراف، الآية : ١٦ .

لله رب العالمين ﴾[1] .

وعلامة الكون على الصراط المستقيم هو أن يكون الإنسان بكل أبعاده الوجودية لله تبارك وتعالى . فصلاته وحجّه وكل عباداته الأخرى وحياته ومماته لله ربّ العالمين ، أي لا يعمل عملاً بلا أمر من الله تعالى . ولا يضع قدماً أو يقدّم خطوة إلاّ ولله فيها رضا . وما دام حيّاً فهو في مسيرة الدين الإلهي . وعندما يموت فإنّ موته أيضاً في سبيل الله ولله فيه رضا . وأولئك الذين يعيشون لغير الله فإنّ مماتهم أيضاً يكون لغير الله « كما تعيشون تموتون وكما تموتون تُبعثون » فإذا لم تكن حياته لله تعالى فإنّ موته لن يكون لله تعالى . ومَنْ كان موته لغير الله فإنّ حشره وقيامته بعد الموت لن تحظى برحمة الله ، وقد ورد في عدة مواضع من القرآن الكريم ذكر الملائكة التي تضرب وجوه وأدبار الفاسقين ، وهذا له علاقة بالضغط حال الموت . وقد فسّر بعض العرفاء الإسلاميين العظام المتأخرين هذه الآية الشريفة ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾[2] هكذا : إن الملائكة الذين يضربون الفساق على وجوههم غير الملائكة الذين يضربونهم على أدبارهم ، لأن ملائكة هذا العالم حينما يرون هذا الشخص وقد أوشك على الرحيل من هذه الدنيا ولم يقدّم لآخرته من مزرعة الدنيا شيئاً ولم يشتر لها من سوق الدنيا بضاعة فيضربون دبره بقوّة ليخرجوه من هذه الدنيا . وأمّا ملائكة ذلك العالم الآخر حينما يرون هذا الشخص وقد أتى من الدنيا بيد خالية فيضربونه على وجهه ، وهذا هو معنى ما جاء في القرآن الكريم ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ فتؤذى وجوه وأدبار الفاسقين أثناء الموت والانتقال من الدنيا إلى عالم البرزخ . ومَنْ لم تكن حياته لله فإنّ موته لن يكون لله ، ولكن

(١) سورة الأنعام، الآيتين: ١٦١ ـ ١٦٢ .
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٠ .

الرسول الأكرم ﷺ كانت حياته لله ومماته لله وفي سبيل الله ﴿ **لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[1] وقد تطرّقنا في أحد الدروس السابقة إلى أنّ رسول الله هو أوّل المسلمين ، وهذه الأولوية ليست سبقاً زمانياً لأن كلّ نبي بالنسبة إلى أمّته له سبق زماني بلحاظ إسلامه ، وكذلك فإنّ الأنبياء السابقين لهم تقدم زماني بالنسبة إلى الأنبياء اللاحقين بلحاظ اعتقادهم بالإسلام . ولكن لم يطلق تعبير « أول المسلمين » على أحد من الأنبياء السابقين . وقد وردت عبارة « أول المسلمين » في عدّة مواضع من القرآن الكريم وهي مختصّة بالرسول الأكرم ﷺ ، وهي إشارة إلى الأولية الذاتية والأولية في الفضل والرتبة والشرف .

وحينئذ يُقيم ثلاثة أدلّة على التوحيد .

الأول : متعلّق بتحقيق نظام الدنيا .

الثاني : متعلّق بتحقيق نظام المعاد والقيامة .

الثالث : متعلّق بالمجتمع الإنساني والحياة الإنسانية .

وخلاصة هذه البراهين الثلاثة مذكورة في الآيتين الأخيرتين من سورة الأنعام ﴿ **قل أغير الله أبغي ربّاً وهو ربّ كل شيء** ﴾[2] وليس هناك أي موجود غير مخلوق لله تعالى ، وليس هناك أي مخلوق غير محتاج إلى المبدأ الذاتي ، وليس هناك أي موجود ممكن لا يحتاج إلى المبدأ الواجب . إذن فكل موجود في عالم الوجود وكل ما يُسمّى بالموجود الإمكاني في عالم الوجود فهو تحت ربوبية وتدبير الله تعالى ، لأنّه لا يمكن القول بأنّ موجودات العالم لا تحتاج إلى ربّ ، ولا يمكن القول بأنّها تعتمد في وجودها على غير الله لأنّه إذا كان النظام الأعلى حقّ وإذا كان كل موجود

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

يستمد وجوده وتدبيره من المبدأ بالذات ، إذن فكل متحقق في عالم الوجود محتاج إلى ربّ ، وربّه هو الله ، الخالق والغني بالذات . وقد كان هذا الاحتجاج على التوحيد من طريق مشاهدة النظام الكلي .

الثاني : الإستدلال على التوحيد عن طريق ضرورة الجزاء والمعاد ، يقول : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[1] ، ولا يرتكب الجاني أي جُرمٍ إلاّ على نفسه لأنّ الفعل لن ينفصل في أي مكان أو زمان عن فاعله ، والمجرم لا ينفصل عن جريمته . فمن غير الممكن أن تذهب الأعمال سُدىً ، ومن غير الممكن أيضاً أن تنقطع علاقة هذه الأفعال بفاعليها ، وغير ممكن أن يتحمل إنسان بريء ذنوب ووزر المجرمين . ولن يحمل في يوم القيامة أي إنسان حمل غيره ، فكل إنسان يجب عليه أن يحمل وزر نفسه . ومن الممكن أحياناً أن يحمل إنسان وزره ووزر الآخرين الذين أضلّهم ، ولكن أولئك الذين ضلّوا عمداً يجب عليهم حمل أوزارهم أيضاً ، لأنّ الجزاء والمكافأة حق ، ولا يمكن أن يتخلص الإنسان من ربقة عمله لأنّ ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[2] فكل إنسان مطوّق بعمله ﴿ إلاّ أصحاب اليمين ﴾[3] فإنّهم أحرار لأنّهم لم يكونوا مجرمين ليكونوا أسرى جرائمهم ، عاشوا أحراراً وسيبعثون في القيامة بكرم الرجولة . فإذا كان كل إنسان مطوّق بعمله ، ولم يترك العالم أيضاً بلا جزاء ، وعلى هذا فالحساب والثواب والعقاب والمكافأة موجود أيضاً . وإذا كان يوم الجزاء موجوداً فمالك يوم الجزاء موجود أيضاً ، وهو الله . كان هذا استدلالاً على التوحيد من ناحية ضرورة الجزاء وضرورة المعاد ﴿ ثمّ إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة المدّثر، الآية: ٣٨.
(٣) سورة المدثر، الآية: ٣٩.

كنتم فيه تختلفون ﴾[1] ويجب أن يصل مصير البشرية إلى حدّ ترى فيه حلّ اختلافاتها ، وتسدل الستار على خلافاتها ، وستنتهي هذه التفرقات في الأفكار والعقائد والأقوال والاجتهادات ، ويتنحى جانباً حرب الاثنين وسبعون أمة ، وستتضح هذه الخرافات والأساطير وتتضح الحقائق أيضاً . وإذا لم تندرس الخرافات ويتجلّى الحق فلن تنتهي حرب الاثنين وسبعين أمّة . ولا بدّ أن يأتي يوم من وجهة نظر الوجود الكوني تنتهي فيه هذه الاختلافات ، وهو يوم القيامة . وحتى في عصر ظهور صاحب الزمان (عجّل الله فرجه الشريف) سوف لن تنتهي جميع الاختلافات مع أنه لن يكون هناك إلاّ حكومة واحدة وهي حكومة المهدي عليه السلام وقد كتب على وجه رايته « البيعة لله » ومع أنّه ستملأ الأرض عدلاً وقسطاً وسوف لن يكون هناك حاكم غير صاحب الزمان عليه السلام ، ولكن الطوائف الأخرى ستبقى على عقائدها بالرغم من أنّها ستكون خاضعة في المسائل العامة للحكومة الإسلامية وتسير في ضوء مقرّرات الحكومة الإسلامية . وبالرغم من وجود الاختلافات الحزبية والفكرية والعقائدية والدينية والمذهبية : ويُستفاد من القرآن الكريم استمرار بعض الطوائف الباطلة إلى يوم القيامة ، فمثلاً حول أهل الكتاب يقول تعالى : ﴿ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾[2] فعبّر القرآن هنا بتعبير إلقاء العداوة بالنسبة لبعضهم ، وعبّر في موضع آخر بتعبير الإغراء بالعداوة بالنسبة إلى بعض آخر فعُلم بذلك أنهم سيبقون إلى يوم القيامة ، وقد عبّر عن أولئك الذين هم أقرب للإسلام « أقرب الناس مودة للإسلام » لأن الاستكبار عندهم أقلّ ، وفقاً لذاك الاستدلال ، عبّر بكلمة « إغراء » ، يقول القرآن :

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤ .

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤ .

﴿ **فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾[1] وكلا هذين القسمين في سورة المائدة . وذلك اليوم الذي تنتهي فيه كل هذه الاختلافات هو يوم ظهور الحقّ ﴿ **يتبيّن لهم أنه الحقّ** ﴾[2] حيث تذهب جانباً كل الاختلافات ، كل الخرافات واختلاف وجهات النظر ويتضح الحق ولا يبقى مرّة أخرى مكان للاختلاف : ﴿ **فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ . كان هذا استدلالاً على التوحيد من ناحية ضرورة الجزاء . وقد بيّن القرآن الكريم هذين المطلبين في سورة فاتحة الكتاب ، الأول هو قوله ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾[3] والآخر هو قوله ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾[4] فيثبت توحيد الله تعالى من طريق ربوبية العالمين ، ويثبت أيضاً من طريق مالكية يوم الدين والجزاء . وهذا يعني إمكان إثبات الله تعالى عن طريق النظرة الفلسفية الدقيقة للعالم ، وإمكان إثبات كونه مالكاً ليوم الدين أيضاً عن طريق ضرورة الجزاء والمكافأة . فهذان دليلان على إثبات التوحيد الربوبي .

الثالث : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم** ﴾[5] يقول : نظّم الله المجتمعات الإنسانية الواحدة تلو الأخرى ، وجعل الأخرى خليفة الأولى واللاحقة خليفة السابقة ، أو جعل البشر خليفته في الأرض ليختبره ، ليرى ماذا يصنع الإنسان في عالم الامتحان ؟ وما من شيء يمرّ في العالم إلاّ للاختبار والامتحان ، أحياناً بالرخاء ، وأحياناً بالشدّة ، وأحياناً بالسرور ، وأحياناً بالحزن . ووفقاً لآيات سورة الفجر فإنّ الإنسان في حال الابتلاء والاختبار

---

(١) سورة المائدة، الآية : ١٤ .
(٢) سورة فصّلت، الآية : ٥٣ .
(٣) سورة الفاتحة، الآية : ٢ .
(٤) سورة الفاتحة، الآية : ٤ .
(٥) سورة الأنعام، الآية : ١٦٥ .

على كل حال . وهذا الاختلاف والتمايز بين البعض والبعض الآخر في الأمور المادية هو لأجل الاستفادة المتبادلة بينهم وليكون كل منهم عوناً للآخر ، لا للتسخير من طرف واحد ولا للاستعمار ولا للاستغلال وأمثال ذلك .

وقد بحثنا ـ من قبل ـ هذه الآيات مع ما جاء من الآيات في سورة الزخرف وقلنا بأنّ اختلاف الدرجات هو لتنظيم المجتمع على أفضل وجه ﴿ **ليتّخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير** ﴾[1] وقد بيّنا هناك بصورة مفصّلة الفرق بين التسخير المتبادل والتسخير من طرف واحد وما طرح في سورة الأنعام بعنوان برهان على التوحيد اجتمعت خلاصتها في آخر هذه السورة بثلاث جهات وثلاثة أدلة :

١ ـ الاستدلال على التوحيد من طريق النظرة الفلسفية للعالم والنظام الكوني .

٢ ـ الاستدلال على التوحيد من طريق ضرورة الجزاء والمكافأة .

٣ ـ الاستدلال على التوحيد من طريق مشاهدة النظام الاجتماعي للإنسانية .

وهذا الاستدلال الثالث بالرغم من أنّه غير منفصل عن النظام الكلّي للكون والعالم ولكن لتميّزه بخصوصيات معيّنة طُرح دليلاً مستقلاً وأما ما طرح بعنوان برهان على المعاد وضرورة القيامة فقد بُيّن من طرق مختلفة بعضها في سورة صاد وبعضها الآخر في سورة الأنعام . وقد عرّف الله نفسه في القرآن الكريم بعنوان الحقّ والحكيم والعادل والرحيم وأرحم الراحمين وأمرنا بأن نصفه كما وصف هو نفسه ، فالله منزّه عمّا يصفه به الغرباء

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

﴿ سبحان ربك رب العزّة عمّا يصفون ﴾[1] وقد وصف عباد الله المخلصين الله بنحو تعلّموه من الله وكما بيّنه .

ومن الأسماء الحسنى لله تبارك وتعالى في القرآن الكريم اسم الحق ، ﴿ ذلك بأنّ الله هو الحق ﴾[2] ، وهذا التعبير يفيد الحصر أي أنّ الحقّ منحصر بالله ، وإذا كان هنالك شيئاً حقاً وثابتاً فهو حتماً من الله ﴿ الحق من ربك ﴾[3] ، وقد تكرّر هذا الموضوع في القرآن مرّات عديدة وهو أنّ منشأ الحق من الله ، فالحق ليس مع الله بل الحق من الله . وكل شيء في العالم ثابت ، ويتمتع بالحقيقة فهو ناشيء من الحق المحض واللامحدود . وإذا كان الله حق بالذات وحق صرف ولا محدود فكل حق بالغير والحق المحدود والحق غير الصرف ناشيء من الله ، وعبّر عن ذلك الأستاذ العلاّمة الطباطبائي رحمة الله عليه قائلاً : هناك فرق بين أن نقول المعصوم عليه السلام مع الحق نقول علي بن أبي طالب مع الحق ، وفي كل مكان يكون حق فعلي موجود عنده ، والحق مع علي ، أو نقول : ﴿ الحق من ربك ﴾ منشأ الحق من الله ، فالحق ليس شيئاً مع الله ، الله حق محض وليس له « مع » ، فليس هناك شيء مع الله ، هو حق محض ولا محدود وليس عنده شيء يكون معه . ولكن الحقوق المحدودة والحقوق الثابتة ناشئة من الحق اللامحدود ، ولذا ورد في القرآن في مواضع عدّة قوله ﴿ الحقّ من ربّك فلا تكونن من الممترين ﴾[4] وإذا كان الله حق محض ، وعلى ضوء ما ورد في القرآن فإن الحق إسم من أسماء الله الحسنى ، فالحقّ لا يعمل عملاً باطلاً . ومن الأسماء الحسنى الأخرى لله تبارك وتعالى الحكيم والعادل ، والحكيم

---

(١) سورة الصافات، الآية : ١٨٠ .

(٢) سورة الحج، الآية : ٦٢ .

(٣) سورة البقرة، الآية : ١٤٧ .

(٤) سورة البقرة، الآية : ١٤٧ .

العادل لا يفعل فعلاً جزافاً وظالماً .

والموضوع الثالث هو أنّ الله رؤوف رحيم وأرحم الراحمين ولا يرتكب عملاً مخالفاً للرحمة المطلقة . وقد استدل في سورة صاد على ضرورة المعاد والقيامة بأدلّة عديدة ، أحدها هو أنه بما أن الله حق فلا يصدر منه عمل باطل . وإذا لم يكن لنظام الخلق يوم ثواب وعقاب ولا يصل العالم بحركته إلى هدف ، فحركته مستمرة ودائمة ولكن لا إلى جهة وهدف معيّن ولا إلى هدوء وسكون وليس لهذا العالم نهاية للاختلافات وفيصل للنزاع بين الحق والباطل فإنه يصير عالماً باطلاً ، يقول : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً** ﴾[1] بل جعلنا لها هدفاً ، وليس هو هدفاً فاعلياً قطعاً بل هو هدف فعلي ، الفاعل هو الله لأنّه الغني المحض ، الغني بالذات لا هدف له بل هو عين الهدف ، وغرض الفاعل هنا ليس له طريق لكي يحتاج إلى أن يعمل الله عملاً يصل به إلى ذلك الهدف ، وفعل الله ليس للوصول للغاية ليرجع الغرض إلى الفاعل ، ولا يمكن القول أن الله قد عمل كذا ليصل إلى الغرض الفلاني ، ففعل الله لا يتلاءم مع اللام الغائية ، ولا يمكن القول بأنّ الله تعالى عمل عملاً ليحصل على الفائدة ، ولا يمكن القول بأنّ الله فعل هذا ليكون جواداً . فأنا لم أخلق الخلق لأحصل على فائدة ولم أخلق الخلق لأكون جواداً ، لا أنه لم أخلق الخلق لأنال فائدة ما بل لأجود على العباد . فعل الله ليس للحصول على المنفعة مثل الآخرين ، ولا ليكون جواداً مثل الآخرين أيضاً ، لأنّ ذلك المبدأ الذي يؤدي عملاً للوصول إلى الهدف فإذا لم يؤدِ ذلك العمل لا يصل إلى ذلك الهدف ، وإذا لم يؤدِ ذلك العمل يكون ناقصاً ، وبذلك العمل يدفع النقص عن ذاته ، فذلك المبدأ ليس غني محضاً فالله لم يخلق العالم ليكون جواداً وإذا لم يكن جواداً يكون

---

(١) سورة ص، الآية : ٢٧ .

ناقصاً ، لا فقد مرَّ في بعض الدروس السابقة بأنّ الله هو ذلك المبدأ المختار وعين الحياة والقدرة والعلم المحض والذي يصدر منه الجود ، ولا أنه يعمل ليكون جواداً ، بشكل إذا لم يفعل ذلك الفعل لا يكون جواداً . وعندما سُئِل الإمام السابع عليه السلام من هو الجواد ؟ فقال عليه السلام : إنّ لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق فإنّ الجواد الذي يؤدّي ما افترض الله عليه من الحقوق الواجبة ولا يتلوث بالمحرّمات المالية ، ويقوم بأداء الحقوق الإلهية كالزكاة الواجبة وأمثال ذلك ، فمثل هذا الشخص يكون جواداً ، وأمّا بالنسبة إلى الله فهو الجواد إن أعطى وهو الجوّاد إن منع ، فإذا لم يعطِ فمن المصلحة أن لا يعطي ، وإن أعطى فمن المصلحة أن يعطي ، فهو في كلا الحالين جوّاد . وينبغي الإلتفات إلى أنّ الجود صفة فعله وتحت قدرته ، وتلك القدرة عين ذاته . وعلى هذا ففعل الله لا يتلاءم مع اللام وحتى وإلى الغائية لأنّه الهدف النهائي والكمال المحض ﴿ **هو الأول والآخر** ﴾ فإذا كان هو كمال محض فلا يحتاج حينئذٍ إلى فعل ليصل إلى هدفه وإلاّ فسيكون ناقصاً . إذن فعل الله ليس له هدف فاعلي مع ما له من الهدف الفعلي ، وهذا ليس بذلك المعنى الساذج بأن فعل الله غير معلّل بالأغراض ، لا الغرض الفعلي ولا الغرض الفاعلي . ففرق كبير بين منطق من يثبت لله إرادة جزافية وبين منطق من يقول بأنّ فعل الله ليس له غرض فاعلي مع أنّ فعل الله مشحون بالأغراض الفعلية ومملوء بالأغراض الفعلية . يقول إنّ الله لم يخلق هذا العالم عبثاً ، أي أن للخلق والمخلوق هدف وهو في حركته باتجاه ذلك الهدف، لا أن للخالق هدف يريد الوصول إليه إذن فهذا العالم ليس بلا هدف ، وحركة العالم ليست بلا هدف . وهو في أثر تلك الجهة حتى إذا وصلها ونالها سكن وهدأ .

وهذا هو نفس التعبير الدقيق للقرآن الكريم والذي مرّ نقله في بعض

الدروس السابقة حول القيامة وهو هكذا ﴿ **أيّان مرساها** ﴾[1] يتساءلون متى ترسو سفينة العالم المتحركة ؟ وبناءً على هذا فهذا العالم يجب أن يصل إلى هدفه ويجب أن ترسو سفينته المتحركة في مكان ما ، وحينئذ يقول عن منكري المعاد : ﴿ **ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾[2] وهذا هو ظن الكفّار في أنّ الإنسان يفنىٰ بعد الموت ، وليس هناك من خيرٍ بعد الموت . وهذا الكلام لا يستند إلى دليل عقلي ولا إلى دليل نقلي ، لا يرتبط بوحي سماوي ولا ببرهان فلسفي أو عقلي . وكل من يقول العالم هو هذا وليس بعده شيء ﴿ **إن هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** ﴾[3] ولا قيامة بعد الموت فهو كافر يتحدّث بما يمليه عليه الظن ومن غير أن يستند إلى برهان أو وحي . وبناءً على هذا فأدلّة المعاد هي :

الأول : أن الله حق فلا يصدر منه فعل باطل ، فإذن العالم له معاد .

الثاني : أنّ الله حكيم وعادل وقد فرَّق بين المتقي والمجرم ، فهما فرقتان ، ولا فرق بينهما في الدنيا فهما فيها معاً . فإذن لا بد من وجود عالم ووجود يوم يقال فيه ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾[4] ، ويقول : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار** ﴾[5] فإذا لم نفرّق بين المتقين والفجّار فهو خلاف العدل والحكمة والله عادل وحكيم ولا يفعل هكذا أبداً لأنّ الله حكيم وعادل . إذن فقد فرّق بين المتقي والمجرم وذلك الفرق ليس في الدنيا لأنّنا نراهما في الدنيا متساويان ، إذن لا بد من يوم يُقال فيه ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٢ .
(٢) سورة ص، الآية: ٢٧ .
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣٧ .
(٤) سورة يس، الآية: ٥٩ .
(٥) سورة ص، الآية: ٢٨ .

وهذا هو الدليل الثاني على المعاد والحد الأوسط فيه الحكمة والعدل كما أن الدليل الأول على المعاد حدّه الأوسط كون الله حقّ .

وأما الدليل الثالث على المعاد فهو من طريق الرحمة المطلقة ، يقول في سورة الأنعام : ﴿ **قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة** ﴾[1] ولأن الله رحيم . وهذا قد صدر وأثبت من الله يقيناً ، ولازم الرحمة هو أن يوصل كل موجود إلى كماله ، ويعطيه صورته الكمالية التي هي عين الرحمة ، والكمال في هذا هو أن يصلون إلى لقاء الله وإلى جزائهم ، وينالون هدفهم النهائي في جميع أعمالهم وقد طرح مسألة القيامة وقال : ﴿ **كتب على نفسه الرحمة** ﴾ حيث يوصل الجميع إلى الكمال النهائي : ﴿ **ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾[2] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢ .

الدرس

السادس

الحياة والموت إحدى أدلّة التوحيد

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

أحد أدلّة التوحيد هو جريان الموت والحياة على جميع مخلوقات العالم والخاضعة لربوبية الله . فالموت والحياة حق وثابت وبإشراف ربّ العالمين ، غير قابل للزوال ، ولم يصنع نفسه ، وغير معتمد على غير الله ، ولا يمكن رفع الموت والحياة عن العالم ، ولا يمكن القول بأنّ الموت والحياة قد وجدا بأنفسهما ولا يحتاجان إلى فاعل ، وليس لهما مبدأ فاعلي ، ولا يمكن نسبة هذين الأمرين لغير الله لأنّ النظام الذي ليس فيه حياة نظام ناقص ، وإذا لم تكن هناك حياة فلا مجال لطرح الفكر والاستدلال والاعتقاد وغيرها من أمثال هذه المسائل . وإذا لم يكن هناك موت وكانت الحياة المادية خالدة فلازمه أن يكون الموجود المادي في حركة دائمة في الوقت الذي لا تنسجم فيه الحركة مع الأبدية ، فالحركة لها جهة تتحرك إليها ، ولها هدف وعند وصولها إلى ذلك الهدف تصير ساكنة . والحياة الطبيعية والمادية تسكن بالموت ، فالموت وصول للهدف وتحرر من الطبيعة ووصول للعالم الآخر . إذن لا يمكن الوقوف أمام الحياة ولا يمكن

الوقوف أمام الموت . ومن جهة أخرى فإنهما لم يوجدا أنفسهما لأن نظام الخلق ونظام الوجود نظام العلة والمعلول ولا يمكن أن يوجد شيء من باب الاتفاق والصدفة ، ولا يفنى من باب الاتفاق والصدفة أيضاً . فلا إتفاق في العالم ولا طريق للصدفة في عالم الوجود ، فكل ظاهرة تحتاج إلى علّة فاعلية ، وكل حادثة تحتاج إلى علّة فاعلية . ولا يمكن أن يتنحّىٰ نظام العلّة والمعلول عن عالم الخلق ، لأنّه إذا نقض نظام العلية فيسقط طريق الفكر والاستدلال أيضاً . إذ أن العالم المفكر إنما يرتب المقدمات وينتظر الحصول على نتيجة خاصة من المقدمات الخاصة في ظل نظام العلية فهذه المقدمات هي العلّة في الوصول إلى تلك النتيجة ، وتلك النتيجة معلولة لتلك المقدمات ، فالعلة القريبة لتلك النتيجة هي هذه المقدمات .

إذن إذا لم تكن هناك علاقة علية في العالم فسيكون طريق الاستدلال مغلقاً أيضاً . وذلك المنكر للنظام العلّي كل همّه هو إنكار العلة الفاعلية ، وإلاّ فهو يقبل العلة القابلة والمادة لأنّ إنكارها لا فائدة فيه ولا قبولها يحلّ المشكلة ، ولا الفيلسوف الإلهي يقتنع من أحد بقبوله فقط للعلّة المادية والعلّة القابلة . وجميع البحث المهم محوره العلة الفاعلية حتى إذا كان نظام العلّية يتحقّق ويوجد بدون العلة القابلة (والعلة القابلة يعني المادة) ولكن لا يمكن أن يتحقق نظام العلية بدون العلة الفاعلية ، لأنّه من الممكن أن يصدر فعل من المبدأ وتكون له صورة فقط ولا توجد له علّة مادية كما هو الحال في المجرّدات .

ففي قسم المجرّدات نظام العلية موجود فهي معلولة للواجب تعالى ، فالباري تعالى هو علّتها الفاعلية ولكن ليس لها مادة ، وقطعاً لا يكون لها حينئذ علة مادية ، وهذه الفعلية هي فيض الحق وصادرة من الحق ، إذن يمكن قبول تحقّق نظام العلية من دون العلة القابلة لكن لا يمكن قبوله من

دون العلة الفاعلية .

وبناءً على هذا فإن ظاهرة الموت والحياة تحتاج إلى مبدأ فاعلي . وأحد البراهين التي أقامها الأنبياء على التوحيد الربوبي لله هو أنّ الله مبدأ الموت والحياة ، وتلك العلة الفاعلية التي بيدها الإماتة والإحياء هو الله ، فالله هو الذي يستطيع أن يحيي ويميت . وقد قام إبراهيم الخليل عليه السلام في مقابل نمرود عصره الذي كان يدّعي بأنّه رب هؤلاء الناس ويقول لإبراهيم : يجب عليك الاعتراف بربوبيتي فقال له إبراهيم : ﴿ **ربّي الذي يحيي ويميت** ﴾[1] فالله هو ذلك المبدأ الذي يحيي ويميت لأنّ الإحياء والإماتة ليستا بيد غير الله . إذن فمدّعي الربوبية كذباً ليسوا رباً . فقال نمرود ﴿ **أنا أحي وأميت** ﴾[2] ، أي أنّ حياتك ومماتك بيدي ، ولم يقل : « وأنا أحي وأميت » أي أنا ولم يقل : أنا أيضاً أحي وأميت ، ولم يقل : أنا أيضاً قادر على الإماتة والإحياء ، بل قال : ﴿ **أنا أحي وأميت** ﴾ من غير كلمة ـ واو ـ أي أنّ من بيده الموت والحياة هو أنا ، أي يا إبراهيم إنّك تقول أنّ الربّ هو من بيده الإماتة والإحياء ، ومَن بيده الإماتة والإحياء هو أنا ، إذن على هذا أنا ربّك ويجب عليك الاعتراف بربوبيتي ، وعلى أثر جهل أو تجاهل نمرود في مقام الجدال في الدليل فإنّ إبراهيم الخليل لم ينتقل من دليل إلى دليل آخر ، بل انتقل إلى مصداق أوضح لأنّ الدليل الذي أقامه كان دليلاً تاماً ، ولكنه انتقل من مصداق إلى مصداق أوضح حتى لا يستطيع نمرود الجدال فيه ولا الحاضرون في مجلس الاحتجاج والمناظرة يستطيعون قبول المغالطة ، ولذا قال ﴿ **فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأْتِ بها من**

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

المغرب﴾[1] ربّي هو الله الذي نظم طلوع وغروب الشمس على هذا النحو في نظام الخلق ، فإن كنت ربّاً فافعل العكس ، وهذا بحث مستقل ويحتمل أنه قد أشرنا إلى أطراف هذا البحث في الجلسات السابقة وهدف القرآن الكريم هو أنّ الموت والحياة لم يوجدا أنفسهما ، بل محتاجان إلى علّة فاعلية ، وغير الله لا يمكن أن يكون علّة فاعلية ، لأنّ حياته ليست لا محدودة وبالذات ، فقد أخذ حياته من مبدأ آخر ، إذن الموت والحياة بيد الله ، وليس هناك أي موجود يستطيع الإحياء أو الإماتة بالذات . والقرآن يعرّف الموت بأنّه أمر وجودي وليس في البين أمر عدمي ، والإنسان عندما يذهب من عالم الطبيعة إلى البرزخ فهو ينتقل من عالم إلى عالم آخر ، وهذه الجهة التي يُتحرر فيها من الدنيا يُطلق عليها الموت ، وذلك الوجه الذي يرد فيه إلى عالم البرزخ يُسمّى الولادة . وهذا الانتقال من عالم إلى عالم آخر يُدعى الموت وإلا لما كان الموت أمراً عدمياً، ولذا يعرّف القرآن الموت بأنّه مخلوق الله **﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾**[2] . وقال في القرآن بأن الحياة ليست بيد أحد وليس من أحد يستطيع البقاء حيّاً فكذلك الموت ليس بيد أحد، إذا كان الموت بيد الآخرين فإنهم يستطيعون الوقوف حينئذ بوجه الموت، ولقد كانت البشرية ومنذ قديم الزمان تفكّر بالتخلّص من الموت والوقوف بوجه ظاهرة الموت. يقول القرآن : إنكم لا تستطيعون أن تهبوا الحياة لأحد ولا تقدرون على منع الموت عن الأفراد . فالحياة بيد الله والموت أيضاً بيد الله ويقول في سورة الحج : إذا اجتمعت أوثانكم ومعبوداتكم لخلق ذبابة فإنهم لا يقدرون على ذلك **﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا**

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٢٥٨ .

(٢) سورة الملك، الآية : ٢ .

له ﴾[1] لن يستطيع أحد أبداً أن يخلق ذبابة واحدة ، إذا اجتمع الجميع بعضهم مع البعض الآخر وتعاونوا وفكّروا ليخلقوا ذبابة فإنّهم لن يستطيعوا ذلك . الحياة ليس بيد أحد . وكان رجل في زمان الإمام السادس سلام الله عليه قد وضع مقداراً من الماء والتراب في قنينة ثم أغلقها ، وبعد مدّة ظهرت مجموعة من الكائنات الحيّة الدقيقة فأخذ هذا الرجل يدّعي بين أوساط الناس الساذجة قائلاً : أنا الذي خلطت بين الماء والتراب في هذه القنينة وكنت سبباً في حياة هذه الكائنات الموجودة داخل القنينة ، وكذلك اختلط هذا الماء والتراب في العالم وتكوّنت الحياة ، وهذه الحياة الحادثة داخل القنينة كانت من عمل يدي . فنقل هذا الموضوع إلى حضرة الإمام السادس عليه السلام ، فقال عليه السلام : إذا كان لهذا الرجل دور في حياة هذه الكائنات فقولوا له : أولاً كم عددها ؟ وكم عدد الذكور منها ؟ وكم عدد الإناث ؟ وبيّن وزنها وكيفيتها ؟ وإذا كان قادراً على منحها الحياة وكانت الحياة بيده فالموت ينبغي أن يكون بيده أيضاً فليعدها إلى حالتها الأولى تراباً ؟ وعندما يكون مالكاً للحياة فهو مالك للممات أيضاً فرأى ذلك الرجل أنّ المكان الذي فيه الإمام الصادق سلام الله عليه ليس مكان حياته ونشر أفكاره الخادعة بين العوام . وشبيه هذا المعنى مذكور في مواضع عديدة من نهج البلاغة وهو أنّهم لو اجتمعوا جميعاً وأرادوا منح الحياة لأحد فإنهم لا يستطيعون ذلك ﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه** ﴾[2] فإذا سلب الذباب شيئاً من أوثانهم فليس من مقدور أصنامهم استرجاعها مع أن الذباب حشرة ضعيفة ، وأولئك الذين يريدون استرجاع ما سلبه الذباب ضعفاء أيضاً ﴿ **ضعف الطالب والمطلوب** ﴾[3] ومن كان مشركاً فلا يعرف الله ، وأولئك

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٣.

الذين يلتجئون إلى غير الله لا يعرفون الله **﴿ ما قدروا الله حقّ قدره إنّ الله لقوي عزيز ﴾**[1] وقد ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة بأنّ الله **﴿ يحيي ويُميت ﴾** فالموت والحياة بيد الله فقط . وقال في سورة النجم : **﴿ وأنّه هو أمات وأحيا ﴾**[2] وإذا أراد القرآن أن ينسب هذه الإماتة والإحياء إلى غير الله يقول : بإذن الله ، أي أن ذلك الشيء أو الإمام المعصوم أحد جنود الله أن يتسلّط على هذا الإحياء أو هذا الخلق . يقول القرآن حول عيسى المسيح سلام الله عليه : إنّه خلق طيراً ، ولقد كان هذا الخلق والإحياء بإذن الله ولم يكن من المسيح سلام الله عليه بالذات ، لأنّه لا يوجد فعل في العالم من غير إذن الله . يقول : **﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل إنّي قد جئتكم بآية من ربكم ﴾**[3] فأرسل الله تبارك وتعالى رسولاً لهداية بني إسرائيل مع المعجزة . وهذه المعجزة هي **﴿ أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾**[4] . فنسب مسألة حياة وطيران هذا الطائر بإذن الله ، مع أنّ ما في سورة المائدة قد عرّف جميع هذه الأمور بأنّها بإذن الله وحتى ترتيب الطين بهيئة الطير بإذن الله لأنّ شيئاً لا يمكن أن يكون في العالم بدون إذن الله وقال هناك : **﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ﴾**[5] أي أن صنع طيراً من الطين بهيئة وشكل وتركيب الطير بإذن الله أيضاً ، ونفخ الروح والطيران بإذن الله أيضاً . ولكن في سورة آل عمران فذلك القسم الحسّاس نسبه إلى الله **﴿ أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾** إذن إذا أعطى هو الحياة فبإذن

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٤ .
(٢) سورة النجم، الآية: ٤٤ .
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٩ .
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٩ .
(٥) سورة المائدة، الآية: ١١٠ .

الله يعطيها ، وإذا خلق طيراً فبإذن الله خلقه ، إذ ما من شيء في العالم بغير إذن الله ، ولا معنى للإجازة في النظام التكويني وكل ما هو موجود فهو إذن . وهذا ليس بذلك المعنى الذي يعمل فيه شخص عملاً بدون معرفة وإطّلاع الله وإذنه ثم يأخذ الإجازة من الله بعد ذلك . كلا ، فإذا لم يصدر الإذن ، وإذا لم ينتف المانع ، وإذا لم يصل المقتضي إلى حد النصاب ، وإذا لم يصل نصاب العلية إلى حد الكمال فلا يمكن أن يوجد شيء أبداً . وإذا كان الله قد نسب الخلق إلى غيره في عدّة مواضع من القرآن الكريم مثل ما كان بالنسبة للمسيح ، أو ما قاله في سورة المؤمنون : ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[1] أي أن الآخرين خالقون أيضاً ، ويوجد في العالم خالقون آخرين أيضاً ولكن كل ما في الأمر أنّ الله ﴿ **أحسن الخالقين** ﴾ وأمثال ذلك . وبما أنّ القرآن كتاب نور وهدى وفيه تبيان كل شيء فقد وضّح هذه المسألة الدينية وحلّها وبيّنها .

وقد أرجع القرآن جميع المتشابهات إلى المحكمات . فإذا كان الله قد نسب الخلق في بعض المواضع في القرآن إلى غير الله فقد حلَّ هذه المسألة في الآيات المحكمة الأخرى وهي أن الخلق منحصر في اختبار الله . والآخرون خواتيم الفيض الإلهي ومجرى فيض الخالقية ، لا أنّهم خالقون والله أيضاً خالق إلاّ أنّ الله ﴿ **أحسن الخالقين** ﴾ ، بل أن الخالق الوحيد هو الله ، والآخرون مهما كانوا وكيفما كانوا محل لفيض الخالقية مثل العزّة والرزق وأمثال ذلك ، فقد نسب القرآن الكريم العزّة لنفسه ولأنبيائه وللمؤمنين يقول : ﴿ **ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[2] ولكن شخّص ذلك في سورة فاطر فقال : ﴿ **العزّة لله**

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

جميعاً ﴾[1] . إذن فما عند رسول الله والمؤمنين هو لله ، وهو أعطاهم إيّاها . وهؤلاء الأعزّاء في طول بعضهم ، لا في طول وعرض بعضهم ، لا بمعنى أنها سلسلة طولية وإذا طوينا تلك السلسلة ووصلنا إلى مبدأها وأولها نجد الله ونفهم حينئذ بإنّ محرّك السلسلة هو واحد ، بل نحن عندما نصل إلى هناك فمن الناحية الفكرية نصل إلى علّة الكل لا للعلة الأولى فقط والذي يستلزم علّة ثانية وثالثة في العالم ، ومع حفظ نظام العلية يجب إدراك التوحيد الأفعالي ، لا أنّه عندما نطوي السلسلة ونصل إلى مبدأها فهناك نعرف الله ، بل حينما نصل إلى أول السلسلة نرى بأن الخالق والمحرّك لجميع هذه السلسلة شخص واحد وهو الله رب العالمين . ويقول حول العزّة : إذا كان الآخرون أعزّاء فهذه العزّة هي ملك لله والله أعطاهم هذه العزّة . ويقول حول الرزق : الله خير الرازقين ﴿ **ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين** ﴾[2] أي أنّ الآخرين رازقون أيضاً والله رازق أيضاً ولكن الله خير الرازقين . أو يقول : ﴿ **وارزقوهم** ﴾ أي ارزقوا من تحت أيديكم والأفراد الذين يجب عليكم الإنفاق عليهم وأمثال ذلك . أو يقول حول تربية الأطفال : ﴿ **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن** ﴾[3] فتأمين رزق الزوجة بعهدة الزوج ، والمولود له يجب عليه رزق الأمّهات والزوجات فمع أنّ الله قد نسب رزق الأفراد إلى الآخرين ولكن لا بذلك المعنى الذي يكون فيه الآخرون رازقون في عرض الله غايته أن الله أعلى درجة منهم ، بل أنّ الرازق الوحيد هو الله والآخرون محل لرازقية الله . وعلى أساس التوحيد الأفعالي فالذي يصل إلى الإنسان من الآخرين فهو يصل إليه من الله وذلك الشخص الواهب هو محل لهذا الفيض ، لا أنه هو

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٩ .

(٢) سورة الجمعة، الآية: ١١ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣ .

أيضاً يعطي شيئاً للإنسان ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[1] ولذا يقول : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمـون * إنّ الله هـو الـرزاق ذو القـوّة المتيـن ﴾[2] فهـذا حصـر ، أي أن المُطعِم الوحيد هو الله ، وليس هناك في العالم من رازق ومُطعِم غير الله . فإذن الرازق الوحيد للجميع هو الله فقط . والقادر من ذلك هو الله لأنّ الله ذو القوة المتين . ولذا قال البعض بأنّ المقصود من « شديد القوى » هو الله لأنّ الله هو ذو القوة المتين ، فهو شديد القوى الذي كان معلّماً لرسول الله لا رسـول الـوحـي ، وجبـرائيـل عليه السلام يقـول أحيـانـاً : « لـو دنـوت أنملـة لاحترقت » . وعلى أي حال فما نسب من الرزق لغير الله في القرآن فهو في طول رازقية الله وبعنوان محل فيض الرازقية ، لا بهذا المعنى وهو أنهم رازقون والله رازق أيضاً غايته إنّ الله خير الرازقين . ويجب أن يُعلم ذلك حول الخلق أيضاً ، فإذا كان الله قد عرّف البعض بأنهم خالقون ثم يقول الله أحسن الخالقين ، أو نسب الخلق إلى عيسى المسيح سلام الله عليه ﴿ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ﴾[3] فهذا ليس بذلك المعنى الذي يكون فيه المسيح عليه السلام خالقاً بالذات والله أيضاً خالق غايته إن الله أحسن الخالقين ، أعلى درجة من خالقية المسيح سلام الله عليه . كلا فخالقية المسيح سلام الله عليه هي محل فيض خالقية الله على ضوء التوحيد الأفعالي . ولذا يقول في القرآن : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ ، ﴿ خلقكم وما تعملون ﴾ لأنكم أيضاً محلاً لفيض الخالقية ، فهو ليس أجنبياً وخارجاً عن ذلك وجميع العالم له خالق واحد ولباس خلق واحد ، والجميع وما يعملون مخلوقين له ، وبالرغم من أنهم يقومون بأعمالهم مختارين وبالرغم من أن أفعال الإنسان

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الذاريات، الآيتين: ٥٦ ـ ٥٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

بعيدة عن الجبر وبعيدة عن التفويض أيضاً ، يعملون مع الاختيار ولكن هذا الاختيار يستند إلى القدرة الإلهية وبيد الله .

والإنسان ليس مجبوراً في أفعاله أو مستقلاً ، فخطر التفويض والاستقلال أسوأ من خطر الجبر ، وإنما الإنسان حرّ ليس مستقلاً ولا مجبوراً بل مختار .

(ترجمة شعر) :

لا نحرك شعرة من رؤوسنا إلا بالاختيار ، وهذا الاختيار أيضاً في كف اختياره .

إذا أوعدوك بالنار أو الخلد فلا تغتم فلن يأخذوك خارج ديار الحبيب .

والبيت الثاني خارج عن موضوعنا ، إذن فالقرآن الكريم حينما ينسب عملاً خيرياً وأمراً وجودياً لغير الله فإنّه يقول في موضع آخر : جميع هذه الأمور لله ، وهي ما قاله حول العزّة والرزق والخلق والقدرة . فإذا قال الله : بعضهم أقوياء أو قال : أعطيناهم قوّة ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾[1] وأمثال ذلك ، فإنّه يقول في موضع آخر : ﴿ **أنَّ القوَّة لله جميعاً** ﴾[2] فليس صحيحاً أنَّ الله قد فوّض القوة لشخص أو أشخاص ، وليس صحيحاً أنّ الآخرين يملكون هذه القوّة بصورة مستقلة ، وليس صحيحاً أنَّ الآخرين يأخذون القوة من غير الله ، فكل هذه الأمور الثلاثة مُحالة ، إذن فإذا كان السيد المسيح سلام الله عليه خالقاً فهو محل فيض خالقية الله أو صار مظهراً لـ « المحيي » حتى يستطيع أن يحيي الطيور ويهب الحياة للطيور بالرغم من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٣ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥ .

أنّ الحياة بيد الله فقط وليس بيد أي مخلوق آخر ، إذن مجموع ما بُيّن في سورة آل عمران وفي سورة المائدة ﴿ فتكون طيراً بإذني ﴾ يشخّص أن الخلق مع الإحياء خاصّ بالله ، وإذا فعل الآخرون ذلك فإنّما هم محل الفيض الخالقي والإحيائي الإلهي ، لأنّ جميع هذه الحيوات المحدودة والمحفوفة بموتين يجب أن تستند إلى حياة لا نهائية من الطرفين باسم « هو الحي الذي لا يموت » . وأمّا حول الموت فيقول : الموت ليس بيد أحد ، ولا يعلم أي أحد بأي مكان سيموت وبأي زمان سيموت ، ويقول : ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾[1] ولا تدري نفس ماذا تعمل غداً ، ولا يعلم أحد في أي أرض ومكان يموت ، ولا يعلم أحد ماذا يعمل غداً ، ولذا يقول في سورة الكهف : ﴿ ولا تقولن لشيء إنّي فاعل ذلك غداً * إلاّ أن يشاء الله ﴾[2] لا تقل بشكل قطعي سأفعل كذا غداً إلاّ أن تقول بعدها : إن شاء الله ، ومعنى هذه الكلمة إلاّ أن يشاء الله أو تستثني مشيئة الله أو لا تريد إلاّ ما أراده الله ، وعلى أي حال لا تعلم نفس ماذا تكسب غداً ولا تدري نفس بأي أرض تموت . والأدقّ من هذا لا تعلم نفس على أي أرضية تموت ، فهل ترحل في أرضية الإيمان أو تهلك في أرضية الكفر أو النفاق ، وبأي إخلاص يحزم أمتعة الرحيل إلى الدار الأخرى ؟ أرض الموت وأرضية الموت والتي اسمها سوء العاقبة أو حُسن العاقبة مجهولة ، كما أنّ المستقبل مجهول أيضاً ، وذلك الزمان الذي ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[3] اللحظة التي لا تقبل التغيير والتبديل مجهولة . ولا يموت أحد إلاّ بإذن الله ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجّلاً ﴾[4]

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الكهف، الآيتين: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ٦١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

فلكل إنسان مصير محدّد وكتاب مقيّد ويصل على مشارف الموت مع مضي ذلك الأجل وتلك المدة ، لا لحظة تتقدم ولا لحظة تتأخّر ، وتلك اللحظة هي عند الله ، يقول : ﴿ **هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمّىً عنده ثم أنتم تمترون** ﴾[1] وعلى حدّ تعبير العلامة الطباطبائي رحمة الله عليه إذا كان الشيء عند الله فهو محفوظ من آفة التغيير والتبديل ، لأنّه يقول في سورة النحل : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾[2] وإذا كان قد قال في سورة الأنعام : الأجل المسمّى لكل شخص هو عند الله ، وقال في سورة النحل : كل ما عند الله ثابت وباق ، فتكون النتيجة : إنَّ الأُجل المسمّى لا يقبل التغيير ، وذلك الأجل قد أخذ علة تامة لتنظيم الموت إذا لم يدعُ وإذا لم يتصدّق وإذا لم يصِلْ رحِمَه وإذا لم يعمل تلك الأعمال التي لها دور في طول العمر . وإذا حسبت جميع هذه الأمور محسوبة ، لا المقتضى وحده بل كل هذه المقتضيات ورفع الموانع معاً فإنها تصل إلى نصاب العلية التامة وحينئذٍ فإن مقطع الموت لا يقبل التغيير . إذن فلا الموت ولا الحياة بيد أحد ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا تعلم بأي زمان تحزم أمتعة الرحيل ، ولا يمكن الوقوف بوجه الموت ، ولم يستطع البشر إلى الآن الوقوف بوجه الموت ولا تستطيع من الآن فصاعداً فعل ذلك . فأمّا أنّهم لم يستطيعوا ذلك إلى الآن . فواضح لأنّ القرآن يقول : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾[3] فجميع الأشخاص الذين عاشوا في عالم الطبيعة يجب أن يذوقوا الموت . هم يموتون الموت لا أنه يفنيهم فكل شخص يذوق الموت ويتخطّاه ، لا أنّه يفني ، إذا كان هذا الموت بمنزلة الماء في القدح وكانت عصارة حياته مرّة فيحسّ أثناء الرحيل بالصعوبة ، وأمّا إذا كان لذيذاً نتيجة

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢ .

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٦ .

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥ .

لماضيه الحسن فيحسّ أثناء الموت باللذّة . إذن يقول هكذا : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن متّ فهم الخالدون** ﴾[1] وعلى ضوء هذه الآية فإنّ الخلود في هذه الدنيا مستحيل . وعندما تكون الحياة من أجل الامتحان والاختبار وعلى أساس البراهين العقلية للوصول إلى الهدف فإذن يجب أن يوجد الموت ليصل الإنسان إلى أهدافه . وأمّا ما قاله بأنّ الموت ليس بيد أحد وقال للمنافقين : أنتم القاعدون بعيداً عن الساحة وتتآمرون وتقولون : إذا لم يذهب هؤلاء المقاتلون إلى ساحات القتال لا يقتلون ، فإذا كنتم قادرون فادفعوا الموت عن أنفسكم . ولم يعلم المنافقون أنّ الموت والحياة بيد الله لأن قلوبهم لا تعتقد بالله ، لأن الاعتقاد لا يتلاءم مع النفاق . وعندما ينقل القرآن الكريم أخبار القتال والحرب في صدر الإسلام يقول : إنّ هذه لها جانب امتحاني واختباري : ﴿ **وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا** ﴾[2] فالنبي يقول لأمّته : تعالوا إلى أعلى ، والإمام يقول لأمّته أيضاً : تعالوا إلى الأعلى ، والمجيء إلى الأعلى يعني العمل بالأوامر والقوانين الإلهية ﴿ **تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا** ﴾[3] إمّا قتالاً إبتدائياً أو دفاعياً ، إمّا ابتداءً لنشر الدين أو بعنوان حماية الوطن الإسلامي انهضوا للقتال والحرب وادفعوا المحتلين . فيقول المنافقون : نحن لا نرى بأنّ هذه الحرب لائقة ، وليس هذا هو القتال الذي يجلب معه السعادة ، ولو كانت الحرب صالحة ولائقة فلا نتردّد بالاشتراك فيها . ﴿ **قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم** ﴾[4] . ولكن القرآن يقول : بالرغم من أنّ المنافق كافر باطناً ولكن في الأحوال الاعتيادية ليس جزءاً من الكفار وليس جزءاً من المؤمنين ﴿ **مذبذبين بين ذلك**

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧ .

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧ .

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧ .

لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾[١] ، ولكن هم في يوم الامتحان والاختبار أقرب إلى الكفار ﴿ هُم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان ﴾[٢] لأنهم كافرون قلباً ، وزمامهم وقيادهم بيد قلوبهم ، وقلوبهم أميل إلى الكفر ، ولذلك فهم في أيام الخطر سيكونون أقرب للكفر منهم للإيمان ، وأيضاً ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ﴾[٣] ، وحينئذ يقول هؤلاء للمنافقين : قد قلنا لهؤلاء المقاتلين لا تذهبوا للقتال فإذا لم يذهبوا لم يُقتلوا ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾[٤] ولكنّهم لم يسمعوا كلامنا فذهبوا إلى الحرب وقُتلوا يقول القرآن : ﴿ فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾[٥] فإذا كنتم تستطيعون فاطردوا عن أنفسكم الموت ، ولكن الموت لا يترككم ولو كنتم في بروج مشيّدة بل يدرككم ، وإن فررتم يلاقيكم .

إذن فالموت والحياة بيد الله وهو مسبّب الحياة والموت ، وليس ذلك في مقدوركم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة النساء، الآية : ١٤٣ .
(٢) سورة آل عمران، الآية : ١٦٧ .
(٣) سورة آل عمران، الآية : ١٦٧ .
(٤) سورة آل عمران، الآية : ١٦٨ .
(٥) سورة آل عمران، الآية : ١٦٨ .

الدرس السابع

القرآن الكريم أهم أسباب التولي والتبري

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

قد طُرحت سابقاً بعض المسائل حول التولي والتبري في نظر القرآن الكريم . وقد طُرح أيضاً كيف يُعدّ التولي والتبري من أعمدة الدين الأساسية . ولإكمال ذلك البحث وتهيئة الأرضية للأبحاث اللاحقة نقول : إنّ أهم الأسباب في التولي والتبري وله دور في ذلك ويبعث على أنّ الله هو ولي الإنسان والإنسان تحت ولاية الله ونتيجته أنّ الإنسان يتولى ولاية الله وولاية أولياء الله ، إنّ أهم تلك الأسباب هو القرآن الكريم ، فأقوى الروابط والعلائق التي تربط العبد بالله ويوصل فيض الله إلى عباده هو القرآن الكريم . والإنس بهذا الكتاب وقراءة آيات هذا الكتاب وتدبّر محتوى هذا الكتاب والإيمان بما جاء به هذا الكتاب والعمل بأوامر هذا الكتاب من أهم طرق ولاية الله .

والدليل على هذا البحث وهذا الموضوع هو قول الله تبارك وتعالى في

سورة الأعراف : ﴿ إنّ وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين ﴾[1] .

والمطلب الأول في هذه الآية الكريمة هو قوله : ﴿ إنّ وليي ﴾ ذلك الذي أنا تحت ولايته وأخذ على عاتقه إدارة أعمالي ، وتربيتي ونموّي تحت ولايته ، ذلك المبدأ هو الله ﴿ إنّ وليي الله ﴾ وأفضل ما يرتبط بهذه المسألة هو إنزال القرآن فيقول : ﴿ الذي نزّل الكتاب ﴾ وليي هو الله الذي نزّل القرآن ، أي تنزّل وبيّنه بشكل يستطيع البشر قراءته وفهمه والإيمان والعمل به .

﴿ وهو يتولّى الصالحين ﴾ والمطلب الثاني والثالث هو : أنّ الله الذي نزّل القرآن والله هو الذي يتولى الصالحين سيكون ولي رسول الله لأنّ القرآن عرّف رسول الله بأنّه أسوة والاقتداء به اقتداء بالأحسن ، والأمّة مكلّفة بالاقتداء به ، وهو الذي جعله أسوة ومقتدى ، وعرّف القرآن رسول الله بأنّه تحت ولاية الله قد حدد الطريق الذي يبعث على كون الله وليّاً لرسوله فكل من يطوي ذلك الطريق فالله يجعله تحت ولايته . فيُفهم مع الإلتفات إلى هذه الأصول أنّ أفضل طريق لنيل ولاية الله هو أن يكون الإنسان صالحاً ، وما دام الإنسان غير صالح فهو خارج عن ولاية الله ولا يقبل الله تولّيه أيضاً وطريق صلاحه أيضاً هو الإنس العميق بالقرآن : ونتيجة هذه الأمور الثلاثة المبيّنة في تلك الآية هو نفس ما عُرض ﴿ إنّ وليي الله ﴾ وذلك الإله ﴿ نزّل الكتاب ﴾ وذلك الإله ﴿ يتولى الصالحين ﴾ ويأخذ على عاتقه تدبير أمورهم والقيمومة عليها . فإذن ما دام الإنسان غير صالح فهو لا يتمتع بولاية الله ، وطريق صلاحه أيضاً هو الأنس العميق بالقرآن لأنّ الله الذي نزّل القرآن ولي رسول الله . فتعليق الحكم بالوصف مشعر بعلية ذلك الوصف . أي أنّ من

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦.

يعمل بالقرآن يكون صالحاً ، وإذا أراد الله أن يكون وليّاً لأحد فعن طريق القرآن يُدبّر ولايته . فإذن مَنْ لم يكن على ارتباط مع القرآن سوف لن يكون صالحاً ولن ينتفع من ولاية الله ، وكذلك إذا أراد الله أن يربّي أحداً ويجعله تحت ولايته فطريق القرآن والمعارف القرآنية يوصله إلى هذا الحد ﴿ **إنّ وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين** ﴾ . وأمّا حول القرآن الكريم فقد أمرنا هكذا : ﴿ **فاقرأوا ما تيسّر من القرآن** ﴾[1] اجعلوا كتاب الله أنساً لكم وحتى إذا كانت بعض الآيات والسور غير واضحة عندكم . لا تقولوا : أي أثر للقراءة بلا فهم . فهذا الكلام ليس كلام بشر لكي تكون قراءته بلا فائدة ما لم يدرك المعنى . فهذا نور إلهي فإذا لم يدرك أحد معانيه فنفس القراءة هي عبادة لفظية وليست بلا فائدة . والإنسان مكلّف بالتدبر حين القراءة . ولكن إذا لم يدرك المعنى فلا يقول أنا لا أفهم المعنى فلماذا أقرأ ؟ كلا ﴿ **فاقرأوا ما تيسّر من القرآن** ﴾ أمر بالقراءة وأمر بقراءة ما يتيسّر من القرآن ، وقال في نفس سورة الأعراف : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا** ﴾[2] فإذا كان إمام الجماعة مشغولاً بقراءة الحمد والسورة فالتكليف هنا هو السكوت والإنصات إلى قراءة إمام الجماعة وقد قال جماعة بأنّه يجب السكوت والإنصات حتى إذا لم تكن صلاة جماعة ولكن المشهور بين العلماء هو الاستحباب . وعلى أي حال فمن اللائق أنّه عند تلاوة القرآن أن يستمع له الآخرون وينصتون . ويقول من جهة أخرى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[3] وهي دعوة للتدبر والنظر في محتويات القرآن ويقول : كل من لا يتدبر في القرآن فقلبه مُقفل ، باب فهم قلبه مقفول . وقُفل القلب ذنب ، فظلمات النفس الداخلية تبعث على غلق منافذ

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.
(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.

القلب وتمنع المعارف القرآنية من النفوذ إلى القلب عبر هذه المنافذ وتستحوذ على القلب . وقد أكّد الله تعالى على أهمية القرآن فقال : ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾[1] لقد يسّرنا هذا الكتاب لذكر الحق واسم الحق والأنس مع الله . وأيسر الطرق لذكر الله هو القرآن ، وأقرب وأفضل الطرق للأنس مع الله هو القرآن ، وهذا الكتاب الإلهي في نفس الوقت الذي هو ثقيل فهو أيضاً سهل يقول : ﴿ **إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾[2] لقد أرسلنا إليك قولاً ثقيلاً وأنزلناه على قلبك ، وقال أيضاً : وهو سهل وميسّر ولكنه ليس خفيفاً ، بل ثقيلاً ولكن ليس صعباً بل سهلاً . وفرق بين اليسر والضعف . ليس خفيفاً بل ثقيلاً ولكنّه سهل لأنّه يتلاءم وينسجم مع الفطرة ، وفي نفس الوقت الذي هو ﴿ **إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾ هو أيضاً ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر** ﴾ وقد بيّنا ذلك في الجلسات الأولى للأبحاث التفسيرية بصورة مفصّلة .

وعندما يقول الله تعالى : فاقرأوا ما تيسّر من القرآن ، ويقول : إذا قرأ القرآن فاستمعوا له ، ويقول : أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، ويقول : ولقد يسّرنا القرآن للذكر ، فكل هذه تشير إلى أن أفضل طريق لتولي الله هو القرآن ، وأهم الأمور التي تجعل الإنسان تحت ولاية الله هي القرآن ﴿ **إن وليي الله** ﴾ فإذا كان الله ولي أحد فماذا سيفعل ؟ ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾[3] ينجّي الإنسان من كل أنواع الظلم والظلمات ويخرجه إلى ساحة النور ويجعله نورانياً . وبناءً على هذا فرسول الله قد نجا من كل ألوان الظلمات وصار نوراً ، لأنّ الله تعالى يقول

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧ .

(٢) سورة المزمل، الآية: ٥ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧ .

في سورة الأعراف : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا** ﴾ فعمل ولاية الله هو إخراج الأشخاص الذين هم تحت ولايته إلى النور فيكونون نورانيين ، وهو ما يقوله : ﴿ **وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس** ﴾[1] يجعل له بين الأمة نوراً روحياً فتكون حركته وبصيرته وسيره نورانياً ، غايته أنّ الله قد أوضح هذا الطريق للآخرين ، يقول : إذا أراد شخص أن يكون تحت ولاية الله ويكون نورانياً فيجب عليه أن يكون صالحاً ﴿ **وهو يتولّى الصالحين** ﴾ وطريق الصلاح هو أن يكون ذا أنس عميق مع القرآن لأن الله الذي أنزل القرآن ولي رسول الله ﴿ **الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين** ﴾ والصالحون غير ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ هؤلاء الصالحين من أهل مقام الذات . فمرّة تكون الذات صالحة ، وأخرى يفعل الإنسان عملاً صالحاً .

العمل الصالح لا يحتاج إلى ترتيب كثير ولكن الذات الصالحة تحتاج إلى أعمال كاملة . ولقد كان رسول الله من الصالحين وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام من الصالحين . والصالحون في مقام الذات قد وصلوا إلى مرتبة عالية بحيث صارت ذاتهم صالحة ، وقد قال الله تعالى عن بعض الأنبياء بأنّه سيلحق مع الصالحين في يوم القيامة ﴿ **وإنّه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾[2] . فإذا صلحت الذات فلا يصدر منها إلّا العمل الصالح ، ولكن إذا كانت الذات غير صالحة وعمله صالحاً فمن الممكن أحياناً أن تصدر عنها الأعمال الصالحة وأحياناً تصدر عنها الأعمال غير الصالحة . والخلاصة أنّ الصالح الناظر لمقام الذات غير « الذين عملوا الصالحات » الناظر لمقام الفعل . وفي هذه الآية يدّعي رسول الله من جهة الله . إنّي من نظر الذات صالح لأن الله الذي يتولّى الصالحين هو وليي . وهل من الممكن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٠ .

أن يكون أحد غير صالح وهو تحت ولاية الله الخاصة ؟ مع أنّ كونه صالحاً وواجداً لحالة الأنس بالقرآن كلاهما محتاج إلى الولاية الإلهية ، إلا أن الولاية الخاصة هي لأولئك الذين لهم أنس عميق مع هذا القرآن وينطلقون إلى الدرجات العليا بصحبة القرآن الذي هو حبل الله ويصلون إلى مقام الذات الصالحة ، وحينئذ يكونون تحت ولاية الله بصورة مباشرة . وإذا كان الله ولي أحد فهو يتولى إدارة جميع أموره لأنّ جميع شؤون المولى عليه تقع على عاتق المولى . وإذا كان شخص تحت ولاية الله فهل يستطيع الشيطان أن يُفسده في ذلك المقام ؟ أو يجد الهوى والهوس طريقه إليه ؟ أو يستطيع الغرباء الوسوسة إليه ؟ أو يستطيع شيطانه الداخلي الوسوسة إليه ؟ أبداً لأنّ هذا الإنسان قد صار مباشرة تحت ولاية الله . وإذا وصل الإنسان ـ من جهة مقام الكمال والنورانية ـ بحيث صار الله وليّه فلا مجال لوسوسة الشيطان مرة أخرى . والقرآن يخاطبنا من أجل أن يبيّن لنا الطريق ومن أجل أن يطوي الأشخاص ذلك الطريق بقدر إمكانياتهم يقول لنا القرآن جميعاً هكذا : خذوا بقوة ما أرسل الله لهدايتكم ، فلم يقل ذلك لموسى الكليم وأمّته فقط ولا ليحيى عليه السلام بل خاطب جميع الأمم بقوله : ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾[1] وقال لأمّة موسى الكليم : خذوا بقوة ما كلّفكم الله به . وجاء في سورة الأعراف ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّة وظنّوا أنّه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلّكم تتقون** ﴾[2] وسنوضح ما هو المقصود من الأخذ بقوة ، فهل هو بقوة العضلات أو بالفكر القوي ؟ وعندما سُئل المعصوم عليه السلام : أبقوة الإيمان أم بقوة الأبدان ؟ فأجاب عليه السلام : بقوّة الأبدان وبقوّة القلوب والتي هي قوّة الإيمان ، بالقوتين معاً بقوّة الفكر

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧١ .

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧١ .

والعقيدة القوية وبقوّة العضلات أيضاً . بقوّة الفكر البرهاني العميق ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾[1] وبالقوّة البدنية أيضاً ﴿ **وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة** ﴾[2] بالقدرة المادية وبالقدرة المعنوية أيضاً . بالفكر العميق المحكم وبالعضلات الضخمة القوية أيضاً ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه** ﴾ ويقول لموسى الكليم : ﴿ **يا موسى إنّي اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوّة** ﴾[3] خذ بقوة هذه الألواح السماوية وهذه الصحيفة الإلهية وهذا الكتاب السماوي القيّم ، خذه بقوّة القلب وبقوّة البدن . وإذا كان الله تعالى قد أمر يحيى الشهيد سلام الله عليه قائلاً : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوّة** ﴾[4] فليس مقصوده القدرة البدنية فقط بل بالقدرة الروحية أيضاً . ولذا فإنّ يحيى سلام الله عليه جهد نفسه حتى وصل إلى حدود الشهادة واستقبل الشهادة ، ولم يكن يحيى زاهداً فقط بل وصل إلى الشهادة أيضاً ، ولم يكن يحيى الزاهد فقط بل يحيى الشهيد أيضاً ، لأنه أخذ بقوّة وقبل بقوّة ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوّة** ﴾ ولازم أن الإنسان ينبغي عليه أن يقبل الكتاب السماوي بقوّة الروح هو أن لا يخشى من أجل الحفاظ على هذا الكتاب من أي أمر غير ملائم وأن لا يجد الخوف والحزن إلى نفسه طريقاً من أي حادثة سيّئة وأن لا يترك أداء تكليفه . وقد طرحت مسألة ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوّة** ﴾[5] في سورة البقرة في موضعين : ﴿ **ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا** ﴾[6] وغايته أنّهم

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١ .
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠ .
(٣) سورة الأعراف، الآيتين: ١٤٤ ـ ١٤٥ .
(٤) سورة مريم، الآية: ١٢ .
(٥) سورة البقرة، الآية: ٦٣ .
(٦) سورة البقرة، الآية: ٩٣ .

﴿ **قالوا سمعنا وعصينا** ﴾ لأنّ القلب الذي أشرب بحب الأصنام لا مكان فيه للاعتقاد بالله ، وكما مرَّ في بحث الجلسة السابقة أن الإنسان لا يستطيع أن يجمع بين حب الله وحب غير الله ، لأنّه لا يمكن أن يربط حب الله في غير القلب ، وكذلك لا يستطيع أن يجمع بين الحبّين لأنه لا يملك قلبين بل قلب واحد ولا يمكن أن يخزن حبّين في قلب واحد لأنّ التوحيد والشرك لا يتلاءمان . وهذا هو معنى ما قيل للأنبياء : خذوا ما آتيناكم بقوة .

إذن فمن يريد الدخول في ولاية الله فيجب عليه أن يأخذ القرآن بقوة ، بإدراك معانيه والاعتقاد الشديد بها وأن يسعىٰ جهده في أثناء تطبيقها ولا يكسل عنها . وأساساً فإن التولي وولاية الله لا تنسجم مع الكسل وعندما أمر الله تعالى موسى الكليم وهارون عليهما السلام أن ينهضا لمقاومة فرعون قال : ﴿ **ولاتنيا في ذكري** ﴾[1] لا تعطوا طريقاً للكسل والضجر عن ذكر الله ، ولا تجعلا قلوبكما تحسّ بالكسل عند ذكر الله . وإذا أحسّ القلب بالكسل فإنّه لا يأخذ كتاب الله بقوّة ، وإذا لم يأخذه بقوّة فلا ينتصر . ماذا نعمل لكي ننتصر على عدوّنا الخارجي وعلى الشيطان الداخلي أيضاً ؟ ولأجل ذلك شخّص القرآن الكريم الطريق قائلاً : ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوّة** ﴾ إذا تنوّرت صفحة الروح بقوة الفكر فإنه سيرى جميع منافذ الشيطان ويغلقها عليه ويمنعه من النفوذ من خلالها ، فإذا رأى منافذ الشيطان وأغلقها عليه فحينئذٍ لا مجال لنفوذ الوسوسة لأنّ الشيطان يأتي من طريق لا يراه الإنسان ﴿ **إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾[2] فيأتي من ذلك المجرى الذي لا يراه الإنسان ، والإنسان غافل عن تلك الجهة فلا يراه فيصاب بسهم الشيطان « كلما غفل الشخص أصيب بسهم » وإذا لم يغلق الإنسان تلك الجهة على

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٢ .

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧ .

الشيطان ليمنعه من الوسوسة فإنّه سيصاب بصدمة ، وإذا رأى الإنسان كل الطرق وأغلقها فلا مجال حينئذ لنفوذ الشيطان . وفي نفس سورة الأعراف يقول : ﴿ **إنّ الذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون** ﴾[1] وصاحب القلب يحرس قلبه كما يحرس الكعبة . وإذا أراد الأجانب أن يطوفوا بزي الإحرام حول أطراف كعبة القلب ، إذا أراد هذا الطائف الأجنبي على أثر الطواف أن يجد طريقاً للنفوذ إلى كعبة القلب فإنّ صاحب القلب ـ لأنه يقظ ويفهم بأنّ هذا الأجنبي قد جاء بزي الصديق المعروف ـ يطرده فوراً ويرجمه . وأساساً فالشيطنة تأنس بالغفلة . والإنسان الذي لا يرى الطريق إمّا جاهل أو غافل سيلحقه الأذى . ولذا يقول : اذكروا الله ذكراً شديداً ولا تغفلوا أبداً فإن الشيطان يأتي من طريق الغفلة فحينئذ يكون غير المؤمن تحت ولاية الشيطان ، ويمضي عمره تحت سلطنة الشيطان ولا يعلم هو تحت ولاية من ، ويقضي عمره خاضعاً لأوامر الشيطان ولا يفهم هو تحت قيادة من ! والشيطان مثل الكلب المعلّم ، فهو لا يشكل إغراء لأي كان في مقابل الأمر الإلهي ، كما أنه لا يأخذ أمراً عند تضليل كل شخص فذلك الذي فتح كل نوافذ قلبه لوسوسة الشيطان وذلك الذي ترك كتاب الله وراء ظهره ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾[2] وذلك الذي كان عليه أن يأخذ كتاب الله وينطلق به إلى أعلى ولكنّه رماه بعيداً وفتح الطريق للغرباء فهو تحت ولاية الشيطان . ويهجم الشيطان من طريق الغفلة والقرآن يسعى أن لا يبقى أحد غافلاً . فالشيطان يُضلّ باسم الدلالة ويقطع الطريق باسم الإرشاد ، ويُسقط باسم الارتفاع والترقي ، ويُنزله باسم الهداية ، قال لآدم أبو البشر : ﴿ **هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا**

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧ .

يبْلى ﴾[1] فجاء بعنوان الدلالة ، ولكن ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾ وبدلاً من أن يهديهما أضلّهما وبدلاً من أن يرشدهما قطع الطريق عليهما . وكل سالك يُموّه عليه الطرق فإنّه يتدلى ويهبط ويسقط من أعلى ، وتعبير القرآن الدقيق هو أن الشيطان يتزيَّ بزي الدلالة فيعطي التدلّي ويُسقط بعنوان الهداية ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾ أنّه يدلي مع الحيلة ويعلّق من أعلى ، ويُنزل الشيطان أولئك الذين هم في أوج الكمال إلى الحضيض ، وعمل الشيطان هو قطع الطريق باسم الإرشاد والقيادة . وعلى حد تعبير صدر المتألهين : إنّ الشيطان قد أقسم لآدم وزوجه أن لا يخونهما ومع ذلك فقد عاملهما بتلك الصورة ، فماذا سيفعل معنا وقد أقسم على إضلالنا ؟ فأقسم لآدم أبو البشر وزوجه ﴿ **وقاسمهما إنّي لكما لمن الناصحين** ﴾ ولكنه خانهما ، ولكنه قال بالنسبة للآخرين ﴿ **فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين** ﴾[2] ومَن سخّر كل قواه في سبيل التضليل غير ذلك الذي يتبع الحيلة والمكر . وقد كان الشيطان بالنسبة لآدم عليه السلام متبعاً المكر والحيلة حتى يدخل بشكل غير معروف ، والآن يهجم بكل ما يملك من قوّة لتضليل الإنسان ، وهذا هو تعبير القرآن الكريم فيقول : ﴿ **عن الصراط لناكبون** ﴾[3] سقط أتباع الشيطان عن الصراط المستقيم يقول أحياناً : بعيدون عن الصراط ، وأخرى يقول : يسقطون من الصراط ﴿ **ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى** ﴾[4] أحياناً « نكب » وأخرى « هوى » أحياناً يسقطون بعيداً وأخرى يذهبون إلى الأسفل ، وكلاهما شيء واحد « اليمين والشمال مضلّة والوسطى هي الجادة »[5] . وبناءً على هذا

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة ص، الآية: ٨٢.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧٤.
(٤) سورة طه، الآية: ٨١.
(٥) نهج البلاغة: فيض الإسلام، ص ٦٩.

فالشيطان يوسوس من طريق لا يراه الإنسان وهو غافل عنه . ومن أجل أن لا يبقى مكان في القلب للشيطان ولا تبقى فيه زاوية مظلمة حتى لا تبدأ تلك الوساوس من تلك الزاوية المظلمة يقول : ﴿ **واذكر ربك في نفسك تضرّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾[1] أحيي ذكر الله في قلبك ودع ذكر الحق يطفح على روحك . وذكر الله بالشفتين الدرجة السفلى من الذكر ، وذكر الله في القلب الدرجة العليا من الذكر . وذكر الله هذا لا يسمح للشيطان بالنفوذ . واعط طريقاً لهذا الإسم إلى قلبك لا من باب صرف العلم بل بعنوان الإيمان في القلب تضرّعاً وخيفة لئلا تأخذك الغفلة وترى الأذى في حال الغفلة ، هذا بالنسبة للروح . وأمّا بالنسبة للسان فـ ﴿ **ودون الجهر من القول** ﴾ ليلهج لسانك بذكر الله صبحاً وعشيّاً ولكن لا بصوت مرتفع جداً ولا بصوت منخفض جداً ، تحرّك في أول الصباح باسم الله ليكون يومك محفوظاً ، واشتغل بذكر الله من أول الليل لتؤمّن عليك ليلتك ، واذكر الله ليس فقط في الفجر والغروب بل في الغدو والآصال أيضاً ، وهو ظاهراً كناية عن إدامة واستمرار الذكر فإذا قال افعل كذا في الصبح والليل وافعل كذا في الفجر والغروب فهذا يعني أنّه كُن على هذا الوضع دائماً لأنّه قال في ذيل الآية : ﴿ **ولا تكن من الغافلين** ﴾ وبالقدر الذي تغفل فيه عن ذكر الله يوسوس لك الشيطان بنفس ذلك المقدار أيضاً لأنّ الإنسان الغافل لا يرى نفوذ الوسوسة إليه . وإذا كان الإنسان لا يرى مسيره بسبب غفلته فالشيطان يوسوس إليه من نفس ذلك الطريق . وإذا لم يتحقّق الإنسان من شيء ولم يوزن ويقيّم نفعه ومضرّته ولم يفكر فيه فإنّه يرى السوء والضرر من نفس هذا الطريق ﴿ **ولا تكن من الغافلين** ﴾ ولم يقل فقط : ﴿ **واذكر ربّك في نفسك** ﴾ بل أعطى أوامر العبادة فقال : اذكر ربّك

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

بالغدو والآصال ، ولا تذكره في نفسك فقط بل لا تنسى الدعاء أيضاً . وقد أعطى أمراً بالدعاء أيضاً في سورة الأعراف : اقرأ ذكر الحق واسم الحق واذكر الله ، وأعطى أمراً بذكر الله في النفس وحينئذ وقال : أنتم الذين تقرأون اسم الله خوفاً ورجاءً لا تعتدوا لأنّ الله ﴿ **لا يحب المعتدين** ﴾ سواء كان هذا الاعتداء في الدعاء أو من أجل طلب تدعو الله للحصول عليه ﴿ **أدعوا ربّكم تضرّعاً وخفية إنّه لا يحبّ المعتدين** ﴾[1] يقول : ادعوا الله مع تضرع وفي الخفاء ، بالتخضع سراً في السَحَر ، ادعوا واطلبوا في حال الوحدة وبعيداً عن الرياء والسمعة ، وليكن لكم مع الله تضرّع خفي وزمزمة بالسر ، واسعوا أن لا تعتدوا في الدعاء ، والشيء الذي يجب أن لا تطلبوه فلا تطلبوه ، ولا تخرج طريقة دعاءكم عن أدب الدعاء ولا تعتدوا ، ولا تخاطبوا الله بأصوات مرتفعة لأنّك إذا خرجت عن الخفية والتضرّع خرجت عن أدب الدعاء . وإذا خرجت عن أدب الدعاء أصبحت معتدياً ﴿ **إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ لا تعتدوا في الطالب والمطلوب . يجب أن تطلب الشيء الذي تريده بالشكل الذي تريده خفية وتضرّعاً . وإذا كان التضرع خفية فسيثمر هذا الغرس يقيناً وتدنو قطوفه ، وإذا كان في البستان شجرة لا تنمو وتثمر فليس السبب من البستان ، وإذا سقى الإنسان بالتضرع والخفية ساق شجرته بدموعه فلا بد أن تثمر . وستأخذ هذه الشجرة كل فناء الروح وتنشر ظلالها فيها ، ولا طريق حينئذ لنفوذ الشيطان ، وإذا لم ينفذ الشيطان فسيطوي الإنسان طريق الصلاح ، وعندما يطوي الطريق سيكون له مع القرآن رابطة عميقة في جميع هذه المراحل ، وعندما تكون له هذه العلاقة الوطيدة مع القرآن فسيصل إلى ولاية الله التي هي أعلى مراتب الإنسانية لأنّ الإنسان الكامل هو مظهر الاسم الأعظم ، وبالاسم الأعظم وصل . أي أنّ

---

(١) سورة الأعراف، الآية : ٥٥ .

رسول الله وخاتم الأنبياء وأفضل الأنبياء وأولياء الله عليهم آلاف التحية والثناء تحت ولاية الله مباشرة ، وقد أوضح لنا القرآن هذا الطريق بثلاث جملات : ﴿ إنّ وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين ﴾[1] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦.

الدرس الثامن

القرآن هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى مقام الصالحين

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

دار الحديث في الجلسة السابقة حول الولاية الإلهية وعُرض هناك بأنّ الله تعالى يذكر أن رسوله ﷺ تحت ولايته المباشرة ، قال الله تعالى لرسوله : قل ﴿ **إنّ وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين** ﴾[1] وقُسّمت هذه الآية إلى ثلاثة أبعاد . ويلزم البحث في كل واحد من هذه الأبعاد الثلاثة . الأول : أن الله ولي رسول الله . والثاني : أنّ الله أنزل القرآن . والثالث : أن الله يتولّى الصالحين . وما قاله ﴿ **إنّ وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين** ﴾ يشير إلى أنّ رسول الله من الصالحين وطريق الوصول إلى الصلاح والاستقرار في ولاية الله هو القرآن الكريم . والذي ينقل الإنسان إلى ولاية الله هو الأنس والتدبر والإيمان والعمل بالقرآن . وقد بيّنا الفرق بين ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ و ﴿ **الصالحين** ﴾ وهو أن الصلاح في مقام العمل غير الصلاح في مقام

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦ .

الذات . وحيث أن القرآن رابط بين العبد والمولى وهو يبين طريق الولاية ويوصل الإنسان تحت ولاية الله إلى الكمال لذا فقد أعطى الله حول القرآن أوامر كثيرة فقال : ﴿ **فاقرأوا ما تيسّر من القرآن** ﴾[1] . وقال : ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا** ﴾[2] . وقال : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[3] وقال : ﴿ **إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾[4] وقال : ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾[5] . فالقرآن هو من أفضل الأسباب وأيسرها لذكر الله وحياة القلوب . وقد عرّف القرآن بعنوان حبل الله ومسائل أخرى . فالقرآن هو أهم الطرق بل هو الطريق الوحيد الذي يتيح للإنسان العروج إلى أعلى والالتحاق بمقام الصالحين ليكون تحت ولاية الله بصورة مباشرة . وإذا كان الإنسان تحت ولاية الله فإنّ الله يدير جميع أموره وتشمله الهداية الإلهية المباشرة . وليس في ذلك المقام أي طريق لوسوسة الشيطان ونفوذه . وما يمكن أن يمنع الإنسان من طي هذا الطريق أعذار مجردة لكنها كافية لإرضاء النفس وحسب فهي غير كافية لإرضاء العقل . وربما يقول الإنسان : أن الشيطان لم يدعني أسلك هذا الطريق . وربما يقول : إنّ وساوس النفس لم تسمح لي بطيّ هذا الطريق .

يجب أن نلاحظ نفوذ الشيطان في الإنسان من وجهة نظر القرآن إلى أي مقدار هي حتى نرى أن الشيطان إلى أي حدّ هو نافذ ؟ وعلى ماذا له نفوذ ؟ فهل درجة نفوذه على الجميع وفي الجميع بدرجة واحدة أو أنه يختلف ؟ وهل أنّ الشيطان له خطة معينة في مقابل الأمر الإلهي أو هو جزء من

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.
(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٤) سورة المزمل، الآية: ٥.
(٥) سورة القمر، الآية: ٢٢.

المأمورين الإلهيين ؟ وهل أنّ الشيطان قاطع طريق على الأوامر الإلهية ويؤدّي عملاً في مواجهة عمل الله أو هو جزء من نظام الخلقة ومن المأمورين من قبل الله ؟ أو هكذا : هل الشيطان في مقابل الله أو هو مخلوق الله وتابع لأوامره ؟ فإذا كان الله ربّ العالمين فجميع الموجودات تحت تدبير وربوبية الله ، إلاّ أن يُستثنى الشيطان ؟ وإلاّ أن لا يكون الشيطان تحت ربوبية الله ؟ وإلاّ أن يستقل الشيطان ولا يعمل بأوامر الله ؟ في الوقت الذي لا يوجد فيه أي شيء له إمكانية الاستقلال ، وكل الموجودات السماوية والأرضية خاضعة وداخرة في مقابل الأمر الإلهي ﴿ **وكل أتوه داخرين** ﴾[1] وبتعبير علي بن أبي طالب سلام الله عليه : الشيطان إمام المتعصبين . فهل إمام المتعصّبين هذا له موقف معارض تكويناً للأوامر الإلهية أو مأمور من المأمورين المقهورين لله ؟ ولا يعرّف القرآن نفوذ الشيطان سوى مجرّد وسوسة ونفوذ شعوري ومعرفتي فقط ، ولا يسلب اختيار الإنسان مطلقاً . وليس عمل الشيطان إلا الوسوسة والتشكيك والدعوة إلى المعاصي ليس أكثر . ومن الجهة الأخرى فإنّ الإنسان مسلّح بسلاح العقل من الداخل وبالنبوّة والدين من الخارج وهما مترابطان . فطبيعة الإنسان وفطرته الروحية والقلبية والعقلية وكذلك هدى الرسل في الخارج كل هذا يقوده إلى الصراط المستقيم . وكما قلنا فإنّ عمل الشيطان ليس إلاّ الوسوسة وليس شيئاً وراء ذلك . ولا يخرج الإنسان عن حدود اختياره وقدرته مع وسوسة الشيطان . والنفس أيضاً توسوس وهي السبب القريب للشيطان وهو ﴿ **الخنّاس * الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾[2] . الخنّاس الذي يوسوس في الصدور والأرواح والنفوس . والله تعالى يعلم وساوس النفس هذه والتي هي نتيجة

---

(١) سورة النمل، الآية : ٨٧ .

(٢) سورة الناس، الآيتين : ٤ ـ ٥ .

وساوس الشيطان ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾[1] وليس وسوسة النفس مع وسوسة الشيطان في عرض واحد ، بل هما في طول واحد ، فالشيطان يوسوس عن طريق النفس . والنفس الأمّارة هي آلة وأداة عمل الشيطان وإلاّ فإنّه ليس في العالم مبدأين للضلال ومأمورين للتضليل ووظيفتهما هي الوسوسة . وإذا كان الإنسان بما عنده من عقل في الداخل وهداية الأنبياء من الخارج ويعمل على وفق الوساوس فإنّما هو بسوء اختياره وإلاّ فالشيطان غير مسلّط على الإنسان . وعندما يترك الإنسان متعمّداً الصراط المستقيم بالرغم مما عنده من الحجتين الداخلية والخارجية ويذهب خلف الوساوس الشيطانية فلأنّه « حفت النار بالشهوات »[2] ويتحرك الإنسان برغبة الشهوة فيقع في داخل الشعلة . وهذه الشهوات الخادعة تسحبه وتذهب به إلى جهة النار . وإذا أهمل الإنسان متعمّداً أسباب الهداية وركض مسرعاً خلف الوساوس للوصول إلى الشهوات فالله تعالى يسلّط عليه الشيطان ويجعله من الآن فصاعداً تحت ولاية الشيطان ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾[3] ويصير الطاغوت وليّه ، ومن الآن فصاعداً ﴿ إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[4] فنجعل الشياطين أوليائه ويتحول هو إلى شيطان أنسي ، ويغلق على نفسه طريق العودة والرجعة عمداً . وعندما يطرح القرآن الكريم مسألة الشيطان يقول له : ليس لك سلطان على عبادي وليس لك إلاّ دعوتهم ، وهم يستطيعون الاستجابة لدعوتك أو عدم الاستجابة لها . وقد شرحت سورة إبراهيم أحداث يوم القيامة هكذا : ﴿ وبرزوا لله

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) الجامع الصغير: ج ١، ص ١٤٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

جميعاً﴾[1] ويبرز الجميع في ذلك اليوم وبشكل صريح لأنّه في القيامة ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾[2] وهو اليوم الذي ﴿ تبلى السرائر ﴾[3] وكل ما يخفيه الإنسان سيظهره هناك ولا يكتمه ﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنّا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله من شيء﴾[4] فيقول المستكبرون والذين بيدهم زمام الأمور: ﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾[5] فلو شملتنا الهداية الإلهية لهديناكم ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾[6] وسواء جزعنا أم صبرنا وسواء صرخنا أم سكتنا فنحن معذّبون على الحالين، لأنّ هذه المجموعة كانت تقول لأنبيائهما في الدنيا : ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾[7] فبالنسبة لنا شيء واحد ولا نقبل ما تقولون . فيقول الله تعالى لنبيّه عن هؤلاء : ﴿ سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾[8] وسواء أنذرتهم وخوّفتهم من عذاب الآخرة أو لم تخوفهم فهم لا يؤمنون ، أي سواء عليهم ﴿ أدعوتوهم أم أنتم صامتون ﴾[9] فإنّ دعوتكم ستبقى بلا أثر . وهذه الأمور الأربعة بعضها إلى جانب بعض : فمرة قالوا لنبيّهم شعيب سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين فإنّ عظتك بلا أثر ، وفي موضع آخر يقول الله تعالى : ﴿ سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ فهو بلا أثر ، وفي موضع آخر يقول : إنّ المشركين يخضعون

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢١ .
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٢ .
(٣) سورة الطارق، الآية: ٩ .
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢١ .
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٢١ .
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٢١ .
(٧) سورة الشعراء، الآية: ١٣٦ .
(٨) سورة البقرة، الآية: ٦ .
(٩) سورة الأعراف، الآية: ١٩٣ .

لآلهتهم وسواء عليهم أدعوتموهم أم أنتم صامتون فإنّها بلا أثر لأنّهم لا يفهمون ولا يسمعون . وهذه المجموعة عندما تكون أسيرة النار يقولون : **﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾**[1] فقد أودعنا يد العذاب **﴿ ما لنا من محيص ﴾**[2] وكان عدم التفاوت هذا في الدنيا ، وعدم التفاوت هذا سيكون في أثناء مجيء الجزاء . ويقول الشيطان في هذا الوقت الذي يُعذّب به الكفّار : **﴿ وقال الشيطان لمّا قُضي الأمر ﴾**[3] عندما أصدرت المحكمة الإلهية حكمها ودقّقت أعمال يوم الحساب ووصل أهل الفضيلة إلى ما وعدوا به واغتم المذنبون بجزائهم وصدرت الأحكام **﴿ لمّا قضي الأمر ﴾** يقول لهم الشيطان **﴿ إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾**[4] وقد كان وعد الله الحق هو أنّه إذا طويتم هذا الطريق فستصلون في آخره إلى السعادة ، وأمّا أنا فقد أوعدتكم وعداً كاذباً **﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾** لقد أخلفت ما وعدتكم به وظهرت هنا في يوم القيامة الوعود الإلهية ، والله لا يخلف وعده لأنّه يدعو إلى الصراط المستقيم ويهدي إليه . والشيطان يخلف وعده لأنّه يدعو إلى الضلال ونهاية الضلال لا هدف ولا مقصد له . ولا يمكن أن تكون نهاية دعوة الضلال هي الفضيلة ، وهذه الدعوة هي عين الانحراف وعين الحرمان . ثم يقول : **﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم ﴾**[5] ولم أكن في وقت ما ذو سلطان عليكم ولم يكن منّي سوى الاقتراح لكم ودعوتكم وكنتم مختارين وإن شئتم أن لا تأتوا . ولقد كان الله ورسوله يدعوكم من الجهة الأخرى ويعدانكما وعد الحق وأنا وعدّتكم وعداً

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢ .
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢ .
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢ .
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢ .
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢ .

باطلاً ولم يكن منّي إلاّ أن دعوتكم . وقد كان سلطاني عليكم هو الاقتراح فقط ، فلو شئتم لما أتيتم ، ولم يكن في عملي أي إكراه وإجبار ﴿ **وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم** ﴾[1] ولم تكن قدرتي عليكم إلاّ في حدود دعوتكم ولكنكم ﴿ **فاستجبتم لي** ﴾ والله تعالى يقول لكم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾[2] فلم تستجيبوا لهذه الدعوة واستجبتم لدعوتي مع تلك الوعود الكاذبة ﴿ **فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم** ﴾ لأن « **يداك أوكتاوفوك نفخ** »[3] لوموا أنفسكم ، وأنت الذي كنت بين طريقين فاخترت عمداً طريق الباطل ولم يكن أحد ذو سلطان عليك ، واختارت عيناك الشهوة التي مرت سريعاً وفكرت بالانحراف وجئت إلى هذا الطريق . ولم تدعك المصاعب في « حفّت الجنة بالمكاره » التي تمضي سريعاً أن تطوي ذلك الطريق وتصل إلى جنّة السعادة ، وقد نقل أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلوات الله عليه أنّه قال : « إنّ الجنة حفّت بالمكاره وأنّ النار حفّت بالشهوات »[4] . فإذا تحرّك الإنسان على بريق الشهوة واللذّة الكاذبة فإنّ النهاية هي النار ، ولكن إذا تحمل المكاره والمشاق المحيطة بالجنّة فإنّه سيصل إلى جنّة السعادة ، والإنسان الذي يواجه الصعاب بصبر ويطوي خطوات من طريق المكاره والمشاق فإنّ الله سيكون معه بالرغم من أنّ الله مع الجميع ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾[5] والجميع تحت معيّة وقيوميّة الله ، ولكن الأشخاص الذين يتحمّلون المكاره بصبر سيحظون بمعيّة الله الخاصة لأنّ ﴿ **الله مع الصابرين** ﴾[6] وكل من

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٣) مجمع الأمثال: ج ٢، ص ٣٦٣ و ج٢، ص ٤١٤.
(٤) نهج البلاغة: صبحي الصالح، ص ٢٥١.
(٥) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

الصبر والصلاة تتمتعان بأهمية خاصة في القرآن الكريم فيقول : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾[1] استعينوا بالصلاة واستمدوا الاستقامة والثبات والشجاعة والتحمّل من الصبر ، أي يجب على الإنسان أن يصنع سلّماً يترقّى به إلى الأعلى ، ونتيجة الأوامر الإلهية هي اصنعوا سلّم الصلاة وسلّم الصبر واعرجوا إلى العالم العلوي ، فهذه هي آلات الرشد ، يقول ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ إلاّ أنّه قال عن الصلاة : ﴿ **وإنّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين** ﴾[2] الصلاة أمر كبير ومهم وصعب إلاّ على الخاشعين فإنّها غير صعبة ، بل هي نور أبصارهم ، والصلاة نور بصر وقرة عين رسول الله والمؤمنين « وقرّة عيني في الصلاة »[3] العين التي تجود بدموع الفرح والنشاط باردة قريرة وصاحبها قرير العين ، وعندما يقال قرّت الأعين أي يعني أن تكون عيونه باردة بسكبها لدموع الفرح والنشاط ، وهي تختلف عن دموع الحزن فهي حارّة وأمّا دموع الفرح فهي باردة . (القرة : البرودة) والإنسان الخاشع يعتقد بالصلاة بأنّها قرّة للعين . ويستقبل الصلاة بدموع العشق التي هي دموع باردة . وإذا كانت الصلاة والصبر كلاهما سلّم الكمال ولكن الصبر يحظى بخصوصية ، ويتضح هذا المطلب ببيان للعلاّمة الطباطبائي قدّس سرّه ، وهو أنّ الصلاة عمود الدين ﴿ **وإنّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين** ﴾ ولكن لم يقل الله عن المصلّين « إنّ الله مع المصلّين » بل قال ﴿ **استعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ ولكنّه قال عن الصبر ﴿ **استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين** ﴾ فكل من لم يلق عن عاتقه المسؤولية أمام المشكلات الدينية ، وكل مَنْ لم يخش في مقابل الظروف غير الملائمة ، وكل مَنْ لم يترك ساحة الجهاد وصمد ، ففي تلك المرحلة التي أظهر فيها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٣) الجامع الصغير: ج ١، ص ١٤٤.

الصمود هو يتمتع بمعيّة الله لأنّ ﴿ **الله مع الصابرين** ﴾ وكل مَنْ تحمّل مشاق الأوامر الإلهية فسيصل إلى جنّة السعادة . ولا يعدو عمل الشيطان عن الوعود الكاذبة والدعوة وليس أكثر ، وليس له أي سلطان على الإنسان . وليس صحيحاً أن يدّعي أحد أن الشيطان منعه لأنّ يوم القيامة يوم ظهور الحق ﴿ **وبرزوا لله جميعاً** ﴾[1] واليوم الذي يتضح فيه الحق بصورة كاملة ، وفي ذلك اليوم سيتحدّث الشيطان ويمضي الله صحة كلامه وهو أنّ الشيطان ليس له سلطان على الإنسان . ونفوذ الشيطان مشخّص . الأول في حدود الوعود والدعوة . والثاني في حدود الولاية ، وكل سعي الشيطان وجهده هو إخراج العيوب والسيّئات الداخلية وإبراز القبائح بشكل يُقنع الإنسان بحُسنها ، ويوصل القبائح المخفية والتي هي في حدود القوّة والاستعداد إلى مرحلة الفعلية ويسعى أيضاً لتزيينها وتحسينها عند الإنسان يقول القرآن حول قصّة آدم وزوجته : إنَّ الشيطان كان يسعى لإظهار سيّئاتهما الكامنة ﴿ **فدلاهما بغرور فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما** ﴾[2] أي كان يريد إخراج بواعث السوء . ويسعى الشيطان لإظهار ما بالقوة من السيّئات إلى ما بالفعل ، فكما يسعى الأنبياء لإخراج استعدادات الفضيلة الكامنة في الإنسان بالقوة إلى الخارج ولأن يصنعوا منه إنساناً كاملاً بالفعل ، فإن الشيطان يسعى إلى إظهار ما بالقوة من الرذائل إلى الفعلية ويزيّنها له في مقابل سعي الأنبياء إلى إظهار استعدادات الفضيلة وتحبيبها وتحسينها ﴿ **حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم** ﴾[3] وإذا كان عمل الشيطان هو إظهار القبائح الداخلية وإيصالها إلى عالم الفعل ومحاولة إقناع الإنسان بحُسنها وتزيّنها له فيجب أن يكون الإنسان حذراً جداً ويقظاً ويسعى لأن لا يغفل أبداً .

---

(١) سورة إبراهيم، الآية : ٢١ .

(٢) سورة الأعراف، الآية : ٢٢ .

(٣) سورة الحجرات، الآية : ٧ .

وعلى ضوء قول أمير المؤمنين عليه السلام : « يا أيها الإنسان أليس من نومك يقظة ؟»[1] أيها الإنسان إلى متى تبقى نائماً ؟ ألا يجب عليك أن تنهض مرة واحدة من سُباتك ؟ وبناءً على هذا فطريق نفوذ الشيطان لا يتجاوز لأول وهلة حدود الدعوة وليس شيئاً وراء ذلك . ومن اتّبع طريقه فسيكون تحت ولايته ، ومن ذلك الوقت فصاعداً يجب عليه أن يلوم نفسه ولا يلوم غيره ، لأنّ الامتناع كان باختياره « والامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار » وفي مقابل ذلك لا يجب على الإنسان أن يستمع إلى نداءات الشيطان . وقد قالوا لنا من جهة أخرى : اقبلوا الشيء الذي يحييكم ، فالحجة تامّة من جميع الجهات . ونماذجها موجودة في جميع مراحل التاريخ وكذلك الآن . ونقل عن الإمام الخامس سلام الله عليه : إنّ شاباً جاء إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقال : إني رجل نشيط ، فقال له رسول الله : « جاهد في سبيل الله إن تقتل كنت حيّاً مرزوقاً عند الله ، وإن متّ فقد وقع أجرك على الله » . يعني وعلى ضوء الآية الكريمة ﴿ **ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون** ﴾[2] ستكون حياً عند الله وتأكل من رزق الله ، وأمّا إذا لم ترزق الشهادة ومتّ في الطريق فسيقع أجرك على الله ، لأنّ آية أخرى في القرآن تقول : ﴿**ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله**﴾[3] وذيل بيان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخذ من الآية الثانية ، بينما صدر بيانه صلى الله عليه وآله أخذ من الآية الأولى . والإنسان يمتلك زمام الاختيار بيده دائماً فإمّا أن ينتخب نجد الفضيلة والخير أو ينتخب نجد الرذيلة والشر ﴿ **وهديناه**

(١) نهج البلاغة فيض الإسلام: ص ٧٠٨ .
(٢) سورة آل عمران، الآية : ١٦٩ .
(٣) سورة النساء، الآية : ١٠٠ .

النجدين ﴾[1] وليس للشيطان نفوذ سوى الدعوة . وكذلك فإنّ الأنبياء والأولياء ليس لهم نفوذ على الإنسان إلاّ الدعوة ، فالإنسان مختار لا مستقل ولا مجبور ، فإذا طوى الإنسان طريق الفضيلة فإنّ هذا الهدى الذي بمعنى الإرشاد يصل رويداً رويداً إلى الهدى بمعنى الإيصال ﴿ **زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾[2] .

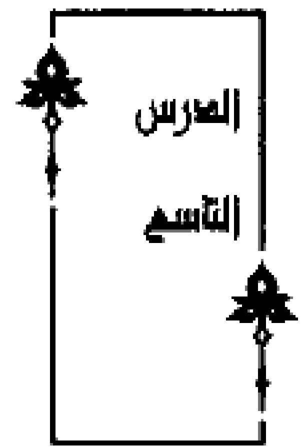
ونرى هذا المضمون في كثير من الآيات القرآنية حيث يقول إنّ الله يزيد إيمانهم وهداهم أو يوصلهم إلى مطلوبهم وأمثال ذلك . إذن فكل مَنْ ترك الدعوات الإلهية وراء ظهره عمداً فهو يسلك طريق الشيطان ، يقول الله في سورة الأعراف : ﴿ **قل أمر ربّي بالقسط** ﴾[3] ، والذي لا يهتم بأمر الله عمداً ويميل إلى الجور والظلم سيتسلّط عليه الشيطان ويكون مثله كمثل الكلب المعلّم عليه ، وسيمتلىء قلبه انحرافاً عن طريق الوسوسة . وعندئذ نسد عليه طريق العودة والتوبة لأنّه أغلق الطريق على نفسه عمداً . قال القرآن الكريم : ﴿ **سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض** ﴾[4] سيصرف الله قلب أولئك الذين يطلبون التكبّر ولا يخضعون لأوامر الله عن إدراك المعاني الدينية ﴿ **ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم** ﴾[5] ويسلب التوفيق منهم . إنّهم يفكرون دائماً بمتاع الدنيا الزائل ، وبتعبير القرآن ﴿ **يأخذون عرض هذا الأدنى** ﴾[6] أي يأخذون هذا المتاع الحقير ، ويخدعهم الشيطان على هذا المتاع الحقير . وبتعبير علي بن أبي طالب عليه السلام : لا يوجد عالم

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٠ .
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧ .
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٩ .
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦ .
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٢٧ .
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩ .

أدنى من الدنيا ، وعالم الخلقة هو رتبة رف الأحذية في المنزل حيث يجعل في أسفل درجات المنزل ، وما من عالمٍ أدنى من هذه الدنيا لأنّه « لا يُعصى الله إلاّ فيها » ولا توجد أي معصية في أيّ عالم سوى الدنيا ، وإذا تركنا الدنيا فلا يوجد مكان آخر للمعاصي ، « ولا ينال ما عند الله إلاّ بتركها » ولا يتيسر الحصول على ما عند الله إلاّ بترك هذه الدنيا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الله هو العلة الفاعلية لكل الوجود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

بالرغم من أنّ القرآن الكريم قد جعل موضوعات كثيرة محط البحث والاستدلال وبيّن تلك الموضوعات عن طريق الوحي على أحسن وجه ، ولكن أفضل الموضوعات التي بحثها القرآن بحثاً واسعاً هو موضوع التوحيد . الاعتقاد بالمبدأ واليقين بوحدانية ذلك المبدأ والتصديق بأن لعالم الخلق مبدأ وهو واحد أحد ، فهو واحد وهو أيضاً أحد . فهو لا يتجزّأ من الداخل ولا شريك ولا نظير له في الخارج . فهو لا شريك له ولا مثيل وهو أحد ، وقد أقام القرآن الكريم براهين كثيرة لإثبات هذا المدّعى ، فيستدل أحياناً عن طريق الفقر الوجودي لجميع موجودات عالم الإمكان ، وأحياناً يكون مبدأ لتشكيل برهان عن طريق حدوثها وأمثال ذلك ولكن الذي أولاه القرآن أهمية أكبر هو برهان سير النظام والنظم على ثلاثة أبعاد وثلاثة أقسام : ١ ـ النظام الفاعلي ، ٢ ـ النظام الداخلي ، ٣ ـ النظام الغائي .

وقد بيّن النظام الفاعلي بشكل يكون الله فيه منطلقاً لجميع العلل الفاعلية ، أي أنّ كل عمل ينشأ من أي مبدأ فاعلي فيجب أن يصل إلى المبدأ الأول وهو الله . وسلسلة العلل الفاعلية أو كل خيط فاعلي يصل إلى رأس الخيط وهو الله .

ويطرح في القسم الثاني النظام الداخلي وهو أنّ كل موجود خُلق بشكل منظم بحيث أن كل ما يحتاجه وكل ما له دخل في كماله ، وكل الإمكانيات المؤثرة في تطوّره خُلقت معه . فقد خلقه الله وأعطاه كل ما يحتاج إليه من الآلات واللوازم الضرورية . وهذا هو النظام الداخلي للأشياء .

والقسم الثالث مسيرة النظام الغائي وهو أن كلّ واحد من الموجودات له هدف خاص يسعى له ، وتصل هذه الأهداف الفرعية وسلسلة الغايات إلى ذلك الهدف النهائي والمقصود بالذات وهو الله ، أن الموجودات في تكاملها تطلب شيئاً هو الكمال المحض وهو كمالها بالذات أيضاً وهو في الكمال غير محدود أيضاً . إذ أن هذه الموجودات تنشأ من مبدأ وتصدر من محل هو وجود محض وفي نفس الوقت وجوده ذاتي وغير محدود .

وبيان هذه الأبعاد الثلاثة والنظم الثلاثة هو : إنّ القرآن ثبّت قانون العلية وقال لا تصدر كل ظاهرة عن أي مبدأ كان ولا تنشأ كل حادثة عن أي مصدر كان . وعندما يطرح مسألة هطول المطر يذكر العلل القريبة المؤثّرة في تكوّن المطر بصورة جيدة ، ويوضّح العلل القريبة التي لها أثر في نمو النباتات بشكل جيد ، وأمثال ذلك وغايته أن يقال : أنّ هذا النظام الفاعلي الفرعي لا بدّ أن يصل إلى ذلك المبدأ الأول والذي هو غير محتاج إلى فاعل بل هو صمد ويرفع حاجة جميع المحتاجين وكل ما كان وجوده ليس عين

ذاته فهو محتاج إلى آخر حتى يصل الأمر إلى المبدأ الذي هو عين الوجود ، حتى يصل إلى الله الذي هو الغني المحض وغير المحتاج ، والفقير يمكن أن يستند مؤقتاً إلى مستغني ، ولكن معتمد المستغني غني لا مستغني آخر ، والفقير هو الموجود المحتاج الذي لا يملك الشيء الذي يرفع حاجته ، وأمّا المستغني فهو الذي يكون محتاجاً ولكنه واجد لما يحتاج إليه . والغني هو غير المحتاج إلى شيء وكل موجودات عالم الإمكان محتاجة وتستمد الفيض عن طريق ذلك الغني المحض فتصير مستغنية بذلك الفيض . وعلى هذا فمعتمد ومستند المحتاج سيكون هو الغني لا المستغني . ولذلك فإنّ القرآن الكريم عندما يبيّن النظام الفاعلي يقول : كل أولئك يسألون الله ، كل محتاجو عالم الخلق يطلبون شيئاً من الله ﴿ **يسأله من في السماوات والأرض** ﴾[1] وعندما يكون السؤال عمومياً والكل يسألونه فيجب أن يكون الجواب عمومياً ودائمياً ، ولهذا يعطي جواباً في ذيل هذه الآية فيقول ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾[2] أي إذا كان السؤال عمومياً وأبدياً ودائمياً فيكون الفيض أيضاً عمومياً وأبدياً ودائمياً . ولله في كل ظهور فيض جديد كما أنّ جميع الموجودات السماوية والأرضية هي في كل لحظة محتاجة وسائلة . وينبغي الإلتفات إلى الآيات التي طُرحت في الجلسات السابقة من أجل تبيين هذا النظام الفاعلي .

ونكرر هنا نماذج من بعض تلك الآيات للتذكّر . قال في تبيين النظام الداخلي . كل شيء خلقه الله فهو جميل ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه** ﴾[3] أي أنّه أعطي جميع اللوازم التي لها أثر في كماله . وإذا فقد

---

(١) سورة الرحمن، الآية : ٢٩ .
(٢) سورة الرحمن، الآية : ٢٩ .
(٣) سورة السجدة، الآية : ٧ .

موجود ما بعض أجزائه وآلاته الضرورية فهو ناقص ، والناقص ليس جميلاً ، وحُسنه في كماله وتمامه ، يقول الله : كل شيء خلقته فهو حسن وجميل ، فإذا كان قد خلق النبات فقد أعطاه ما يحتاجه في عملية نموّه . وإذا كان قد خلق الحيوانات البحرية في البحر فقد أمّن لها الأرضية المناسبة لحياتها في البحر وإذا كان قد خلق موجودات ما في باطن الأرض فقد هيّأ لها لوازم حياتها هناك ، وكذلك الموجودات الفضائية والسماوية والموجودات الأخرى ﴿ **الذي أعطى كل شيء خلقه** ﴾[1] وأحياناً يأتي بأسماء بعض الموجودات . وقد صرّح حول الإنسان بأنّه أعطاه آلات الإدراك وآلات التحريك وجهاز الإذن وقوة الجذب والدفع ، ووضع طريق التعليمات السمعية والبصرية في وجهه وأعطاه أدوات الضبط والفكر وأمثال ذلك . وكذلك حول تكوّن المعادن في باطن الجبال فقد هيّأ لها كل ما تحتاجه في عملية تكوّنها ورشدها . وقال حول النظام الغائي : إنّ كل هذه الموجودات المتحركة إلى جهة الكمال لها مقصد وغاية وهي تتحرك في أثر ذلك الهدف ، وهي تحتاج إلى مبدأ يهديها إلى مقصدها ويوصلها إليه وذلك المبدأ الهادي لها إلى مقاصدها وغاياتها هو ذلك الهدف النهائي والغاية بالذات وهو آخر الآخرين باسم الله الهادي ، كما أن المبدأ الذي خلقها وصنعها جميعاً هو أول الأولين باسم الله الفاطر .

وقد بيّن القرآن الكريم الخطوط الرئيسية لهذه النظم الثلاثة ، أي تحليل النظام الفاعلي وتبيين النظام الداخلي للأشياء وتوضيح النظام الغائي للأشياء . وعندما يُراد إقامة برهان عن طريق النظام الفاعلي فالحد الأوسط لتلك البراهين هو الخالق والفاطر والبديع والمبدع وأمثال ذلك . وما يقال عن الفطرة والخلقة والإبداع والابتكار وما يُبحث فيه عن المستجدات

(١) سورة طه، الآية : ٥٠ .

فجميعها مبادىء برهانية لها دور في توضيح النظام الفاعلي . وأمّا مسائل الحكمة والتدبير والإعطاء وأمثال ذلك فهي الحد الأوسط للبراهين التي تبيّن النظام الداخلي للأشياء . وحيث يراد تفهيم الحد الأوسط للبرهان الذي يبيّن النظام الغائي فإنه يطرح مسألة الهداية ومسألة القيادة وأنّه قائد ومرشد . وفي هذا القسم الثالث يطرح الله بعنوان الهادي ، وفي القسم الثاني يُطرح بعنوان المدبر ، وفي القسم الأول يطرح بعنوان الفاطر . وبالرغم من أنّ هذه الأسماء الحسنى لله تنشأ من موضع واحد وهي مرتبطة مع بعضها ولكن كل منها يبيّن زاوية معيّنة ، ويتجلّى الله مع كل اسم ببعد معيّن فيتجلّى في قسم النظام الفاعلي باسم الفاطر والخالق والبديع والمبدع وأمثال ذلك . ويتجلّىٰ في قسم النظام الداخلي للأشياء بعنوان الحكيم والمدبر والمعطي والمجيب وأمثال ذلك . ويتجلّى في قسم النظام الغائي بعنوان الهادي والقائد وأمثال ذلك . وذلك لأجل وضوح الجامع المشترك لهذه الأبعاد الثلاثة . ويقول القرآن بأنّ العالم قد نُظِّم على ضوء أصول الخلقة والحكمة والهداية ، أي أنّ هندسة الحكمة والهداية قد رسمت خارطة العالم ، وأينما وقع نظرك ترى نماذج من الفطرة ونماذج من الحكمة ونماذج من الهداية لأنّ الفاطر والحكيم والهادي واحد ، وتشكل هذه الأنظمة الفاعلي والغائي وكذلك النظام الداخلي بمجموعها آية وعلامة ، وكل واحدة من فقرات هذه الأقسام الثلاثة آية الحق . فبعضها آية الفاطر ، وبعضها آية الحكيم ، وبعضها آية الهادي فكل مكان فيه الخلق والنمو والإبداع والابتكار فهو آية الله وكل مكان فيه الحكمة والتدبير فهو آية الله ، وكل مكان فيه القيادة والإرشاد والهداية فهو آية الله الهادي . وبيان القرآن الكريم هو : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾[1] يقول : قد بُيّنت كل الموجودات في حضور الله بمقدار معيّن

---

(١) سورة الرعد، الآية : ٨ .

ودور خاص . أي إذا أراد موجود ما التحقق والوجود فيجب أن تكون نشأته من فاعل خاص هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يجب أن يكون سائراً على أثر هدف معين ، ومن جهة ثالثة فقد صيغت حدوده وفق نظام داخلي خاص يقبل التحقق بجهاز محدد . ولهذا يقول : ﴿ **وكل شيء عنده بمقدار** ﴾ و ﴿ **إنّا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[1] والهندسة معرّب « إنداره » أي المقدار ، والمهندس هو من يعمل على المقدار ، يقول : هُندس العالم أي تعينت مقاديره ﴿ **إنّا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ ويقول في سورة الحجر : ﴿ **وإن من شيء إلاَّ عندنا خزائنه وما ننزّله إلاّ بقدر معلوم** ﴾[2] وما من شيء إلاّ وله خزائن عند الله ، لا أنه لمجموع الأشياء خزائن ، بل لكل موجود خزائن عديدة ، في طول بعضها البعض . وكل ظاهرة لها مخازن وهي تظهر مهندسة من هذه الخزائن وتتحقق في الخارج . إذن فما من شيء لا مقدار له ، بل له مقدار فاعلي ، ويجب أن يكون من فاعل خاص ، وله أيضاً مقدار داخلي يتحقّق مع نظام خاص كما أن له مقداراً نهائياً يتابع هدفاً خاصاً كذلك . وقد طُرحت في القرآن مسألة القدر بمعنى آخذ المقدار في مواضع كثيرة : ﴿ **الذي خلق فسوّى * والذي قدّر فهدىٰ** ﴾[3] فيقول في سورة الأعلى : لقد أعطى الله الخالق هذا الموجود المخلوق جهازه الخاص . وكل الذي خلقه كان مستوي الخلقة . وأعطاه ما يحتاجه للوصول إلى الكمال . وليس فيه نقص في تنظيمه ولا عيب داخلي . وإذا كان قد خلق النباتات فقد خلقها مستوية . وإذا كان قد خلق نجوم السماء فقد خلقها على حد الاعتدال والاستواء . وإذا كان قد خلق الإنسان فقد خلقه مستوي الخلقة . فالخلقة تتم مع الاستواء والاعتدال الداخلي . أي أنّ أجزاء

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩ .

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢١ .

(٣) سورة الأعلى، الآيتين: ٢ ـ ٣ .

وأدوات كل شيء في داخله منظمة بشكل متناسب مع بعضها البعض قد جعل له مقداراً معيّناً . فإذن لم يُخلق شيء ناقص ومعيوب . فأعضاؤه الداخلية مترابطة ومتعادلة مع هيكله الشخصي ، مثلما أنّ جميع العالم موزون ومترابط ومستوي . فلكل شيء قدر وقالب وخارطة ومقدار خاص ، وقد جعل له ماضٍ معيّن ومستقبل معيّن ، وهداه إلى مستقبله الذي عيّنه له ، والهداية على ضوء الخارطة . فإذا لم يكن لشيء هدف معيّن فليس له طريق ليرشده الهادي إلى الطريق . وإذا كان له طريق ولكن ليس له مقصد فليس له هدف حتى تكون له هداية موضعية . وأمّا الآيات التي جاءت في القرآن الكريم بعنوان قدْر ، قَدر ، مقدار ، تقدير ، وأمثال ذلك . فلكي تعطي علامة الأبعاد الثلاثة لعالم الخلقة ، فهي هندسة فاعلية وهندسة داخلية وتنظيمية وهندسة نهايتية وهدفية ، والآية الجامعة التي تبيّن هندسة الأنظمة الثلاثة هي استدلال موسى الكليم سلام الله عليه للتوحيد الربوبي في مقابل طاغوت وفرعون مصر . فعندما أمر موسى الكليم سلام الله عليه بدعوة وإرشاد وهداية فرعون طلب من الله مسألة وهي أن يجعل معه أخاه هارون وزيراً وشريكاً في أمره ، وخاطب الله قائلاً : إنّ هذا العمل مهم ، وهذا العمل المهم يصل إلى هدفه عن طريق التبليغ ، والأمر المؤثر في التبليغ هو فصاحة اللسان ، وأخي ﴿ **أفصح منّي لساناً** ﴾[1] فأشركه في أمري . وسأل الله طلبات أخرى وقد استجاب الله له كل طلباته ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[2] قد أعطيتك كل ما طلبته وقُبلت كل اقتراحاتك . وجلس موسى الكليم سلام الله عليه وأخوه هارون مع طاغوت زمانه للبحث وذلك لأجل نشر التوحيد فهدوه أولاً إلى التوحيد فإنّ فرعون رغم أنّه كان من عبادة

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٤.

(٢) سورة طه، الآية: ٣٦.

الأوثان ولكنه كان يحكم الناس بعنوان أنّه ربّ : ورغم أنّ حاشية فرعون قالوا له : إنّ مدعي النبوّة هؤلاء يريدون أن ﴿ **ويذرك وآلهتك** ﴾ يريد أن يجعلك وآلهتك في عالم النسيان . وبالرغم من أنّ فرعون ومريديه كانوا من عبَدَة الأوثان ، ولكنه ادّعى ربوبية أقليم فقال : أنا ربّ هؤلاء الناس ، ربّ هذه الأمة ، وذاك هو الربّ الأعلى فإذا أردتم وحيث أنه يجب أن تعبدوا رباً فما من معبود لهؤلاء الناس غيري ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾[1] ومن جهة أخرى أيضاً ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾[2] فليس لكم من معبود ومطاع سواي وليس لكم من رب ومدبر غيري . ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ وبناءً على هذا ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ ونشر موسى الكليم الدعوة التوحيدية في مقابل هذه الجاهلية ، ويقول في سورة طه : ﴿ **إنّا قد أوحي إلينا أنّ العذاب على مَنْ كذَّب وتولّى * قال فمن ربكما يا موسى** ﴾[3] قال فرعون لموسى الكليم عليه السلام : مَنْ ربُّك ولا يوجد في هذه المنطقة ربّ غيري ؟ وهذا احتجاج واستدلال ﴿ **قال ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾[4] وفيه إشارة لهذه الخطة الهندسية ذات الأنظمة الثلاثة حيث قال : ربّي الذي أعطى لكل الموجودات نظامها الداخلي ، وهداها وقادها إلى غاياتها ومقاصدها النهائية . فربّنا هو ذلك المبدأ ﴿ **الذي أعطى كل شيء خلقه** ﴾ فالله هو الذي أعطى كل موجود ما يلزمه من التنظيم الداخلي ، وهذا لوضع معنيين ونظامين ﴿ **ثم هدى** ﴾ يُفهم من النظام الغائي الذي هو النظام الثالث . وقوله : « إن الله قد أعطى جميع هذه الموجودات خلقها وما يلزمها من الآلات الداخلية » يعني أعطاها : ١ ـ أصل الوجود . ٢ ـ خلق آلات

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤ .

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨ .

(٣) سورة طه، الآيتين: ٤٨ ـ ٤٩ .

(٤) سورة طه، الآية: ٥٠ .

وأدوات تكامل كل موجود ، وجعلها جميلة . فقد بناها وقام بذلك على ضوء الأصول الهندسية أيضاً وأوجدها وقام بذلك على ضوء خطة أيضاً ﴿ **أعطى كل شيء** ﴾ يعني قد أعطاه كل ما له دور في تكامل خلقته ، وكل ما له حصة في أجهزته الداخلية . وفي هذه الجملة القصيرة وذات المحتوى العالي أسند النظام الفاعلي إلى الله حيث يرى أنه معطي الكل ومبدأ العطاء والمبدأ لأول عطاء وسمّاه مبدأ الإعطاء الأول . كما أسند إليه النظام الداخلي أيضاً حيث قال : أعطى كل شيء ما كان يلزمه في تكامل الخلقة ، فأعطى خلق كل مخلوق لذلك المخلوق . فإذا كانت العين والأذن والقلب لازمة في خلقة الإنسان فإنه قد أعطاه العين والأذن والقلب . وإذا كان يلزم الإنسان في نظامه الداخلي العين والشفّة والأسنان فإنه قد أعطاه العين والشفّة والأسنان ﴿ **ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين** ﴾[1] فإذا كان خلق الذكورة والأنوثة لازمة في نمو النبات فهو يخلقها . وإذا كان يجب أن يعطي للحبة أو للنواة قدرة الإنفلاق فقد أعطاها . وكيف تنفلق تلك الحبة أو ينفلق ذلك السنبل ؟ وكيف تنفلق تلك النواة عن شجرة ؟ ذلك هو الله ﴿ **فالق الحب والنوى** ﴾[2] هو الذي أعطاها هذه الصفة وكيف يجب أن يكون الملك ليكون حامل الوحي والعلم ؟ وكيف يجب أن يكون الملك حتى يتصدّى لأمور الكيل والرزق ؟ وكيف يجب أن يكون الملك ليتصدّى لقبض الأرواح ؟ الله هو الذي أعطى كل هذه الكيفيات . وكيف يمكن أن يكون الطائر في الفضاء بحيث يختار فتح جناحيه مرّة وغلقهما أخرى ويطير في الفضاء ؟ الله الذي أعطاه هذه الصفة .

---

(١) سورة البلد، الآيات: ٨ ـ ١٠ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٥ .

(ترجمة شعر) :

لقد علمت الأسد الغضوب كيف يهاجم كما أعطيت الغزال سرعة الجري .

وأعطى تلك الحيوانات البحرية أدوات تستطيع بها أن تعيش في أعماق البحار أو في كل محيط صالح لحياتها ، فالله هو الذي أعطاها هذه الأجهزة وجهزها بها . فإذن لا يوجد شيء فيه نقص مما تحتاجه الموجودات في تنظيمها الداخلي . فلا عيب في الهندسة الداخلية ولا نقص في الخارطة الخارجية لها لأنّ النقص أو العيب لا يتلاءم مع الجمال وكل شيء خلقه الله فقد خلقه جميلاً . وعلى ضوء هذه الآية ﴿ **أحسن كل شيء خلقه** ﴾ وهذه الآية ﴿ **أعطى كل شيء خلقه** ﴾ أي أنّه أعطي كل موجود ما يلزمه لتأمين سعادته . وأمّا إذا لم يستطع ذلك الموجود الاستفادة من تلك الإمكانيات أو أنه قد استفاد منها بشكل غير صحيح واستخدمها في الطريق الفاسد فهذا موضوع مستقل إذن هو قد أشار إلى نظامين : النظام الفاعلي والنظام الداخلي . ﴿ **ثم هدى** ﴾ عندما بيّن النظام الداخلي وأخذ هذا الشيء طريقه إلى عالم الوجود وعيّن النظام الداخلي له خارطته الداخلية فحينئذ يصل الدور إلى النظام الغائي . فكل شيء له هدف ، وكل موجود يتجه إلى هدفه ، فإذا كان مجرّداً فمبدأه ومحشره واحد فله هدف لأنّ له مبدأ ، فيرتبط من جهة بالمبدأ الفاعلي ويرتبط من الجهة الأخرى بالهدف الغائي . وهذه الحالات موجودة معه ، مبدأه وخاتمته واحدة وإذا كان مادّياً ويريد المجيء من عالم القوة إلى عالم الفعل فتلك الفعلية تسعى في القوة بشكل ضعيف من خلال التدبير لكي تفتح ما هو ضعيف في طينته ، وتلك القوة التي قادت هذه القوة إلى الفعل ، والنور الذي يعرّف هذه القافلة بمقصدها ، والضياء الذي يهدي هذه القافلة إلى طريقها ، ذلك النور وذلك الدليل وذلك المبدأ هو الهادي الذي ـ ووفقاً للنظام الغائي ـ يوصلها إلى أهدافها الوسطية

حتى يرشدها إلى آخر الآخرين الذي هو الهدف النهائي لجميع الموجودات . وهو يوجد كل شخص ويتخذه عبداً بمقدار ويجذبه إليه بمقدار ما يملك ذلك الشخص من وسع ﴿ ثم هدى ﴾ وبالرغم من أنّه قد طُرحت هنا مسألة الربوبية إلا أنه يخطر في الذهن ما يلي : أنّ موسى الكليم سلام الله عليه قد قال في مقام الاحتجاج : « ربّي هو الله الذي خلق كل شيء وهو رب العالمين » فطرح « ربّ العالمين » لا « هادي العالمين » ، والحد الأوسط هو ربوبية الكل التي هي في النظام الفاعلي لا هادي الكل الذي يوجّه النظام الغائي ، ولكن بما أنه أمر بهداية فرعون وأمّته وكان يكلّمهم ليهديهم ويدعوهم إلى هدفهم النهائي لذا قال : ﴿ ثم هدى ﴾ فهذا النظام الغائي وهذه الهداية ليست بمعنى أن يسوق كل موجود إلى الهدف من الخلف ، لا وإنما يجذبه من الأمام . وليس الهادي بمعنى ذلك الذي يتحرك لينقل معه القافلة ، ولا بمعنى أنه بحركته يحرك المتحرك وإنما هو يقود القافلة السائرة مع العشق والمحبة والشوق والميل إلى الهدف والشوق هو الذي يشدها .

والمحبوب يخلق الحركة دون أن يتحرك من الثابت في الفلسفة الإسلامية بشكل جيد أن المحرك على قسمين : القسم الأول : المحرك الذي يتحرك لكي يعطي الحركة . والقسم الثاني : المحرك الذي يهب الحركة مع هدوئه ، فثباته يجلب الحركة . والمحبوب يؤمّن حركة محبّه دون أن يتحرك ويشد المحب إلى جهته دون أن يتحرك ، العالم الذي يسير بالمحبة لا بالقهر والقسر ، والعالم الذي يدار ويُدبر أمره بالحب لا بالقهر ، وذلك المبدأ هو الذي أوجد الشوق المحرك في هذا العالم والكل يلوون الرقاب إليه ويطلبونه . وهو يهدي بحيث « لا يجري عليه الحركة والسكون » . وقد بُيّن هذا الموضوع بصورة جيدة في البحوث الموضوعية

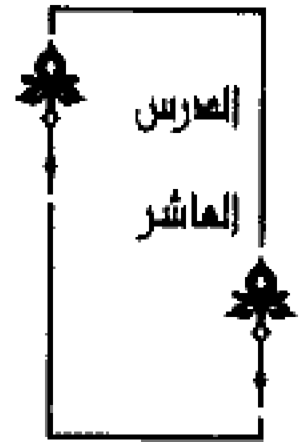
لنهج البلاغة . يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة التوحيد الطويلة : « لا يجري عليه الحركة والسكون » فالله ليس ساكناً ولا متحركاً ، لأنّه ليس له جرم ولا مادة ، يعمل ولكن بلا حركة « فاعل لا بالحركة » فإذا كان المحبوب يحرّك محبّه دون أن يتحرك ، وإذا كان الكمال يحرّك المستكمل من دون أن يتحرك ، وإذا كان العلم بدون أن يتحرك ، يجذب المتعلم إليه ، فالله هنا يمنح الحركة لقوافل الوجود من غير أن يتحرك « فاعل لا بحركة » والله الهادي خلق جميع الأشياء وجهّزها جميعاً ودعاها جميعاً . فهو هادي الكل ، إذ أنه فاطر الكل والحكيم بالنسبة للكل فمن لحاظ النظام الفاعلي حيث نذهب إلى أعلى نصل إلى الله ، وفي النظام الداخلي والتنظيم الداخلي عندما نفحص الأشياء ، نجد الله ونصل إلى الله ، وكذلك في النظام الغائي عندما نفحص نصل إلى الله : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾[1] والقرآن الكريم نور وحكمة وبرهان ﴿ **وشفاء لما في الصدور** ﴾[2] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٧.



الله تعالى قائد كل حركة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

للتوحيد في نظر القرآن الكريم طرق كثيرة ، وقد طُرحت بعض هذه الطرق في الجلسات السابقة ، وكان الذي طرح في الجلسة السابقة هو : أنّ أفضل الطرق لقبول التوحيد هو برهان النظم .

ويعرّف القرآن العالم بأنّه موزون ومنظّم وينتهي إلى ثلاثة أقسام ، وكل من هذه الأقسام الثلاثة له نظام خاص ، وجمع هذه الأقسام منظّم أيضاً :

١ ـ قسم النظام الفاعلي .
٢ ـ سلسلة النظام الداخلي .
٣ ـ حلقات النظام الغائي .

ويثبت قانون العلية في قسم النظام الفاعلي أن كل موجود لم يوجد من قبل نفسه يحتاج إلى علّة فاعلية ، وتنتهي أقسام العلل الفاعلية إلى العلة

الأولى والمبدأ الموجِد للموجودات الأخرى ، وهو الله . وفي قسم النظام الفاعلي لم تجعل أي فقرة في غير موضعها ، فلا يجعل المؤخّر مقدّماً ولا المقدّم مؤخّراً .

وإذا لم تصل أي علة إلى نصاب تماميتها فلا يمكن أن يتحقق ذلك الشيء ، وعندما تصل العلة إلى نصاب تماميتها فلا يتخلّف ذلك الشيء . ولا يوجد في قسم النظام الفاعلي تخلّف ولا اختلاف ، فلا يمكن أن تأتي العلة ولا يأتي المعلول ، ولا يمكن أن يأتي المعلول مختلفاً ، فيأتي هذا المعلول في زمان ومعلول آخر في زمان آخر . أو أحياناً هذه العلة وأحياناً علّة أخرى .

والأمر في سلسلة النظام الداخلي كما بيّناه أعلاه ، أي أن الأدوات والأجزاء والأعضاء الداخلية لأي موجود مخلوقة بشكل موزون ومناسب ومعتدل بحيث لا يوجد فيها أي فطور ولا أي حالة لعدم التنظيم ولا أي اختلال ﴿ **الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾[1] كل شيء خلق فقد خلقه جميلاً .

وأما حلقات النظام الغائي فقد كانت بهذا الوضع : أنّ لكل موجود هدف خاص ومقصد معين يتّبعه ، وهذه الأهداف والمقاصد ليست أهدافاً ذاتية ونهائية لأنها ليست كمالاً محضاً وليست كمالاً لا محدوداً ولا تستطيع أن تكون الهدف الأخير . والهدف الأخير هو الكمال اللامحدود والكمال المحض الذي يقصد الجميع إلى جهته وهو الله . إذ أنه في سلسلة النظام الفاعلي أيضاً يصدر الجميع عن مبدأ هو الوجود المحض والذي وجوده عين ذاته وهو الله . وخلاصة بحث الجلسة السابقة قد أوجز في هذه الآية الكريمة

(١) سورة طه، الآية: ٥٠ .

من سورة الحديد ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾[1] .

وقد بيّن بصورة جيدة في الجلسات التي كان مدار البحث فيها تسبيح الموجودات أنّ آيات القرآن الكريم على طوائف عدّة . فقد طرحت بعض تلك الطوائف تسبيح الرعد والملائكة ﴿ **ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته** ﴾[2] وطرح بعضها تسبيح الإنسان ، وبعضها الآخر تسبيح السماوات والأرض وأمثال ذلك . والآية الجامعة التي ذكرت تسبيح جميع عالم الخلقة الدائم هي آية في سورة الإسراء ، فقال بعد بيان تسبيح السماوات والأرض : ﴿ **وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده** ﴾[3] .

وآيات القرآن في برهان النظم على عدّة طوائف أيضاً فبعضها قد تصدّى لطرح النظام الفاعلي ، وطرح بعضها النظام الداخلي للأشياء ، وبيّن بعضها النظام الغائي . ولكن الآية الجامعة والكاملة التي تُفهم هذه الأنظمة الثلاثة وتحصي كل واحد منها هي الآية التي تحكي احتجاج موسى الكليم سلام الله عليه في مقابل فرعون ، يقول : ﴿ **ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾[4] فقد بيّنت هذه الآية النظام الفاعلي والنظام الداخلي بصورة المطابقة والإلتزام . كما بيّنت النظام الغائي أيضاً بصورة المطابقة . فإذن كل الأشياء قد خلقها الله ، وكل شيء خلقه الله خلقه جميلاً ، وهو يقود الجميع إلى مقاصده .

ولكن بالإضافة إلى هذه الآية الجامعة توجد آيات أخرى تبين مسألة النظام الغائي ، وتوضّح أهداف موجودات العالم ، وتقرع الأسماع بطاعة

---

(١) سورة الحديد، الآية : ٣ .
(٢) سورة الرعد، الآية : ١٣ .
(٣) سورة الإسراء، الآية : ٤٤ .
(٤) سورة طه، الآية : ٥٠ .

عالم الخلقة للقيادة والإرشاد . وبما أنّ القسم المهم من هذه الوقائع قد طرح حول الإنسان والهدف من نزول القرآن هو رشد الإنسان ليتحرك الإنسان بواسطة القرآن من الظلمات إلى النور ، فقد جاءت الآيات حول النظام الفاعلي والنظام الداخلي والنظام الغائي بخصوص الإنسان . وقد طرح من قبل ما يتعلّق بالنظام الداخلي والنظام الفاعلي . وسنبيّن ما يتعلق بالنظام الغائي ويتبعه مجريات المعاد والنظام الهدفي وما يوضح امتلاك الإنسان للهدف ولكن قبل الدخول في تحليل النظام الغائي للإنسان وأن الإنسانية لها هدف ويجب أن تسعى إليه نطرح آية حول كل الحركات التي بيّن القرآن امتلاكها للهدف لنصل بعد ذلك إلى هدف خصوص الإنسان .

يقول في سورة هود : ﴿ **إنّي توكّلت على الله ربّي وربّكم** ﴾[1] هو وكيل أعمالي وقد اعتمدت عليه لأنّه مدبّر شؤوني وشؤونكم ، ويجب أن يعتمد ويتوكل المربوب على ربّه كما بُيّن في الأبحاث السابقة أنّ الله أسند التوكّل إلى الخلقة ، وقد مرَّ شرحه مفصّلاً ، يقول : يجب التوكل على الله لأنّه خالق كل شيء ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾[2] ﴿ **وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾[3] أو ﴿ **وهو على كل شيء وكيل** ﴾[4] ، يقول : بما أن الله خالق كل شيء فهو وكيل كل شيء ، وهو خالق كل شيء فيعلم كيف يربّيها ، ووكالة الشيء إنما يأخذها بعهدته ذاك الذي خلقها ، وجبت أن ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ ﴿ **وهو على كل شيء وكيل** ﴾ . إذن فجميع الأشياء تتوكل على الله . وإذا أراد الإنسان التوكّل على غير الله فإنّما يسبح خلاف النظام ، ولهذا لا يصل إلى نتيجة ، وهو لا يستطيع أن يعتمد لا على نفسه

---

(١) سورة هود، الآية: ٥٦ .
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٦ .
(٣) سورة يوسف، الآية: ٦٧ .
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٢ .

ولا على غير الله .

وإذا ترك الإنسان ونفسه واعتمد عليها أو اعتمد على غير الله فالاعتماد على غير الله سقوط ، لأنّ الله ربّ . فإذن يجب التوكّل على الله ، ولأنّ الله خالق فيجب التوكل عليه ، ولذا قال : ﴿ إنّي توكّلت على الله ﴾[1] وقد ذكر دليله إلى جانبه : ﴿ ربّي وربّكم ﴾ يجب التوكل على الله لأنّه ربي وربكم ولهذا اعتمدت على الله . وقد كان هذا صدر الآية ، وأما ذيلها فيقول : ﴿ ما من دابّة إلاّ هو آخذ بناصيتها ﴾[2] أي أنّ الله قائد كل متحرك ، والهادي والفاتح للطريق والدليل لكل متحرك هو الله . والله هو الذي يهدي كل متحرك إلى هدفه ، ويوصل كل مسافر بنور الهداية الإلهية إلى مقصوده ، ويعرّف كل سالك بنور الهداية الإلهية إلى مقصده .

وهنا يستدل أيضاً ﴿ إنّ ربّي على صراط مستقيم ﴾[3] مسألة التوكل غير مسألة الهداية ، إذ يرتبط التوكل مع الربوبية والخالقية ، بما أنّ الله هو ربّ وخالق ، إذن يجب التوكل عليه . بينما ترتبط مسألة الهداية بمسألة الصراط المستقيم ، يقول : بما أنّ أعمال الله على الصراط المستقيم (فليس فيضه على الصراط المستقيم فقط ، بل الصراط المستقيم عمله وفيضه وطريقه) وهدايته على الصراط المستقيم ، لذا يجب الاستفادة من هداية الله وإعطاء زمام الأعمال بيده ، يجب أن تودع زمام الأمور بيده . وذلك المرشد الذي يجري فيضه على الصراط المستقيم يجب أن يودع زمام الاهتداء بيده . ولذا ذكر هذا المدّعي إلى جانب ذلك الدليل . يقول : ﴿ ما من دابّة إلاّ هو آخذ بناصيتها ﴾ جبهتها وجبينها بيد الله . وإذا كانت هذه الناصية وهذه

---

(١) سورة هود، الآية: ٥٦ .
(٢) سورة هود، الآية: ٥٦
(٣) سورة هود، الآية: ٥٦

الجبهة والوجه وهذا الزمام ووجه الروح بيد من ليس على الصراط المستقيم فهو زمام كاذب ورسن كاذب ووجه باطل وقيادة كاذبة . ولذا يقول : ﴿ لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة ﴾[1] ، وذلك الوجه والجبهة والجبين الذي لم يودع عند أصحاب القلوب فهو زمام كاذب .

وذلك الذي في جبهته أثر السجود ولكنه ليس موحداً كاملاً ولم يصقل جبهته بالإخلاص والخضوع وليس له صلة مع خلوص هذه الجبهة ، فذلك الجبين كاذب وكل من كانت وجهة روحه إلى جهة الباطل فهو وجه كاذب ﴿ لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة ﴾ تكون تحرّكات ناصيتهم صادقة إذا كانت بيد الله . وكل الدواب على الأرض أو الطيور في الفضاء كل منها أمّة ولها إمام ولها مقصد وهدف .

وتنتهي قيادة سلسلة هذه المقاصد وأئمة الأئمة بالله . وإذا كان قد قال في سورة هود : ﴿ وما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها ﴾ فقد قال في سورة الأنعام : ﴿ ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم ﴾[2] وليس في كتاب التكوين إفراط ولا تفريط : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾[3] وحينئذ فجميع هذه القوافل الفضائية والأرضية وجميع الموجودات الأرضية والسماوية جميعاً وجميعاً ﴿ ثم إلى ربّهم يحشرون ﴾ يحشرون إلى الله في يوم الحشر الأكبر ، هدفهم النهائي هو الله . إذن فجميع هؤلاء لهم زمام بيد صاحب الزمام وبيد قائدهم ومحرّكهم وهو الله .

وقد عرضنا في الجلسة السابقة أنّ المحرّك على قسمين : القسم الأول

(١) سورة العلق، الآيتين: ١٥ ـ ١٦ .
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

هو المحرك الذي يسير فيأخذ المتحرك معه في طريقه ، فيتحرك هو ليمنح الحركة للآخرين . والقسم الثاني : ذلك المحرك الذي يعطي بهدوئه الحركة للآخرين ويسعى الآخرون للوصول إلى سكونه . ويحرّك المحبوب المحب من غير أن يحرك يداً أو ينقل خطوة ، ويعلّق المحبوب سلسلة الحركة برقبة المحبّ بلا سعي منه ولا جهد .

ويحرّك المقصد الأعلى قافلة المحبّين دون أن تصدر منه حركة أو مقاومة والجميع متعلّقة قلوبهم بهذا المحبوب النهائي وسائرة إليه ﴿ **ثم إلى ربّهم يحشرون** ﴾[1] وهذا بيان جامع في هدفية كل الموجودات . وقد طرح القرآن الكريم هدفية الإنسان وامتلاكه لمقصد معين بصورة مستقلة ومنفصلة ، أي أنّه بيّن قسم النظام الغائي حول الإنسان بشكل منفصل ومكرّر . ففي سورة ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾[2] . يقول : لا يظن الإنسان أنّه عبث وبلا هدف ﴿ **أن يترك سدى** ﴾[3] يظن الإنسان أنه خُلق عبثاً وسدى وبلا فائدة ، من غير أن يكون على أثر هدف معين ومن غير أن يتّبع مقصداً معيناً ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ وليس له هدف يقتفي أثره وليس هناك حساب وكتاب .

ويظن الإنسان أنّه يفنى بالموت وأن نهاية وجود الإنسان بالموت . ألا يعلم بأنّ الموت ممرّ لدخول البرزخ والقيامة . أو يظن أنّه سيكون عبثاً وبلا فائدة ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ وليس في البين نظام غائي ، ويتصوّر بأنّ الإحياء المجدّد صعب ومن المتعارف أنّ القرآن الكريم حينما ينقل كلام منكري المعاد إنّما ينقله على حد التعجب والاستبعاد ، فهم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٢) سورة القيامة، الآية: ١ .
(٣) سورة القيامة، الآية: ٣٦.

يعدّون القيامة أمراً بعيداً ولم يقيموا برهاناً على امتناع المعاد ويقولون : أنّه لمن العجب أن يعود الشيء الذي صار تراباً حيّاً مرة أخرى ، ويقولون : هل من الممكن أن يتجمع الشيء الذي ذهب من البين بحسب الظاهر وتشتت ذرات بدنه حيّاً مرة أخرى ؟ ﴿ **إذا مزقتم كل ممزّق إنّكم لفي خلق جديد** ﴾[1] يقول بعضهم لبعض : جاء شخص يدّعي ويقول : عندما تمزقون وتتفرقون وتتناثرون وتتفسخ أبدانكم وتتفصّل وتتلاشىٰ تعودون أحياء مرة ثانية .

ومدّعي المعاد هذا إمّا يكذب على الله أو هو مجنون ﴿ **أفترى على الله كذباً أم به جنّة** ﴾[2] وما يقوله منكروا المعاد ليس إلّا مجرّد تعجّب واستبعاد ولم يقيموا برهاناً . وكان كلام الكفّار في سورة سبأ هو : ﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنّكم لفي خلق جديد * أفترى على الله كذباً أم به جنّة** ﴾[3] إمّا هو مجنون أو عاقل يريد أن يستفيد بشكل غير مشروع وينسب الكذب إلىٰ الله . ويجيبهم القرآن : ﴿ **بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد** ﴾[4] لأن إنكارهم كان مجرّد تعجبٍ وبلا دليل . ويقول في سورة القيامة : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ على ماذا يتعجّب الإنسان المنكر للمعاد ﴿ **ألم يك نطفة من مني يمنىٰ** ﴾ ألم يك الإنسان قبل هذا قطرة ماء فصار على هذه الصورة ؟ إلا أن يكون هو الذي صنع قطرة الماء هذه على هذه الصورة ؟ ﴿ **هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء** ﴾[5] وهو الذي تتحرك القوافل العلمية

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٧.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٨.
(٣) سورة سبأ، الآيتين: ٧ ـ ٨.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٨.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٦.

البشرية على أثره لتصل إليه ولا يزال إلى الآن لديهم عدد لا يحصى من الألغاز لم تحل ، ومع أنهم في جد واجتهاد دليل نهار لمعرفة جهاز الإنسان الداخلي وتطبيبه من الأمراض وتحضير الأدوية اللازمة لذلك ، ومع ذلك فإنّ الذي لا يعرف عدة أضعاف ما يعرفونه .

(ترجمة شعر)

لنظهر شمة من فقرنا فالله هو الغني ونحن المحتاجون .

ولذا يقول في سورة القيامة : ﴿ **ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوّى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾[1] .

أليس الله الذي جعل قطرة واحدة بهذه الصورة وأعطاه نظاماً داخلياً ، ونظم خلقه على ذكر وأنثى ليبقى النسل ويكوّن نظامه الاجتماعي . فمن أجل بقاء الشخص جهّزه بمثل هذا النظام الداخلي ، ومن أجل بقاء النوع أحكمه بمثل هذا النظام الخارجي ، أليس قادراً على إحياء الموتى ؟!

وذلك الذي وهب الحياة ألا يستطيع أن يجمع المتشتتات ويوصلها إلى هدفها ؟ ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ وقد كانت الآية التي مفادها : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ تتردد على لسان علي بن أبي طالب عليه السلام في أثناء الفلاحة والزراعة وأمثال ذلك وأولئك الذين يقومون بأعمال بدنية لهم ترنمات عادة يقومون بها لرفع التعب ، وقد كان ترنم أمير المؤمنين علي عليه السلام بهذه الآية : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ أيظن الإنسان أن يُهمل ولا يقوم ثانية من تحت التراب وليس له هدف . فكل هذه البذور التي بُعثرت لها مقصد وترفع رأسها من التراب مفتشة عن

---

(١) سورة القيامة ، الآيات : ٣٧ ـ ٤٠ .

مقصدها . فهل الإنسان واقف بلا هدف ولا مقصد ؟ كلا فالأمر ليس كذلك .

وأمّا الآية الأخرى التي كان يتلوها رسول الله سلام الله عليه فهي : « سبحانك اللّهمّ وبلى »[1] أي : اللهمّ إنّك منزّه عن كل نقص وعيب وتستطيع إحياء الموتى .

وهذا الهدف النهائي الذي يسعى الإنسان إليه هو الوصول إلى ذلك العالم ، وكمال الإنسان هو في الوصول إلى عالم القرار ومن ثم السكون . هدف الإنسان هو الوصول إلى العالم الذي ﴿ **لا لغو فيها ولا تأثيم** ﴾[2] ليس هناك عمل مخالف وباطل . وإن يجد طريقاً إلى العالم الذي لا تعب فيه . إلى العالم الخالي من الباطل والكذب ، إلى العالم الذي لا موت فيه ، ولا طريق للجهل إليه ، وليس للبغض والحسد طريق إليه ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾[3] وليس للغل هناك طريق لأنّه شهود محض . الإنسان عاشق لهذا الهدف ، والإنسان طالب لهذا المقصد العالي والمقصود السامي ، ولهذا يقول في سورة صاد حيث يبين أن كل نظام الخلقة واجد للنظام الغائي : لا يظن الإنسان أنّه باطل وعبث لأنّ نظام الخلقة ليس نظاماً باطلاً . وقد مر في سورة صاد والتي مرّ بحثها في الجلسات السابقة قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾[4] وبما أنّ الله حق فهو لا يعمل عملاً باطلاً . والخلق بلا هدف باطل ، وليس لله عمل باطل . فالخلق إذن ليس بلا

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٧.
(٤) سورة ص، الآية: ٢٧.

هدف . والحد الأوسط لهذا البرهان هو كون الله حقّ ، كما أنّ الحد الأوسط في البرهان الآخر الذي جاء في عقب هذه الآية هو كون الله حكيماً وعادلاً فيقول : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار** ﴾[1] لا يساوي الله العادل أبداً بين الإنسان المفسد والإنسان المتّقي . وإذا لم يكن هناك هدف ولا قيامة ولا حساب وكتاب ولا ثواب وعقاب . إذا كان الأمر بشكل لو مات المتقون ذهبوا ، ولو مات الفجّار ذهبوا ، ولا خبر بعدها ، وهم لم يتقاضوا حسابهم في الدنيا أيضاً ، ولا خبر أيضاً بعد الموت ، فيصير الجميع سواسية ، وهذا لا ينسجم مع الحكمة والعدل الإلهي . فلا بدّ من وجود عالم يفصل بين صف المجرمين وصف المتقين ويقال فيه ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾[2] فيأمر هناك بفصل صف المجرمين عن صف المتقين . ثم يضيف ـ في سبيل بيان أن للإنسان في النظام الغائي هدف وأنه يجب أن يسعى إلى ذلك الهدف ـ قائلاً : ﴿ **أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً** ﴾[3] أتظنون أنكم جئتم عبثاً ؟ تولدون لتموتون ؟ أم تولدون لتتحركون وتهاجرون ؟ فهل وجد هذا الموجود ليفنىٰ بالموت وليس ثمة عودة ورجعة إلى الله ؟ ﴿ **أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً** ﴾ هل يعمل الله الحكيم عملاً عبثاً وبلا فائدة ؟ وهل خلق الإنسان ليبقى في الدنيا فقط ، ولا يكون مسؤولاً على أعماله ؟ ﴿ **وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾[4] لا ترجعون إلينا ؟ ولا رجوع لكم إلى مبدئكم ؟ هذا عبث ، والله الحكيم منزّه عن العبث ، وإن كنتم تعتقدون بأنّ لكم هدفاً وهو ذلك الكمال اللامحدود الذي هو مصدر الهدوء والسكون . وإذا اتضح هذا

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٨ .
(٢) سورة يس، الآية: ٥٩ .
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥ .
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥ .

لكم هذا الأمر فتتحركون إلى جهة الكمال اللامحدود . وحينئذٍ لا تقتنعون بشيء لا يكون هو الوجود المحض ، ولا ترضون بشيء لا يكون وجوده أبدياً ، ولا تتعلّق قلوبكم بالحياة التي لا ترتبط بالحياة الأبدية والدائمية لله .

وستسعون عند وصولكم إلى أي درجة إلى أن تجتازوها وتجعلوها خلف ظهوركم لأن ﴿ **وأن إلى ربّك المنتهىٰ** ﴾[1] ولهذا لا يوجد أي عبث أو لعب ، وكل ذلك قد منعه القرآن الكريم عند تبيين النظام الغائي للخلقة . ولكن الأشخاص الذين هم على أثر هذا الهدف النهائي قليلون . ولكنهم قطعاً في ذكر هذا الهدف النهائي في جميع حالاتهم ، وبفكر هذا المقصد الأعلى في جميع أطوارهم ، سواء كان في حال النوم أو اليقظة ، وسواء كان في حال الجلوس أو القيام ، أنهم في ذكر هذا الهدف في جميع الحالات ، لأنّ هذا الهدف هو نفس المبدأ . ويوجد هذا الهدف في الشخص السعي والجاذبية لطلبه وما دام الإنسان لم يعرفه ولم يرده فسوف لا يأتيه جذب من تلك الجهة وإذا لم يأتِ الجذب من هذه الناحية فلن يصل سعي الإنسان إلى نتيجة . وإنما يصل السعي المتحرك إلى نتيجة حينما يكون جذب الهدف من نصيبه لأنّ ذلك الهدف النهائي هو نفس ذلك المبدأ الأول . والعقلاء مشغولون بالتفكير بالمبدأ والمعاد ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾[2] .

وفي أواخر سورة آل عمران يقول في وصف العقلاء : ﴿ **إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾[3]

---

(١) سورة النجم، الآية: ٤٢ .
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١ .
(٣) سورة آل عمران: الآية: ١٩٠ .

وأصحاب الألباب هم أولئك الأشخاص الذين هم في جميع أحوالهم بذكر الله وحتى صلاتهم لها حالات مختلفة لأن المصلّين على عدّة مجموعات فبعضهم وقوف وبعضهم جلوس وبعضهم نائمون على جنوبهم ، وقد استنبط واستدل من هذه الآية على الحكم الفقهي كما على الحكم الأخلاقي .

والعاقل هو مَنْ كان في كل أحواله ذاكراً لمبدأه ، لأنّه يريد أن يكون المبدأ ذاكراً له في جميع أحواله . يقول الله تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾[1] وإذا كان الله بذكر الإنسان يعني أنّ الله الذي هو الرحيم المحض كان بذكر الإنسان ، فالرحمة التي صارت من نصيب الإنسان بسبب ذكر الله وأصبحت مفتوحة في وجهه لا يمكن أن تُغلق مهما كان السبب ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها** ﴾[2] وهو الذي ﴿ **وما يمسك فلا مرسل له** ﴾[3] إذا أغلق الله باباً فلا يستطيع أحد فتح ذلك الباب أو إطلاق ما أمسكه الله .

وإذا كان الله القدير بذكر إنسان فسيتمتع ذلك الإنسان بالقدرة ، وإذا كان الله العليم بذكر إنسان فسيستفيد ذلك الإنسان من العلم ، وإذا كان أرحم الراحمين بذكر إنسان فسيتمتع ذلك الإنسان بالرحمة الخاصة ، وإذا كان الله الحي الذي لا يموت بذكر إنسان فسيتمتع ذلك الإنسان بماء الحياة ولا يموت أبداً ، ومن ثم فسوف يحيي قلبه بمحبّة ومعرفة الله .

فالعاقل إذن من كان في كافة شؤونه بذكر الله لأنّه يميل إلى أن يذكره الله أيضاً في كافة شؤونه ﴿ **ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢ .

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢ .

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢ .

خلقت هذا باطلاً ﴾[1] ربّنا إنّ هذا النظام ليس باطلاً لأنّه في قسم النظام الفاعلي بيدك ملكوت كل شيء ﴿ من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ﴾[2] وفي قسم النظام الداخلي حلقات هذا النظام بيدك ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ ﴿ ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ خلقه جميلاً وأعطاه أيضاً كل ما يحتاجه في تكامله . ويوجد قسم نظام آخر باسم قسم النظام الغائي ، هدفية العالم ، وجود هدف له ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ ، ويقول في سورة صاد : ﴿ ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾[3] وفي سورة آل عمران لحن عباد الله الحكماء هكذا يكرّرونه : ﴿ ربّنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ العمل الخالي من الهدف باطل . يقول الله : العالم له مقصد ، ويقول العقلاء : العالم له هدف . وما يقوله الحكماء هذا قد تعلّموه من الله الحكيم ، لأن الله أعطى قلباً وأعطى عقلاً أيضاً ، خلق ظرفاً وخلق مظروفاً أيضاً ، خلق الروح وخلق حياة الروح أيضاً ، باسم رب الروح والعقل . وإذا كان فردوسي ، هذا الحكيم الشيعي المعروف ، خاطب الله باسم خالق الروح وخالق العقل ، وقد بدأ بالكلام باسمه المعروف ، فإن عارف شبستر المشهور يقول : باسم ذاك الذي علّم الروح الفكرة . وأشار إلى ثلاثة مطالب . وأنشد أدق ممّا أنشده فردوسي إذ يقول هو : باسم ذاك الذي علّم الروح العقل والتفكير والفكرة . فليس الله خالق الروح وحدها ، وليس الله خالق العقل وحده ، بل إرشاد الإنسان بالعقل وإفاضة العقل بالروح أيضاً بعهدة الله ، حتى لا يقول أحد بعد ويتوهم أن هذه الروح خلقها الله ، والعقل خلقه الله ، ولكن الروح سعت فوصلت إلى العقل . كلا فهذا الجذب والسعي ، وهذا التعلّم والتعليم هو مجرى فيض

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٧.

الله أيضاً « باسم ذاك الذي علّم الروح الفكرة » .

وعلى هذا فإنما هو كلام الله نسمعه من لسان عبده ﴿ **ربّنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾ ورسول الله الأوحدي الذي وصل من بين عباد الله إلى تلك الدرجة التي لم يصل إليها أحد . وبتعبير شيخ شبستر وعارف العلم والحكمة المشهور : « من أحمد إلى أحد الفرق هو ميم واحدة (الله أحد ورسول الله أحمد) وقد غرق كل العالم في هذه الميم » .

وكان رسول الله ينشد هذا اللحن الإلهي قبل صلاة الليل وفي الأسحار ويقول : ﴿ **ربّنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾ وحينئذ يتوجّه إلى صلاة الليل . في البدء التفكير والصيرورة عاقلاً وموحداً ومن ثم الصيرورة عابداً. الأول التفكير، ثم يصير عاقلاً، ثم يصير موحّداً، ثم يصير عابداً. وليس للبطلان طريق في أي جهة أو ناحية كما أنه ليس له طريق إلى أعمال الإنسان أيضاً ﴿**ربّنا ما خلقت هذا باطلاً**﴾. وأمّا الأجانب فهم خارجون عن هذا المسير، فما لم يروا الضغط (البلاء) فلن يكونوا ذاكرين لله، لا في حال الوقوف ولا في حال الجلوس ولا في حال الاسترخاء على الجانب، وعندما يحسّون بالألم ويقعون في المحنة فحينئذ يذكرون الله وحينئذ باسم الله . وأنتم تلاحظون في سورة يونس أنه قد طرحت آية مقابل هذه الآية أنه إذا ابتلي عدّة منهم ووصلهم بعض الألم هنالك دعوا الله لجنوبهم أو وهم وقوف أو جلوس ﴿ **دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً** ﴾[1] فحينئذٍ يوقظه الألم إذ حس الاستيقاظ غير موجود فيه. وذاك الذي يستيقظ بالألم ليس من أهل اليقظة، بينما ذاك الذي يستيقظ بالتفكير والمحبة فسيكون يقظاً دائماً «أليس من نومك يقظة»[2] علي عليه السلام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة يونس، الآية : ١٢ .

(٢) نهج البلاغة فيض الإسلام: ص ٧٠٨.

الدرس
الحادي
عشر

معرفة المعايير الأخلاقية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

عندما يشرح القرآن الأهداف الرسالية يقول : بُعث الأنبياء وخصوصاً خاتمهم ﷺ ليهذّب الناس ويزكّيهم ليتطهّروا ويهبهم الرشد . ويعدّ تهذيب النفس وتزكيتها من أهم الأهداف الرسالية ، وسيتضح ذلك عندما تطرح مسألة الأخلاق وهدف الأخلاق ودرجات الأهداف الأخلاقية ، والأخلاق قابلة للتغيير وقابلة للتبديل والتحويل ، فيمكن تحويل الخُلق إلى حدّ ما ، ويمكن إصلاح الملكات النفسانية إلى حدود معيّنة ، وإلا لما كان الأنبياء مأمورين بإصلاح النفوس . ولما كان للقوانين الإلهية دور فعّال . الصفة التي في طبيعة الإنسان والتي يستطيع الإنسان بواسطتها أداء العمل بسهولة تُعدّ ملكة خلقية ، سواء كانت في الفضيلة ، أو الرذيلة . فالإنسان بما عنده من صفة نفسانية والتي يستطيع معها بسهولة أداء العمل المناسب لتلك الصفة يُعدّ صاحب خُلق خاص ، ولكي يقود هذا الخلق في الطريق الصحيح وينظّمه بصورة صحيحة . ولكي يرى المتخلق بهذا الخلق الهدف

بصورة صحيحة ويخطو باتجاه ذلك الهدف السامي . فقد طرح الدين خططاً وبرامج بنّاءة وعميقة . وللأخلاق أهداف متفاوتة نتيجة للنظرات الفلسفية المختلفة للعالم والفروق الكثيرة بين مراتب المعرفة المتنوعة فيما بينها .

والقسم الأول : هو أن يجعل الإنسان أهدافاً مادية للفضائل الأخلاقية أي أنه يجعل أهدافاً إجتماعية للصيرورة عالماً أو عادلاً أو شجاعاً أو قانعاً أو عفيفاً وأمثال ذلك ويقول : فائدة العلم هو أنّ العالم يتمتع بحرمة خاصة بين الناس ، أو أن فائدة فضيلة العدل هو أنّ الإنسان العادل يتمتع باحترام خاص في المجتمع ، أو أنّ فائدة القناعة هو أنّ الإنسان القانع يعامل من الناس بكرامة ، وأمثال ذلك . فيكون هدف الفضائل الأخلاقية لهذه المجموعة هو أن الإنسان المتلبّس بهذه الفضائل يكون وجيهاً بين الناس . وهذا هو القانون الأخلاقي في المدارس المادية . وهو موجود أيضاً بين بعض أفراد الناس العاديين الذين مقصودهم من التوفر على الأخلاق الحسنة هو أن يتمتع الإنسان بعزّة خاصة بين الناس ويصبح صاحب اسم في المجتمع ومرفوع الرأس في التاريخ ، وتكون له كرامة أيضاً عند الأجيال القادمة ، وبهذا المسلك وبهذه الطريقة يسعى الإنسان خلف بعض الفضائل الأخلاقية ويختار هذا الطريق لنيل الأهداف الاجتماعية والمادية والعادية .

والقسم الثاني : الهدف الذي طرحته الكتب السماوية وسعى الأنبياء السابقون لتحصيله ، وحثّوا الناس على تحصيل الفضائل الأخلاقية للوصول إليه ، يقولون : إذا صرت عادلاً وقانعاً ومضحياً في سبيل العقيدة الدينية وعفيفاً وطاهراً وصادقاً وتقياً فستدخل الجنة وتبتعد عن النار ، وأداء الوظائف الدينية يوصلك إلى الأخلاق الحسنة ، وبالتخلّق بالأخلاق الحسنة ستتمتع بالجنة . ونرى هذا المسلك الثاني في الأديان السماوية ، وقد طُرح أيضاً في القرآن الكريم ، وتوجد شواهد له في كلمات المعصومين عليهم السلام

وسعيهم بترغيب الناس بالجنة وتخويفهم من النار عن طريق الالتزام بالفضائل الأخلاقية .

والقسم الثالث : الهدف الذي طرحه القرآن الكريم بعنوان أسمى الأهداف الأخلاقية وهو أن يكتسب الإنسان الفضائل الأخلاقية لا لأجل الجاه والاحترام الاجتماعي ، ولا من أجل أن يكون من مفاخر التاريخ ، أو أن يكون صاحب كرامة بين الأجيال المقبلة ، ولا من أجل أن يكون محترماً في عيون الناس ، وكذلك لا من أجل أن يتمتع بنعيم الجنان ويبتعد عن عذاب النيران ، بل أن الأخلاق الجميلة والفضائل النفسانية تهيّيء الإنسان لتكون روحه في رتبة أسمى من الشوق إلى الجنة أو الخوف من النار ولا تكون في حدّ الرغبة والخوف والرهبة واللذّة والألم . فلا شيء يسرّها ولا شيء يؤلمها ، فلا تستلذ بشيء ولا تتألم من شيء ، لأن روحه قد ارتفعت إلى درجة لم تعد تحت سيطرة أسباب الفرح أو أسباب الحزن ، وسمت روحه إلى درجة لم تستطع أسباب السرور أن تترك أثراً في قلبه أو أن تجد أسباب الحزن إلى قلبه طريقاً . ووصلت روحه إلى درجة عالية بحيث تحررت من هيمنة وتأثير أي سبب . وهذا الإنسان الكامل لا يكتسب الأخلاق من أجل أن يكون محترماً بين الناس فقط أو من أجل الجاه التاريخي ، بل لا ينقل خطوة في تحصيل الفضائل الأخلاقية من أجل الفوز بالجنة والفرار من النار ، وليس إلاّ من أجل أن يكون مظهراً لذلك المبدأ الذي تتمثل فيه جميع الفضائل الأخلاقية بصورة لا حدّ لها ولا نهاية ، ليس له حدّ اللّهمّ إلاّ حدّ « لا حدّ له » . وليس له أي علاقة اللهمّ إلاّ أنّه لا علامة له . ويعطي القرآن معالم هذا الطريق ويعرّفه بأنّه طريق الأوحدي من سالكي طريق الأخلاق .

وتوجد نماذج من المسلك الثاني والمسلك الثالث في القرآن

الكريم . وأمّا المسلك الأول فليس من طريق الدين لأنّه لا ينسجم مع التوحيد . فلم يأتِ الأنبياء لتهذيب الروح وتحصيل الفضائل الأخلاقية لنيل احترام المجتمع بحيث يكون الإنسان المتخلّق بها معزّزاً في نظر الناس أو يكون مكرّماً في التاريخ أو يكون وجيهاً في المجتمع ، بل لأنهم يؤدّون وظائفهم في طريق الله ويعلمون بأنّ الروح التي تسير في طريق الله هي روح كاملة . وأولئك الذين يفكرون بالطبيعة والناس والتاريخ ليس لهم هدف إلهي بالرغم من أنّ الله يجعل من له هدف إلهي مكرّماً ومعزّزاً بين الناس ويجعله عزيزاً في التاريخ ويجعل له لسان صدق . ولكن هذا الأمر غير أن يكون هدفه من التخلّق بالفضائل الأخلاقية جلب احترام الناس وتحصيل الوجاهة بين الناس . فالذي يعمل الخير يمنحه الله ألطافاً ، وبعض تلك الألطاف هو العزّة بين الناس ويجعل له لسان صدق ويكرمه في التاريخ وأمثال ذلك .

إذن فالأنبياء لا يقبلون الطريق الأول أبداً وهو أن يعمل الإنسان عمل الخير ليتمتع بين الناس باحترام خاص لأنّ هذا لا ينسجم مع التوحيد ولا مع تهذيب النفس وتزكيتها . ويكون غير منسجم مع التوحيد لأنّ جعل غير الله هدفاً يتنافى مع توحيد المبدأ الغائي ، ويكون غير منسجم مع تهذيب وتزكية النفس لأنّ انشغال الروح المجرّدة والروح الملكوتية بأحد الأمور المادية والملكية طريق انحرافي وهذا تحذير للنفس لا تهذيب النفس ، وهو إنشغال بالأمور الحقيرة لا بالأمور العالية . وقد نقل عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنّه يقول : « إنّ الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها » إنّ الله يحبّ الأعمال العالية والهمم العالية والأفكار العالية والأهداف العالية ، ويكره الهمم الحقيرة والأفكار التافهة والأهداف الرخيصة . إذن الطريق الأول طريق منحرف ، ومن الممكن أن يتّصف إنسان ما بالفضائل الأخلاقية

ليتمتع بمنزلة خاصة في التاريخ أو بين الناس ، ولكن هذا الطريق ليس طريق الأنبياء ، لأنّ الأنبياء يدعون إلى الله وهدفهم المباشر هو الله . والله يمنحهم البركات ومن الممكن أن تكون إحدى هذه البركات الاحترام والوجاهة الاجتماعية في الدنيا ، ويقول رسول الله : ﴿ **ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾[1] إذن الدعوة لغير الله بعيدة عن مسيرة رسالات الأنبياء . والهدف الرئيسي في المسائل الأخلاقية المسلك الثاني والمسلك الثالث في الأخلاق . فالإنسان المتخلّق بالأخلاق إمّا من أجل الوصول إلى الجنّة والابتعاد عن النار ، أو من أجل الوصول إلى مقام لا تصل له يد الجنة أو النار .

وقد وصل هذا البيان عن كثير من الأئمة المعصومين عليهم السلام حيث يقولون : العبادة على ثلاثة أقسام : قوم عبدوا الله رغبة في الجنة ، وقوم عبدوا الله خوفاً من النار ، وقوم عبدوا الله لأجل نيل ثناءه ولقاءه وحبّاً له ، لا رغبة في الجنة ولا خوفاً من النار . وهذه عبادة الأحرار[2] ، وهذا البيان لا ينحصر في العبادات بل هو جاء في جميع المسائل الأخلاقية أيضاً ، وإنّ كان اكتساب الفضائل الأخلاقية من الأعمال العبادية ولا يكون اكتساب الخُلق بلا عبادة وتحصيل الفضائل الأخلاقية غير متيسر بدون العبودية لله . وبناءً على هذا فالأخلاق هي العبادة بمعناها الواسع . ولكن العبادة بالمعنى الاصطلاحي هي في مقابل المسائل الأخلاقية .

والخلاصة أنّ تحصيل الأخلاق في الإسلام له طريقان :

الطريق الأول : أن يكون هدف الأخلاق والتوفر على الفضائل الخلقية لتحصيل اللذائذ في الجنة والفرار من النار .

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٢) نهج البلاغة: (صبحي الصالح)، ص ٥١٠.

والطريق الثاني : أن يكون هدف الأخلاق هو الوصول إلى مقام حب الله ولقاء الله ، أي الارتقاء إلى درجة أعلى من الجنة والنار ، وعدم الكون في مستوى التفكير بالنفس واللذة والحزن ، ولا في مستوى التفكير بالفرح والغم والوصول إلى درجة رقيعة ليس للغم والفرح طريق إليها ، إلى مقام يتحرّر الإنسان فيه من سيطرة ونفوذ الغم والفرح . والأوحدي من البشر هو الذي يتخلّق بالأخلاق الجميلة لهذا الهدف ، والأوحدي من الناس هو الذي يقتفي هذا الهدف .

وقد أنزل القرآن الكريم نماذج وشواهد على كلا الطريقين :

يقول في سورة التوبة : ﴿ **إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة** ﴾[1] وفي الوقت الذي يملك الله فيه أرواحنا كذلك يملك فيه أموالنا أيضاً وتتنزّل رحمته الواسعة بقدر ليعقد معنا الصفقات التجارية فيقول : بيعوا أموالكم إلى الله وخذوا أرباحكم منه ، وبيعوا أرواحكم التي هي ملك الله إلى الله وخذوا في مقابلها الجنّة . فهل أرواحنا وأموالنا ملك لنا ؟ أي هل أنّ الإنسان يملك روحه وماله في مقابل الله ؟ أبداً فالإنسان لا يملك في مقابل الله أي شيء . يقول : ﴿ **أمّن يملك السمع والأبصار** ﴾[2] ذلكم الله الذي يملك أسماعكم وأبصاركم ، وهو الذي ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء** ﴾[3] أي الذي له قدرة إجابة المضطّر هو الله لا غير . وأبصارنا وأسماعنا ملك له ، ولهذا لا يعطي الله سبحانه أحياناً إذناً لغلق العين ويموت الإنسان بتلك العين المفتوحة ، وإذا لم يكن هناك من يغلق عينيه فسيكون لهذا الإنسان الميت منظر مرعب وقبيح جداً .

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١ .

(٢) سورة يونس، الآية: ٣١ .

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٢ .

فالإنسان لا يملك عينه وأذنه أبداً . كل الوجود ملك الله ، غايته أنّ رحمته الواسعة اقتضت أن يشتري منّا ما يملكه ليعطينا الجنّة . وهذا هو معنى ما قيل أنّ الإنسان لا يملك شيئاً في مقابل الله ، ودليل هذا ما قاله الله لرسوله في سورة يونس : ﴿ **قل لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً** ﴾[1] إذن ، فالإنسان لا يملك شيئاً .

وهناك كلام لأمير المؤمنين عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾[2] يقول : « إنّا لله إقرار بالملك وإنّا إليه راجعون إقرار بالهلك »[3] . فما نقوله : ﴿ **إنّا لله** ﴾ نعترف بأنّنا ملك لله وكل وجودنا ملك له سبحانه ، ﴿ **وإنّا إليه راجعون** ﴾ إقرار واعتراف بالهلاك فنحن هالكون وراجعون إليه .

إذن لا يملك أحد شيئاً . وأمّا معنى ما قاله موسى الكليم لله : ﴿ **إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي** ﴾[4] فذلك في الأعمال التشريعية والاختيارية لا التكوينية أي أنّه قال لله تعالى : إنّي لا أملك إلاّ نفسي في قبول الدين ، وبهذا الاختيار الذي منحته لي أستطيع أن أختار دينك وأقبله ، وأخي أيضاً يملك نفسه ﴿ **إنّي لا أملك إلاّ نفسي** ﴾ فإنّي لا أملك اختيار أحد إلاّ اختيار نفسي ، وأخي أيضاً لا يملك إلاّ اختيار نفسه ولا يملك اختيار أحد آخر . وقد آمنت باختياري وآمن أخي باختياره ، ولا نملك اختيار أحد سوى ما أملكه من اختياري وما يملكه أخي من اختيار نفسه ﴿ **إنّي لا أملك إلا نفسي وأخي** ﴾ وليس معناه إني أملك نفسي وأملك أخي فقط . كلا فالإنسان

---

(١) سورة يونس، الآية : ٤٩ .
(٢) سورة البقرة، الآية : ١٥٦ .
(٣) نهج البلاغة : الكلمات القصار .
(٤) سورة المائدة، الآية : ٢٥ .

تكويناً لا يملك نفسه فكيف يملك أخيه ؟! وهذه مسائل تشريعية وتكليفية يملك كل إنسان فيها اختياره ، فأخي يملك اختياره لا غير ، وأنا أملك اختياري لا غير .

إذن فقد اتّضح الفرق بين ما قاله موسى الكليم وما قاله الله تعالى لرسوله ففي النظام التكويني لا يملك أحد شيئاً ، يقول الله لرسوله : ﴿ **قل لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً** ﴾[1] . وفي المسائل التشريعية يخاطب موسى الكليم الله تعالى قائلاً : أنا أملك اختياري فقط في قبول دعوتك وأخي أيضاً يملك اختياره فقط ، وهذا في عالم التشريع . إنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي أيضاً لا يملك إلاّ نفسه وعلى هذا فلا يملك أحد تكويناً أي شيء ، ومع هذا فإن رحمة الله واسعة إلى الحدّ الذي يشتري منّا ما يملكه هو ، يشتري منّا أنفسنا التي يملكها هو ، يقول : ﴿ **وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** ﴾[2] يشتري منّا أموالنا التي يملكها هو . ويعرّف القرآن هذا الإيثار بأنّه تبادل تجاري ، ويقول للإنسان : بع أموالك ونفسك إلى الله ، أنت بائع والله مشتري ، وكل من باع يعني أنّه باع أمواله ونفسه إلى الله ، وحينئذٍ لم يعد مالكاً لأمواله ونفسه ولا يستطيع التصرّف في أمواله ونفسه بدون إذن المشتري الذي هو الله ﴿ **إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة** ﴾[3] وفي مقابل بضاعة النفس والمال يعطيه الجنّة . وفضيلة الجهاد إحدى الفضائل الأخلاقية للوصول إلى الجنّة ، والشجاعة أيضاً فضيلة أخلاقية ، وهدف الفضيلة الأخلاقية الوصول إلى الجنّة . وعندما يبيع الإنسان أمواله ونفسه إلى الله يجب عليه أن يعمل في نفسه وأمواله على وفق

---

(١) سورة يونس، الآية : ٤٩ .
(٢) سورة النور، الآية : ٣٣ .
(٣) سورة التوبة، الآية : ١١١ .

الأوامر الإلهية والله تعالى هكذا يأمر : ﴿ **يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون** ﴾[1] يقتلون ويُقتلون فيكونون شهداء ﴿ **وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾[2] وهذا الوعد الذي يعطيه الله ، هذا الوعد مثبت في جميع الكتب السماوية مثل التوراة والإنجيل والقرآن ، وليس من أحدٍ أوفى بعهده من الله ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به** ﴾[3] هذا البيع الذي كان منكم ، هذا البيع والشراء الذي كان منكم كان بشارة لكم ﴿ **وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[4] وبتعبير الأستاذ العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه : تلحظ ست أمور في البيع والشراء المهم :

الأول : تعيين البائع . **الثاني** : تعيين المشتري . **الثالث** : تعيين البضاعة . **الرابع** : تعيين الثمن . **الخامس** : تسجيل المعاملة . **السادس** : الشهود العدول . وهذه الأمور الستّة مطمح الأنظار في المعاملات التجارية المهمة وفي المعاملة التجارية بين العبد والمولى .

البائع : المؤمن ، المشتري : الله ، البضاعة : النفس والمال ، الثمن : الجنة ، تسجيل عقد المعاملة : التوراة والإنجيل والقرآن . الشهود : الأنبياء الذين جاؤوا بالتوراة والإنجيل والقرآن . وسند هذا العقد والمعاملة هي الآية المذكورة من سورة التوبة التي تحثّ على إحياء وتهذيب النفس عن طريق الفضائل الأخلاقية من طريق الوصول للجنّة وتبدأ من هذا الطريق . وقد طرحت الوعود الإلهية أيضاً في أقسام أخرى مثل سورة الزمر : ﴿ **قل يا عبادي الذين آمنوا اتّقوا ربّكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا**

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١ .

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١ .

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١١ .

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١١ .

حسنة وأرض الله واسعة إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[1] الحديث حول الأجرة ، وفي الوقت الذي يعمل فيه الإنسان لنفسه فهو يتقاضى عن عمله هذا أجرة من الله . وتوجد الكثير من مثل هذه التعبيرات في القرآن الكريم ، مثل أنّ من يتخلّق بالأخلاق الجميلة فمكانه الجنّة ﴿ يرثون الفردوس ﴾[2] وأمّا إذا تلوّث بالأخلاق القبيحة فجهنّم في انتظاره . ويصادف النظر الكثير من الآيات والروايات التي تتحدّث عن هذا القسم من تهذيب وتزكية النفس ، ولها دور فعّال في تهذيب وصياغة نفوس أوساط الناس .

وأمّا المسلك الثالث في كسب الفضائل الأخلاقية فهو أنّ الإنسان يصل إلى درجة تحلّ له مثل هذه المسألة ، فليس في البين بيع وشراء ، وليس للإنسان شيء من عند نفسه ليبيعه إلى الله ، فإذا كان شجاعاً ويجاهد في سبيل الله فليس ذلك برجاء أن يعطي نفسه مقابل الجنة ، ليس له نفس لكي يعطيها ويأخذ الجنة عوضاً لها لأنّه لا يملك شيئاً ﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾[3] .

وليس من موجود إمكاني سواء كان صنماً أو غيره يملك شيئاً . ويعتبر هذا الموضوع محلولاً بالنسبة للإنسان الذي وصل إلى ذلك المقام الرفيع ، فهو لا يملك شيئاً ليعطيه إلى الله ويأخذ عوضه الثمن . وإذا وصل إلى هذه الدرجة الرفيعة وفقاً لآية سورة النحل ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[4] فستحل له هذه المسألة فنعمة الروح ونعمة التعرف على الفضائل الأخلاقية

---

(١) سورة الزمر، الآية : ١٠ .
(٢) سورة المؤمنون، الآية : ١١ .
(٣) سورة الفرقان، الآية : ٣ .
(٤) سورة النحل، الآية : ٥٣ .

ونعمة تحصيل الفضائل الأخلاقية ونعمة التخلّق بأخلاق الحقّ ، جميعها من الله ، والإنسان لا يملك شيئاً ليعطيه إلى الله ويأخذ منه شيئاً في مقابله فلا يعمل عملاً لينفع به الله ويتقاضى عن ذلك أجرة . وتعبير البيع والشراء والإشتراء والأجر هي لأوساط الناس والذين هم متوسطي الإيمان ، فأولئك في مرحلة لا يواصلون فيها الطريق إلاّ بالبيع والشراء والاشتراء والأجر ، وهم في مرحلة يقولون فيها : لقد عملنا ونريد أجرة على ما عملنا . وأمّا ذلك الأوحدي من البشر فعندما يصل إلى درجة معينة تحلّ له المسألة فهو ليس مالكاً لشيء وهو ليس إلاّ محل الفيض وليس مبدأ أو مُنشأ لذلك . وإذا اتضح له وأنّه ليس إلاّ ممرّاً للفيض لا فاعلاً للفيض ، وإذا اتّضح له أنّه لم يعمل شيئاً وأنه كان مسير الرحمة فقط ، وإذا هضم بصورة جيدة بأنّه لم يجاهد ولكن جُعل مسيراً لنصرة الدين ، وإذا اتّضح له بصورة كاملة بأنّه ليس عاملاً بل مسير واستمرار لعمل الحق وهو لم يبع شيئاً ليأخذ مقابله أجراً ، لم يعمل شيئاً ليطالب الله بالأجرة . مثل هذا الشخص أعلى من الجنة والنار ، بل خُلقت الجنة له ووصل إلى درجة كان فيها « قسيم الجنّة والنار » . وصل إلى مرحلة أضحى فيها تقسيم الجنّة والنار على ولائه . فهو نظير علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان حبّه وبغضه سبباً لتقسيم الجنّة والنار . وهو نظير الحسين بن علي عليه السلام الذي توليه وتبريه ميزان الجنة والنار . وهو مثل بقية الله أرواحنا له الفداء الذي وصل إلى درجة توزّع وتقيّم الجنّة والنار من أجله . وهناك كلام للمرحوم ابن بابويه القمي رضوان الله عليه في كتاب معاني الأخبار يقول فيه : عندما سأل أحد تلاميذ الإمام الصادق سلام الله عليه الإمام عليه السلام : لماذا يُقال لرسول الله أبو القاسم ولماذا هذه الكنية ؟ فقال عليه السلام : كان لرسول الله ابن اسمه القاسم فكُنّي أبو القاسم .

فقال السائل : يا ابن رسول الله أريد أن أتعلّم منك معنىً أعمق لهذه

الكنية . فقال عليه السلام : ألم يكن علي بن أبي طالب سلام الله عليه التلميذ المخلص لرسول الله ؟ (لأنّه يوجد في نهج البلاغة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال : احتضنني رسول الله صغيراً ، وترعرعت في حجره ، وشممت رائحة بدنه ، وكان يمضغ اللقمة ثم يلقمنيها ، وتربيت في حجر الإسلام) ثم قال : أليس التلميذ ابن الأستاذ والأستاذ أب التلميذ ؟ (وحق التعليم ليس أقل من حق الولادة) . وعندما سُئِل حكيم إلهي هل علاقتك أوثق مع أبيك أم مع أستاذك ؟ فقال : مع أستاذي لأنّ أبي جاء بي من العالم العلوي إلى العالم الأرضي ولكن أستاذي يسعى أن يرفعني من العالم الأرضي إلى العالم العلوي) وعلى هذا فمنزلة النبي بمنزلة الأب لعلي بن أبي طالب ، أوليس علي بن أبي طالب هو القاسم ، قسيم الجنة والنار ؟ توزّع الجنة والنار على ولائه . فحبّه واتّباعه وإطاعة قيادته معيار الذهاب إلى الجنّة ، وعداوته وبغضه علامة الذهاب إلى النار ، فهو الميزان وهو المعيار لتقسيم الجنة والنار . وجاء في نهج البلاغة حول شخص ابتعد عن مسار الدين . قوله عليه السلام : « لأضربنّك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلاّ دخل النار »[1] فكل من قُتل بسيف علي فهو من أهل النار ، يقول : « لأضربنّك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلاّ دخل النار » وعلى هذه الأسس فعلي بن أبي طالب تلميذ النبي ، والتلميذ ابن الأستاذ ، إذن علي بن أبي طالب ابن النبي ، وبما أنّ علي بن أبي طالب قاسم الجنة والنار ، فعلى هذا فإنّ النبي هو أبو القاسم . وهو في حدٍ فوق كونه قاسماً للجنة والنار . والإنسان لا يصل بالفضائل الأخلاقية إلى درجة يكون فيها قسيم الجنة والنار والمتصدي لتوزيعها فقط ، بل يكون فوق التصدي . فرسول الله فوق التصدي وعلي بن أبي طالب متصدي إلاّ في المقام الأعلى حيث « كلّهم من نور واحد » .

---

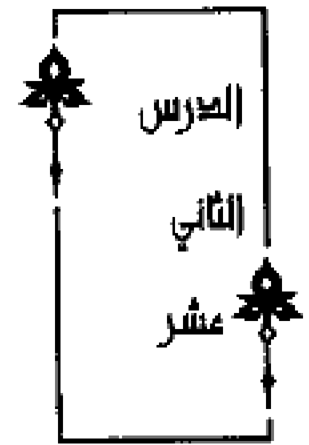
(١) نهج البلاغة : فيض ، ص ٩٥٧ .

ويوجد في القرآن إشارة إلى هذا المسلك الثالث عند طرح الفضائل الأخلاقية . فيقول الإنسان : إذا أردت تحصيل الفضائل الأخلاقية لأجل شخص أو لأجل شيء فاعلم أنّ ﴿ **ولله ملك السماوات والأرض** ﴾[1] لماذا لا يكون هدفك أسمىٰ من الجنّة والنار ؟ فإذا كان من أجل العزّة فاعلم أنّه ليس العزّة عند أي موجود إلّا الله ﴿ **فإنّ العزّة لله جميعاً** ﴾[2] إذن يجب عليه أن يؤدي العمل لله . وإذا كان برجاء الحصول على القوة ﴿ **أنَّ القوة لله جميعاً** ﴾[3] ولا يمكن للإنسان أيضاً تحصيل الفضائل الأخلاقية ليصل إلى القوة بسبب ﴿ **أنَّ القوّة لله جميعاً** ﴾ . إذن فلا يسعى لتحصيل الأخلاق من أجل العزّة ولا جاء الأنبياء لتزكية وتهذيب الناس من أجل القوة ولم يكن تهذيب نفوسهم عن طريق المسلك الأول وهو الطريق العادي والمادي أبداً ، بل أنّ تهذيب النفس إمّا يكون عن الطريق الثاني الذي هو نافع لأوساط الناس أو الطريق الثالث الذي هو نصيب الأوحدي من المتخلّقين بأخلاق الله لأنّه يسعى أن يكون مظهراً للأسماء الحسنى للحق وأن يكون مظهراً لأعلى الأسماء الإلهية والتي تنشأ منها الجنة والنار ، ومن هناك ينشأ الحب والبغض ، وينبع التولي والتبري من هناك ، كما أنه من هناك يحصل القرب والبعد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٤ .
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٩ .
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٥ .



القيامة يوم ظهور الحق

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

كما أنّ القرآن الكريم قد أولى أهمية كبيرة لمسألة التوحيد ومعرفة مبدأ الوجود وطرح بحوثاً استدلالية على ذلك . فكذلك حظى موضوع المعاد ونهاية عالم الوجود بأهمية قصوى عنده ، وتوجد آيات كثيرة قد بحثت هذه المسألة المهمة بحثاً واسعاً ومن أبعاد متنوعة . وأحد هذه الآثار البارزة والعلامات المهمة للمعاد هو ظهور الحق . فذلك اليوم يوم الحق ، وليس لأي نوع من البطلان طريق فيه وليس للباطل بأي وجه كان أي طريق في ذلك اليوم . لا الاعتقاد الباطل ، ولا التوهّم والتخيّل الباطل ، ولا العمل الباطل ، لا في الفرد ولا في الجماعة ، لا في داخل الفرد ولا في خارج الأفراد . العالم الذي يظهر فيه الحق كاملاً ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾[1] لا تزلزل في ذلك الطريق ولا بطلان ، ولأنّ الباطل لا أصل له فهو متزلزل وقابل للزوال ، ولأنّ الحق أصيل فهو ثابت وغير قابل للزوال . والسرّ في

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٩.

أنّ القرآن الكريم قد عرَّف يوم القيامة بأنّه يوم ظهور الحقّ وليس للباطل فيه أي مجال ، هو أنه يحصل تزاحم وتصادم في منطقة الحركة ومجالها . والإنسان أيضاً من ناحية الطبيعة من الممكن أن يتحرك في الطريق المستقيم ومن الممكن أن ينحرف عنه فيجب أن يختبر حتى يصل في ظل الاختبار إلى الكمال . ويظهر ذلك الشيء الكامن في نفسه ، وحيث أن الحركة في منطقة الطبيعة والمادة عامة ، فجميع موجودات عالم الطبيعة في حالة سيلان ، فتصادمها واصطكاكها ولحوق الضرر والفساد بها أمر قهري ، ويوجد في هذا الطريق شيء من البطلان قل أو كثر . وعندما لا يستطيع المتحرك الوصول إلى الهدف بسبب اصطدامه بمانع فسوف يبطل ومن أجل أن يمتحن الإنسان بصورة صحيحة يترك طريق الرسوب مفتوحاً ليتضح في الامتحان من كان على الصراط المستقيم ومن لم يكن . وبناءً على هذا فالحق والباطل مخلوطين في عالم الحركة وفي كل مكان توجد عقيدة الحق فالاعتقاد الباطل موجود أيضاً . وفي كل مكان يوجد فيه توهم وتخيل الحق ، فالخيال والوهم الكاذب موجود أيضاً . وفي كل مكان يوجد فيه عمل صادق وحق ، فالعمل الكاذب والباطل موجود أيضاً . وفي كل مكان يصل فيه المتحرك إلى هدفه وينال مأموله ومطلوبه يوجد خيبة أمل أيضاً . ولو أنه في المجموع الخيبة أقل من موارد النجاح والفساد والشر أقل من الصلاح والخير ، ولكن هذا موجود في مجال ومنطقة المادة والحركة والطبيعة ، من أجل أن تصل هذه الحركات إلى نهايتها وتصل هذه المتحركات أيضاً إلى أهدافها ، ولا تبقى أيضاً هذه الجهود والمساعي بلا ثمر . فلا بدّ من عالم تسكن فيه قافلة الحركة عند وصولها إلى ذلك العالم وتصير ثابتة بنيلها ذلك المقصد . وكذلك لا بدّ من وجود عالم تحفظ فيه قافلة الحركة عند وصولها إلى ذلك العالم من خطر التخلّف والاختلاف وتصان من اشتباه الحق بالباطل . وأن

يكون في ذلك اليوم حكم عدل يحكم بدرجة يضع فيه خاتمة لكل أنواع التخلّفات والاختلافات بصورة دائمة .

ويتّضح أي عقيدة من بين العقائد كانت صحيحة ، وأي أمل ورجاء من بين الآمال وما يُرجى كان حقاً ، وأي وهم وتخيل من بين الأوهام والتخيلات كان حقاً ، وأي فعل وعمل من بين الأفعال والأعمال كان حقاً . ويُعلم أي مسألة من بين المسائل المتعلقة بالمجتمعات البشرية كانت حقاً وأمثال ذلك . ولهذا فإنّ القرآن الكريم قد عرّف مسألة المعاد بعنوان يوم الحق . وفي ذلك اليوم يتجلّى الله باسم الحق تجلياً كاملاً وليس للباطل فيه أي طريق ، وليس فيه أي مجال للخطأ . فيتضح الحق فيه لكل إنسان كما سيتضح أيضاً حقّه في ذلك اليوم ويثبت ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾[1] وبما أنّ تحقّق مثل هذا الميعاد لازم وثابت يقول القرآن حول القيامة أنه ليس فيها أي شك ﴿ **وأنّ الساعة لا ريب فيها** ﴾[2] فلا ريب في أصل وقوع ذلك اليوم ولا ريب في ما يقع في ذلك اليوم . فلا شك في وجوده وهل هو موجود أو لا ؟ وليس ذلك اليوم ظرف الشك وليس في ذلك اليوم شيء مشكوك . ولا يبقى شك عند أحد في ذلك اليوم فسيتضح كل شيء . وإنما يكون الشك بسبب وجود الباطل ووجود الحق ووجود أمر مشكوك بينهما هل هو من قسم الحق أو من قسم الباطل . ولكن عندما لا يكون للباطل في ذلك اليوم طريق فمع ماذا يشتبه الحق ؟!

لا يوجد فرد أجنبي حتى يشك الإنسان بذلك الفرد غير المعروف . وفي أي موضع كان الشك والاشتباه فلا بدّ من وجود أمرين متقابلين ضرورة حتى يشك الإنسان في ذلك الفرد المشكوك هل هو جزء هذا المقابل أو جزء

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢١.

ذاك المقابل . ولكن إذا لم يوجد في العالم غير قسم واحد ولا شيء غيره ، وغير مصداق واحد ولا مصداق غيره ، وغير أصل ولا أصل غيره . فلن تكون هناك أيضاً أرضية للخطأ والشك . ولا يكون الاشتباه والخطأ إنما يكون بسبب وجود فرد غير معلوم مشكوك فيه هل هو من هذا القسم أو من ذلك القسم . ولكن عندما لا يوجد لدينا قسمان فلن يكون هناك مشكوك حينئذٍ . وعندما لا يكون باطل في ذلك العالم فالمشكوك أيضاً لا وجود له . وعندما لا يوجد خلاف فالخطأ أيضاً غير موجود . وعندما لا يوجد كذب فالخطأ بين الصدق والكذب أيضاً غير موجود . ولهذا ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ لا أصل وقوعه فيه ريب ولا أنه يجعل ذلك اليوم ظرفاً للشك ، فهو لا يجعل متعلّقاً للشك ولا ظرفاً للشك . يوم ظهور الحق ، وقد سمّي ذلك العالم باليوم ، وأكثر الموارد التي أطلق فيها القرآن كلمة يوم ويومئذ راجعة ليوم القيامة ، إلاّ في عدّة مواضع . فالقيامة يوم لا ليل فيه ، وظهور لا شك فيه ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾ وعلى هذا إذا كان ذلك العالم عالم الحق فجميع الأسس والأركان والخطوط في ذلك العالم حق . وإذا كان يوجد في القيامة ميزان كما قالوا فسيكون وزنه الحق ، أي أنّ الأفكار والعقائد والأعمال توزن بالحق . وإذا كان قد قيل أنّ في القيامة صراط فسيكون ذاك الصراط حق . وإذا كان قد قيل أنّ في القيامة حساب فسيكون الحساب حق . وإذا قيل أنّ في القيامة جنّة ونار فستكون الجنّة حق والنار حق . وليس للبطلان في أي واحد من هذه الأمور المتعلّقة بالقيامة طريق . وهي نماذج الحق ومجاري الحق والمظاهر المتنوعة للحق . وإذا كان الله قد قال : ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ﴾[1] فهو ناظر إلى هذا المعنى ، لا أنّ في القيامة وزن وكيل ، بل وزن القيامة يعني أن ذلك القسم الوزني حق ، يزن بالحق ، توزن العقيدة مع

---

(١) سورة الأعراف، الآية : ٨ .

الحق ، وحقيقة كل شيء توزن مع الحق ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ لا « والوزن يومئذ حق » لا أنه يوجد وزن ، لا أنه يوجد كيل ، بل الوزن في ذلك اليوم الحق . وقسم التوزين ذاك حق . أعمال وأفعال الإنسان توزن مع الحق . فإذا كان العمل المتحقق ذا حقٍّ يصير ثقيلاً ، وإذا كان العمل باطلاً ولا وزن له يصير خفيفاً . ولذا قال القرآن أنّ كل من كان وزنه ثقيلاً يوم القيامة فهو من أهل السعادة ، وكل من كان وزنه خفيفاً فهو محروم ومعذّب . ولأن الوزن هو الحق ، أي أن حقيقة الإنسان وعقائده وأعماله توزن مع الحق ، وأمّا ذلك الكافر الذي روحه في ضياع وظلام ولا توجد عقيدة حق ورجاء حق وعمل حق في أي بُعد من أبعاد حياته فلا وزن له في يوم القيامة ، فهو لا يُقام له وزن ، فلا هو يوزن ولا أعماله ويقول : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾[1] وقسم الوزن الذي هو حق لا يقام لكفّار ، لأنّ الكافر ليس عنده شيء يوزن . والمتاع الخالي لا يوزن ، إذ ليس للكافر عقيدة وإيمان ولا عمل صالح ، وعلى هذا فليس عنده شيء حتى يوزن مع الوزن الذي هو الحق . والإنسان عند توزين البضائع العادية يضع عيار الوزن في إحدى كفّتي الميزان ويضع الموزون في الكفة الأخرى ليتضح مقدار وزنه . وإذا كان شيء لا وزن له أصلاً فلا يوضع في كفّة الميزان الأخرى عيار الوزن . وإذا كان القرآن قد قال : أننا نحسب جميع ذرات العمل ونزنها فهذا راجع للإنسان الموحّد المهتدي ، ولكن ذلك الكافر والمعاند الذي ليس له أي هدي فهم ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾[2] أفئدتهم وقلوبهم خالية ، وأيضاً ﴿ أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾[3] وأيضاً

(١) سورة الكهف، الآية : ١٠٥ .
(٢) سورة إبراهيم، الآية : ٤٣ .
(٣) سورة إبراهيم، الآية : ١٨ .

﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ﴾[1] فعلمه سراب وقلبه خالٍ أيضاً ، فلا السراب يوزن ، ولا الظرف الخالي . فإذا أرادوا وزن روحه وجدوا قلبه خالياً ، وإذا أرادوا وزن عمله فعمله سراب ، ويحتاج إلى ميزان سرابي لتوزن أعماله السرابية به ، لأنّ وزن القيامة حق لا سراب ، ولهذا لا طريق لوزن الأعمال السرابية . ولا يستطيع الإنسان أن يزن السراب بميزان الماء (المقياس) فإذا كنّا نستطيع أن نقيس حجم الماء وضغط الماء ومقدار الماء ودرجة حرارة وبرودة الماء ، فلا يمكن أن ينفعنا هذا الميزان في وزن السراب ، إذ ليس للسراب حجم ولا مقدار ولا حرارة ولا برودة ولا أمثال ذلك . وإذا كان للتمثيل مقدار فهو مقدار سرابي . ولهذا فليس للسراب ميزان ، وليس للكفار والمعاندين في يوم القيامة ميزان ، لأنّه ليس عندهم شيء يوزن . وإذا كان القرآن الكريم قد قال : إذا كان العمل والخصلة ولو بمقدار مثقال خردل فإنّ الله يحسبه فمعلوم أنّ ذلك إنما هو بالنسبة للشخص الذي له وزن ، أي الإنسان الموحّد .

نعم لذنوب الكفّار والمنافقين ودركاتهم حساب أسود حيث يجعل المنافق في الدرك الأسفل ، ومن المقطوع به أنّ لهذا حساباً ونظاماً خاصاً .

والخلاصة إذا كان الإنسان متحقق بالحق فوزنه ثقيل ، وهو سعيد أيضاً ، كما أنه أيضاً يعبر بسهولة على الصراط الذي هو صراط حق لأنّ المتحقق قد أنس بالحق ، ولهذا فهو يعبر بسهولة من مسير الحق . وإذا كان محاسباً فالله بالنسبة لهؤلاء سريع الحساب ، ولا يتأخر هؤلاء في الحساب ، وإذا كان يوم القيامة خمسين ألف سنة فإنّ هذه المدة تطوى لهم ولا يتأخّرون . وفي إحدى الجلسات الخصوصية لخاتم الأنبياء الرسول الأكرم طرحت هذه الآية ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين

(١) سورة النور، الآية: ٣٩.

ألف سنة ﴾[1] فقال أحد أصحابه متعجّباً : ما أطول هذه المدة . فقال النبي ﷺ : والذي نفس محمد بيده إنها على المؤمن بمقدار صلاة مفروضة . أي بمقدار صلاة واجبة ، ولا تستغرق الصلاة الواجبة أكثر من بضع دقائق . فهذه الخمسين ألف سنة بالنسبة للمؤمن تعادل عدّة دقائق ، فهو قد اجتاز جميع هذه المراحل من قبل ، وهو قد نجح في الامتحانات الإلهية التي بقي فيها الآخرون سنوات ولم يفلحوا ، وقد اجتاز هذه المواقف الامتحانية ، والذي يستغرق التأخّر في كل موقف منها مدّة طويلة . وهو قد قفز وظفر ووجد النجاة . وبما أنّ القيامة يوم الحق فلا طريق للخلاف في أي موطن من مواطنها ، فلا في جهنّم يستطيع أحد المخالفة ، ولا في الجنة ، ولا في أي موقف آخر . وليس فقط أهل الجنّة لا يختلفون بل أنّ أهل جهنّم لا يختلفون أيضاً . وإذا كان البعض في القيامة يكذبون وينكرون فإنّما هي ملكات الدنيا تظهر هناك لا أنه عمل اختياري . لا أنّهم في القيامة يعملون عملاً اختيارياً باسم الكذب كما هو في الدنيا ويترتب عليه العصيان . كلا بل ما كسبوه في الدنيا يظهر في يوم القيامة ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾[2] ولأنّ الحق ثقيل فقد وصف الله يوم القيامة بأنّه يوم ثقيل ، كما أنّ القرآن الكتاب الحق كتاب ثقيل ﴿ **إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾[3] فهذا القرآن ثقيل ، والقيامة أيضاً يوم ثقيل لأنّه حقّ ﴿ **إنّ هؤلاء يحبّون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً** ﴾[4] فذلك اليوم يوم ثقيل لأنّه يوم ظهور الحق ، والحق أيضاً ثقيل ، وهو ثقيل إلى درجة أنّ السماء والأرض ليس لها قدرة تحمّل القيامة ، ويتزلزل كل العالم أثناء ظهور القيامة ﴿ **ثقلت في السماوات**

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤ .

(٢) سورة النبأ، الآية: ٣٩ .

(٣) سورة المزمل، الآية: ٥ .

(٤) سورة الإنسان، الآية: ٢٧ .

والأرض﴾[1] وفي أثناء ظهور الحق فإنّ الدنيا لا قدرة لها لتحمل القيامة . والعالم الذي اختلط فيه الحق والباطل لا قدرة له على تحمّل ظهور الحق المحض . والعالم الذي اختلط فيه الصدق والكذب لا قدرة له على تحمّل ظهور الصدق المحض. والمساحة التي اختلط فيها الخلاف والوفاق لا تقدر على هضم الوفاق المحض. ولهذا تضطرب السماء والأرض أثناء ظهور الحق المحض والصدق المحض، فيوم القيامة ثقيل وغير قابل للتحمل أيضاً، ولهذا يطوى بساط السماوات وتقبض الأرض الواسعة ﴿ **والسماوات مطويات بيمينه** ﴾[2] يطوى بساط السماوات بالقدرة وظهور الحق ، وتجمع الأرض الواسعة المبسوطة بظهور الحق أيضاً ﴿ **والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة**﴾[3] إذ أنه ﴿**والسماوات مطويات بيمينه**﴾ وكما يطوى الطومار الذي قد جمعت فيه جميع الكتب فكذلك تطوى وتجمع المنظومة الشمسية وباقي الكواكب في يوم القيامة ، لأنّ القيامة يوم الجمع . وكما يجتمع الأولون والآخرون حول بعضهم في ذلك اليوم فكذلك تجمع السماوات العريضة الواسعة وتجمع أيضاً الأرض المبسوطة . فإذا قال : الأرض في الدنيا وسيعة ، فإنّه قال : من أجل ظهور القيامة نجمع هذه الأرض الوسيعة ونصنع بدلها أرضاً جديدة . ونطوي هذه السماوات مع بعضها لنصنع سماوات أخرى . نبدّل هذه الأرض بأرض أخرى وهذه السماوات بسماوات أخرى ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾[4] سيبدّل هذا النظام بنظام الحق المحض الذي لا طريق حينئذ للباطل إليه ، لأنّ الله لا يريد لذلك العالم زوالاً ولا أرضية للفناء ولا نافذة للاختلاف والتفرّق . وإذا لم تكن

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧ .

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧ .

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٧ .

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨ .

كل أبعاد عالم من العوالم حق وكانت زاوية من زواياه باطل ، فتلك الزاوية الباطلة قابلة للزوال ، وذلك البعد الخلافي قابل للفناء ، وتلك الزاوية للكذب قابلة للتغيّر . وإذا لم يكن الشيء حق محض فلا يكون أبدياً ، لأنّ الباطل لا يتلاءم مع الأبدية ، والقيامة التي هي أبدية لا طريق للباطل إليها على أي وجه من الوجوه ، لأنّ الباطل شيء مؤقت وليس أبدياً . إذ أن بداية العالم حق لأنه أزلي . فإذا وجد هناك وتحقق باطل واختلاف وجهل ونسيان وأمثال ذلك فإنه لا يكون أزلياً ، لأنّ الباطل ليس أزلياً ، وما كان أزلياً فهو حق ، وما كان أبدياً فهو حق ، وما كان سرمدياً فهو حق ، والأزل والأبد مترابطان . وبناءً على هذا فكما أنّه في التوحيد الذي هو مبدأ ليس هناك طريق للباطل إليه ، ففي القيامة التي هي المعاد ليس للباطل أيضاً طريق إليها ، لأنّ الباطل لا يتلاءم مع الأزلية والأبدية ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾[1] ويمكن أن يصل الإنسان إلى درجة يحيط الحق بها بجميع أبعاده الوجودية ، أي يصل الإنسان بسبب التقرّب بأداء الفرائض وببركة التقرّب بالنوافل إلى درجة يكون محلاً لإدراك الحق المحض ويكون أيضاً بنور التقرّب بالفرائض محلاً لعمل الحق ﴿ **ذلك بأنّ الله هو الحق** ﴾[2] وضمير « هو » مع « ال » التعريف تفيد الحصر ، ودور ضمير الفصل هنا هو إفادة الحصر ﴿ **وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل وأنّ الله هو العلي الكبير** ﴾[3] وهذا هو مضمون آيتين أحدهما في سورة الحج والأخرى في سورة لقمان مع تفاوت قليل . وإذا وصل أحد ما بفضل التقرب بالنوافل إلى درجة بحيث صار الحق سمعه وبصره ، ووصل إلى درجة ببركة التقرب بالفرائض بحيث صار عين الحق وسمعه وليس فقط صار الحق سمعه وبصره . فهذا الإنسان المتحقق يكون

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الحج، الآية: ٦٢.
(٣) سورة الحج، الآية: ٦٢.

كاملاً . وهذا الإنسان المتحقق الكامل يكون مرتبطاً بالتوحيد بشكل لا يوجد من ناحية التوحيد أي شك في حرم أمن روحه ويكون مرتبطاً بالمعاد أيضاً بدرجة أنه لا يوجد أي غموض أو إبهام بالنسبة لميدان القيامة الواسع في الحرم الآمن لقلب هذا الولي لله . وهذا هو أمير المؤمنين المولى علي بن أبي طالب روحي وأرواح العالمين له الفداء ، فقد ظهر الحق في جميع أبعاد وجوده وتلبّس بالحق بدرجة ليس للباطل إلى حرم وجوده أي طريق ، لا في ساحة اعتقاده وإيمانه ، ولا في ساحة علمه ، ولا في حرم عقيدته ، ولا في مأمن أخلاقه ، ولا في مظهر أفعاله . فهذا العمود عمود الحق ، وبما أنّ هذا العمود عمود الحق فلا يفكر بغير الحق ولا يقبل غير الحق ولا يقول غير الحق ولا يقوم لغير الحق ، ولا يقتل لغير الحق ولهذا يقول : كل من أقتله يدخل النار « لأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلاّ دخل النار »[1] الحق الذي يقتل الباطل ، والحق الذي ﴿ **فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾[2] فيدمغه ويصرعه ويرسله إلى جهنّم . وهذا الموجود المتلبس بالحق أنسه بالمبدأ الذي هو الحق بدرجة قوية بحيث يقول : « ما كنت أعبد رباً لم أره » . ويقول حول المستقبل الذي هو القيامة : « لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً » لو أزيح ستار وغطاء الإبهام عن وجه الآخرين فلا يفرق ذلك لي ، وليس معناه أنّه يوجد ستار وغطاء على وجهي وأنا أنظر من خلف الستار إذ من غير الممكن أن يوجد حجاب وستار ولا يحصل أي تفاوت حين كشفه . كلا فهذا البيان ناظر إلى نفي الموضوع . أي أنّه لا يوجد ستار بالنسبة لي ولا حجاب . وهذا غطاء القيامة قد أسدل على وجه عالم الطبيعة الواسع . وكل مَنْ طار عن الطبيعة وكان تفكيره أسمى وأعلى من الطبيعة فليس له ستار .

---

(١) نهج البلاغة فيض: ص ٩٥٧ .

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٨ .

(ترجمة شعر)

ليس للجمال ستار غير صفات الجلال فليس على هذا الخد نقاب ولا على هذا اللب قشر .

ومن كان أُنسه بالمبدأ إلى هذا الحد وبشكل تلبس بالحق وصار عبداً خالصاً لله ، فلا غشاوة وستارة وحجاب له لكي تكشف ، لأنّ الحق الذي هو المعاد هو نفس الحق الذي هو المبدأ ، وهو الله الذي له الظهور الكامل في يوم القيامة وهو الله الذي ﴿ وإنّا لله ﴾ وهو الذي ﴿ وإنّا إليه راجعون ﴾[1] ولهذا يقول : « لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً » سوف لن يزداد يقيني . وهذا للآخرين الذين إمّا لا يقين لهم أو يقينهم ضعيف . وأولئك الذين لا يقين لهم فهم لم يروا القيامة أصلاً إلى الآن ، وأولئك الذين لهم يقين ضعيف يروون بشكل ضعيف وعندما يموت أحدهم وتقوم قيامته يصير يقينه واضحاً ومضيئاً وذو محتوى .

يقول في سورة التكاثر : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم ﴾[2] لو تعلمون القيامة والحق لا بصورة الظن والاحتمال بل بصورة علم اليقين . وأنتم الآن في الدنيا ترون جهنّم . وإذا كان عند أحد علم اليقين فسيرى جهنم ، وينظر إلى ذلك العالم وهو موجود في الدنيا .

﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم ﴾ يقول بشكل قاطع وببيان مؤكّد : لو كنتم تعلمون علماً يقينياً بالمبدأ والمعاد فإنكم ترون جهنّم منذ الآن : ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾[3] وبعد ذلك سيتفتح يقينكم أكثر ،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦ .
(٢) سورة التكاثر، الآيتين: ٥ ـ ٦ .
(٣) سورة التكاثر، الآية: ٧ .

وسيكون عين اليقين الذي هو أعلى من علم اليقين من نصيبكم . هؤلاء هم تلاميذ علي بن أبي طالب . وأمّا الإمام علي عليه السلام فقد اجتاز كل هذه المراحل . وإذا كان هذا العارف المشهور يقول :

(ترجمة شعر) :

الفن هو أن ترى النار عياناً   لا بأن تستدل عليها بالدخان

فهو ناظر لهذا القسم ، يقول : ليس الفن هو أن يجد الإنسان الدخان بعد جهد وسعي حثيث ويطلع على وجود الدخان ويقول : بما أنّ الدخان موجود ، إذن فالنار موجودة . ولكن الفن هو أن يرى الإنسان النار بعينه الخارجية ، لا أن يرى الدخان ثم يستدل من وجود الدخان استدلالاً حصولياً على وجود النار ، بل الفن هو أن يرى الإنسان نار القيامة في الدنيا . لا أن ينطق هذا الكلام أي يقول : لا بدّ أن يكون هذا الدخان علامة على وجود النار .

وإذا كانت علامات نار القيامة تنقلنا إلى القيامة ونار القيامة فليس ذلك فنّاً . فذلك الشخص الفنان يرى جهنم منذ الآن إذ أنه يرى الجنة أيضاً . وهو لن يكون مهتماً بمسائل العلم الحصولي والاستدلال من الأثر إلى المؤثر وأمثال ذلك . و « قيمة كل امرء ما يحسنه »[1] قيمة كل إنسان بمقدار فنّه ، وبمقدار ما يظهر الحق في روح الإنسان فسيكون له ارتباط بنفس ذلك المقدار مع مبدأ العالم ، ومع المعاد أيضاً . وفي النتيجة سيرتبط بالأزلية وبالأبدية . وسيكون في نهاية الأمر مظهراً لله الذي لا يموت أبداً . ونحن من أجل أن نحس بهذا المبدأ بشكل أفضل وأن نأتي بصورة أفضل فلا طريق لنا إلاّ التلبّس بالحق . فنعرف الحق أولاً ثم نقبله ولا نعمل عملاً إلاّ حقاً ولا

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام ، ص ٧ .

تتكلّم كلاماً إلّا حقّاً ، لأنّ معرفة الحق لا تتيسر إلّا بأداء الوظائف الحقّة . القيامة يوم الحق ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾[1] والإنسان المتلبّس بالحق يعرف يوم الحق ، ولا يمكن لمن هو من أهل الباطل أن يستطيع أن يجد الأنس مع القيامة ويعرف المعاد . ومن غير الممكن لمن لم يظهر الحق في نفسه أن يتمكّن من معرفة القيامة والمعاد ، فهو لا يملك أدوات المعرفة . وهو بأي معيار يستطيع أن يزن القيامة ؟ ولهذا يقول الله تعالى لخاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه : إنّ إدراك هذه الحقائق غير متيسّر لهم فقلوبهم في حجاب عن ذلك ، لأنّهم قد حجبوا تلك اللطيفة الإلهية بالذنوب وعدم الاعتقاد والأعمال الباطلة ، وعندما تحجب تلك اللطيفة الإلهية بستار كثيف من الذنوب فلا ترى حينئذ ظهور الحق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٩.

الدرس
الثالث
عشر

البرزخ وتجرد الروح والعبور من المتغير إلى الثابت

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمّد وآله الطاهرين .

القيامة في نظر القرآن الكريم ـ وكما بُيّن من قبل ـ هي يوم ظهور الحق ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾[1] والمكان الذي يظهر فيه الحق لا يوجد حوله اختلاف صحيح كما لا يمكن الاختلاف حول الأمور الأخرى التي تقع في ذلك اليوم ، لأنّ ظهور الحق كما ينفي أي إنكار أو شك حول نفسه كذلك ينفي كل إنكار أو شك حول أي أمر آخر يتحقق هناك .

ولذلك فقد عبّر القرآن بأنّه لا شك في القيامة : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾[2] لا هو متعلّق الريب ولا هو ظرفٌ للريب ، فلا يمكن الشك في القيامة لأنها حق ، ولا يمكن الشك والإنكار في أي موضوع من موضوعات ذلك اليوم لأنّه يوم ظهور الحق ، ومن هذه الجهة سمّى القرآن القيامة في سورة النبأ : يوم الحق ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾ بمعنى أن هناك قيامة ولا بمعنى أن يوم

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.

القيامة حق ولا بمعنى أنّ هذا اليوم حق ، بل بمعنى أنّ القيامة يوم الظهور التام للحق .

ولهذا لا شك في نفس القيامة ، ولا شك في ظرف القيامة يرجع إلى الشك في مسألة من مسائلها . ففي القيامة تنتهي كل الاختلافات ، الاختلافات حول نفس القيامة وأيضاً الاختلافات في الأمور الأخرى . وهذا هو أهم خبر في العالم . فالقرآن يعرّف القيامة بأنّها النبأ العظيم ﴿ **عمّ يتساءلون * عن النّبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون** ﴾[1] وهذا الخبر الذي هم فيه مختلفون لا يقبل بعضهم أصله ، وبعضهم ينكر أو يشك في بعض أبعاده وشؤونه . وهذا النبأ عظيم لأنّه حق إذ يظهر فيه الحق وبظهوره تنتهي الاختلافات الراجعة إلى نفسه وتنتهي أيضاً الاختلافات الراجعة إلى الأشياء الأخرى . وإذا أراد أحد أن يتّخذ طريقاً يوصله إلى الحق فمجاله في الدنيا مفتوح ﴿ **فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآباً** ﴾[2] لأنّه لا يوجد في العالم حقّان . ويقول برهان التوحيد : لا يوجد في العالم حقّان ، بل الحق بالذات واحد ، ولا يوجد في العالم مبدآن للحق ، حقّان بالذات ، ولا يمكن أن يكون الحق المحض اثنان ، ولهذا فإنَّ المعاد ليس أمراً آخر غير المبدأ ، ولا رجوع للإنسان وغيره إلى غير الله . والقيامة هي الظهور التام لله وليس شيئاً آخر . ولله في ذلك اليوم ظهور خاص ، وكل الموجودات من الأرض والسماء والإنسان مع كون حقائقها محفوظة فإنها تُدبر بنظام خاص بالآخرة . وكما أنّ النور لا يقبل الاختلاف على نفسه ولا يقبل الاختلاف في المستنير ، بل مع ظهور النور يزول كل شك حول نفس النور ويزول كل شك حول المستنير . فكذلك القيامة أيضاً لأنّها يوم ظهور الحق هذا الحق العظيم ونبأ

---

(١) سورة النبأ، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة النبأ، الآية: ٣٩.

العالم المهم الذي اختلف حوله الناس بظهوره ستنتهي كل أنواع الاختلافات سواء كانت هذه الاختلافات في نفس القيامة ، أو في موضوعات أخرى . وهذا الأمر يوجد دفعة واحدة لا بشكل تدريجي . فالله تعالى لا يرى القيامة على أنها أمر تدريجي . يقول تعالى في القرآن : تظهر القيامة فجأة ، فلا تدرج في ظهور القيامة ، بل هي أمر دفعي لا يقبل التدرج . وعندما يطرح في سورة يوسف أحداث القيامة يقول : ﴿ **أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون** ﴾[1] يقول : أهؤلاء في الأمان ؟ أي أمان كاذب ! وأي أمان خادع ! سيأتيهم عذاب الله أو القيامة فجأة وهم لا يشعرون . والأمر التدريجي ينبه الشعور ويلفت الإنسان لأنّه يأتي قليلاً قليلاً وبصورة تدريجية ولهذا سيكون هناك مجال للإطلاع والانتباه . ولكن القيامة تظهر فجأة أي بلا تدرّج . وعالم الحركة والسفينة العظيمة تمتلك مواد ولوازم ذلك الإرساء كما مرَّ بحثه سابقاً ﴿ **أيّان مرساها** ﴾[2] أي : متى تلقي القيامة مرساها ؟ متى تلقي سفينة العالم مرساها ؟ متى يهدأ هذا الطوفان ؟ وهذه سفينة بحر الطبيعة المزمجرة لا مرسىً لها في حالة الحركة الدائمية بل مرساها في حالة الهدوء . وعالم الحركة هذا في حال التدرج لا قيامة له ، وعالم الحركة متوجّه إلى الهدف وعند وصوله إلى الهدف يلقي مرساته ، وحينئذٍ لا طوفان ولا تدريج بل هدوء ، لذا هو يظهر فجأة عندما يصل إلى المقصد ويهدأ بالتدريج مع أنّه من الممكن أن لا يصل المتحرك الذي له هدف إلى هدفه الشخصي والخاص لأنّ نظام الطبيعة نظام التزاحم ، وكل موجوداته في حالة السيلان والحركة ولهذا يمكن أن يلحق بها الأذى بسبب الاصطدام . وأن يتخلف بعضها فلا يصل إلى هدفه .

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

ولكن النظام الكلي الذي هو واحد حقيقي في حالة السيلان والحركة ، وهذه المجموعة ستصل إلى هدفها ومقصدها يقيناً ، لعدم وجود مزاحم للنظام الكلي . والمزاحمة أمر نسبي ، أي أنّه من الممكن أن يحصل الأذى لبعض المتحركات التي في حالة السعي والحركة المستمرة من بعض المتحركات الأخرى ، فيرى كل منهم الأذى من الآخر ، وهذا الأذى الملحوظ لا يوصل إلى المقصد . وأما بالنسبة إلى النظام الكلي الذي هو واحد حقيقي وهو في حالة السيلان والحركة أيضاً فلا يفترض له مزاحم . فما هو المانع من وصول هذه المجموعة إلى هدفها ؟ وأما المزاحمة المؤقتة والموسمية في عالم الحركة فهي موجودة في بعض أجزاء ذلك الطريق ، ولكن لا فرض للمزاحمة لكل العالم .

وبتعبير الأستاذ العلاّمة الطباطبائي قدّس سرّه : بما أن هذا النظام هو واحد حقيقي ، وهذا الواحد الحقيقي في حال متابعة الهدف ولا شيء خارج عن ذلك يكون له عمل مع الحركة فيؤذيها أو تؤذيه . إذن فلا مانع في الطريق . وعندما لا يوجد مانع في الطريق فسيصل كل عالم الطبيعة وعالم الحركة إلى هدفه ولن يوجد باطل . ولهذا سمّى الله سبحانه القيامة باسم المستقبل الذي لا ريب فيه ﴿ **وأنّ الساعة لا ريب فيها** ﴾[1] ولكنها تصل فجأة عندما سينتهي التدريج . فهل التدرّج الذي انتهى سيصل إلى الفجأة الذي هو في مقابل التدرج أو سيصل إلى الثبات الذي هو في مقابل المادية ؟ وهل يصل عالم الحركة إلى هدفه ؟ وهل ذلك الهدف فجائي في مقابل التدريجي ؟ أو هو فجائي غير قابل للتدرّج وليس له شأنية التدرّج ؟ وعلى كل صورة فالقيامة تظهر فجأة ﴿ **تأتيهم الساعة بغتة** ﴾[2] ويقول القرآن

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٧.

الكريم في التعبيرات الأخرى : تأتي الناس فجأة فتبهتهم لا أنها تأتي بالتدريج حتى يستعدّوا لها ، بل تظهر فجأة وتدهشهم ، يرونها بغتة فيتبدّلون ، ويرون النظام فجأة قد تبدّل إلى نظام آخر والعالم إلى عالم آخر ويسدل الستار على كل أبعاد الباطل والاختلاف ويظهر علانية ما كان يخفونه من قبل في أنفسهم ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾[1] وهذا النبأ العظيم ليس تدريجياً بل بغتة وثابت . وقد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الحق لأن الحق ليس أكثر من واحد وهو الله ، ولهذا دعا الناس إلى مبدأ العالم ودعاهم إلى المعاد أيضاً . لأنّ الله قد خلق هذا العالم الواسع بظهور واحد وبظهور آخر سيطوي هذا العالم الوسيع ويخلق بدله عالماً آخر . خلق الله السماوات والأرض بظهور واحد ﴿ طبقاً عن طبق ﴾[2] وسطّح الأرض ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[3] وبظهور آخر يجمع بساط السماوات والأرض ويبدّلها بسماء وأرض أخرى ، وقد ظهرت اليوم باسم ، وستظهر غداً باسم آخر .

وقد دعا رسول الله ﷺ قافلة البشرية إلى مبدأها وإلى مآبها ﴿ إليه أدعو وإليه مآبِ ﴾[4] أنا أدعو إلى الله . لماذا ؟ لأنّه ﴿ إليه مآب ﴾ فهدفه الرجوع إليه لأنّ عود ورجوع القافلة إليه ولذلك أدعو إليه ﴿ أدعو إلى الله ﴾ ومن غير الممكن أن يدعوا الأنبياء الإنسان إلى شيء لا يكون له دور في السير التكاملي للإنسان وأن ينحرف المجتمع البشري إلى جهة أخرى ، بل هم يدعونهم فقط إلى شيء يعيّن جهة حركة سير المجتمعات البشرية وهذه الدعوة على بصيرة ، قد خصّها الرسول الأكرم بهذين الأمرين . فإذا قال : ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن

(١) سورة النساء، الآية: ٤٢.
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ١٩.
(٣) سورة الغاشية، الآية: ٢٠.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٦.

اتبعني ﴾[1] فهو يقول : ﴿ إليه أدعو وإليه مآب ﴾ وليس معناه أنه يدعو إلى حقّين صرفين (وقد قلنا في الأبحاث السابقة أنّ الحق المحض واحد لا يقبل التعدّد) . فالنبي الأكرم ﷺ يدعو إلى الحق المحض والحق المحض واحد ، وذلك الواحد هو مبدأ العالم وهو معاده أيضاً . وإذا كان يوم القيامة يوم الحق فجميع شؤون ذلك اليوم هي حق وزنه وصراطه وحسابه ونشر كتابه وجنّته وناره وكل الشؤون الأخرى حق ، وقد اتّضح أيضاً في الجلسة السابقة بأنّ ذلك اليوم أبدي ولا يكون شيئاً أبدياً غير الحق . إذن سوف لن يكون في ذلك اليوم أمر آخر غير الظهور الكامل للحق . وليس لغير الحق في القيامة مكان لأنّ الباطل لا يكون أبدياً ، ويعرّف القرآن الكريم الإنسان بأنّه موجود أبدي ، ويخاطب أولئك الذين يزعمون بأنّ الإنسان يفنى بالموت قائلاً : لا يذهب أحد من البين أبداً . وأولئك الذين ينكرون القيامة لم يقيموا دليلاً على نفيها . والمنكرون ليوم القيامة وكما جاء حديثهم في القرآن الكريم ينكرون المعاد في حدود التعجب والاستبعاد لا في حدود الاستدلال والآن الأمر كذلك أيضاً فمنكروا القيامة لا يملكون دليلاً على نفي القيامة لكي يقيموه وتعجبهم هو أنهم يقولون : هل يمكن أن يرجع هؤلاء الأموات أحياءً مرة أخرى ؟ فهم يظنون أن الإنسان يفنى بعد الموت . ولهذا عندما ينقل القرآن كلامهم يقول : إنكارهم على سبيل الاستبعاد والتعجب ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ فهم ليس لهم يقين بعدم المعاد . وكلامهم ليس كلاماً يقينياً وبرهانياً ، بل يتعجبون فقط ويقولون : هذا أمر عجيب أن يرجع الأموات أحياء مرة أخرى ، وقد غفلوا أن الإنسان لم يكن شيئاً من الأول ، والله هو الذي أعطاه الحياة والوجود : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٠٨ .

مذكوراً ﴾[1] أي أنّ الإنسان في مرحلة لم يكن شيئاً ، وفي مرحلة أخرى لم يكن شيئاً قابلاً للذكر والله أعطاه الحياة والوجود ، فكيف يقدر هذا أن يفكر ويظن أنّ هذا أمراً عجيباً بالنسبة للقدير المحض والقادر المطلق ؟ ويقول القرآن : إنّكم لا تضيعون بالموت فجنود الله ورسل الموت يتوفّون كل حقيقتكم ، وموتكم ليس فناءً بل وفاة . أي أنّ الملائكة تتوفى كل حقيقتكم أثناء الموت فتكونون متوفين ولا تذهبون من البين ولا يضيع شيء منكم . لا أنّكم وقت موتكم تفنون ثم يحييكم الله من العدم الصرف من جديد . وعلى هذا لا تفنون أبداً بل تنتقلون من مرحلة إلى أخرى . وإذا أراد الله تعالى في يوم القيامة أن يرجع الأشخاص إلى الحياة ثانية فهو قادر على ذلك ، ولكن الإنسان لا يفنى أبداً وهو أبدي . وهناك آيات من القرآن تدل على أنّ الشهيد حيّ ، وهذه الآيات توضح هذه المسألة وهي أنّ روح الإنسان غير قابلة للزوال وهي لا تموت ، وإنما هذا الجسد هو الذي يتلاشى فروح الإنسان أعظم من أن تفنى وتتلاشى . ويقول القرآن الكريم حول الشهيد : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون** ﴾[2] ، لا تقولوا عن الشهداء أنهم أموات بل أحياء ولكنكم لا تعلمون ، وأنتم لا تدركون موضوع بقاء روح الشهيد لأنّه دقيق وأدقّ من الشعر . وكذلك يقول عندما ينقل خلود روح الشهيد : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون** ﴾[3] وقد يرزق الشهيد الشهادة عن طريق الاحتراق بالنار ، وأحياناً عن طريق إصابة جسده برصاصة تنقله من الحياة الدنيا ، وأحياناً حينما يكون طعمة لأمواج طوفان البحر ويغرق ، أو بأي سبب آخر ، ولكن الشهيد مع ذلك حي . والآيات المذكورة دليل على تجرّد

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

روح الشهيد . ولكن هل الحياة بعد الموت مختصّة بالشهداء أم لا ؟ وبما أنّ الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام أعظم من الشهداء وهم قطعاً أحياء بعد الموت يرزقون عند الله . إذن فأرواح الأنبياء والشهداء حيّة أيضاً . وعلى هذا فإنّ الأنبياء وأولياء الله والشهداء أحياء عند الله جميعاً . ولكن ما هو حال المؤمنون الآخرون ؟ وهل الشهادة تسبب تجرّد الروح ؟ وهل أنّ روح الشهيد قبل أن يرزق الشهادة بلحظة كانت مادية وتحوّلت بعد الشهادة إلى مجرّدة حتى يقال أنّ الشهيد حي وغيره يذهب من البين بالموت ؟ وهل الشخصان اللذان يذهبان إلى ميدان القتال روح أحدهما مادية وروح الآخر مجرّدة ؟ أو أنّ روحيهما ماديتين ولكن روح ذاك الذي استشهد تصير مجرّدة ؟ أو أنّ روح الشهيد مادية مثل روح غيره ولكنّ هذه الروح المادية لها حياة بعد الموت ؟ فهل الأمر هكذا أم أنه ليس شيئاً من هذه الاحتمالات ؟ بل أن روح كل إنسان مجرّدة ؟ وإذا كان إنسان طعمة للنار المحرقة مثل مؤمني أصحاب الأخدود الذين أحرقوا في الأخدود وتحوّلوا إلى رماد فهل بقيت ذرة من ذرات أبدانهم لتكون هي حقيقتهم ، ولتحيا هذه الذرة عند الله وتُرزق أم لا ؟ وهذا الجسم الذي احترقت كل ذراته لا يصل أثر إلى روحه وتبقى روحه حيّة ، وهذه الروح المجرّدة تبقى حيّة عند الله تُرزق ؟ فمثلاً روح الشهيد في البرزخ وفي القيامة الكبرى ترجع ثانية إلى البدن وتحصل لها حياة جديدة في نفس البدن الدنيوي ، فهل هذه الروح الحيّة بعد الموت مادية وهي عند الله ؟ وإذا كان الأمر كذلك فلازمه أن تكون ساحة قدسه سبحانه مادية ، ولازم ذلك أن يكون الله ـ معاذ الله ـ مادياً أيضاً . وإذا كان شيء مادياً فالذي عنده والذي قربه مادي أيضاً . هذه الآيات تقول : روح الشهيد حيّة يعني أنّه مع فناء جميع ذرات البدن فلا يصل إلى روحه أي أذى وألم . وفي أي وقت يستشهد فيه الإنسان بأي سبب من أسباب الطبيعة

كالماء أحياناً والنار أخرى أو أي سبب من أسباب الموت الأخرى فروحه حيّة حتى إذا احترقت جميع ذرات بدنه فإنّ روحه تبقى حيّة . وهذا ليس نظير شبهة الآكل والمأكول ليُجاب عليها بأنّ الأجزاء الأصلية لبدن أي شخص لا تكون جزءاً من بدن أي متغذّي . كلا حتى إذا احترقت جميع ذرات البدن وتحوّلت إلى رماد فلا يمكن القول بأنّ حقيقة الإنسان سلسلة الذرات غير المحترقة . فإنّ هذا يتنافىٰ مع المشاهدات والمحسوسات والبديهيات . إذن روح الشهيد حيّة حتى مع ذهاب جميع ذرات البدن من البين . وفي النتيجة فروحه مجرّدة . وهذا البقاء بعد الموت غير مختص بالشهداء . فمنزلة الأنبياء والأئمة عليهم السلام أعلى من منزلة الشهداء فهؤلاء أيضاً أرواحهم مجرّدة . وتجرّد الروح غير مختصّ بالشهيد لأن الشهادة لا تبعث على تجرّد الروح . وكذلك أيضاً لا يمكن قبول القول بأنّ روح الشهيد مادية وتتحوّل إلى مجرّدة بعد الاستشهاد بلحظة . بل للإنسان روح مجرّدة . والإنسان بالموت إمّا في روضة من رياض الجنة أو في حفرة من حفر النيران وإمّا أن تكون روحه في البرزخ متنعمة مع بدنه البرزخي أو أن تعذّب مع بدنه البرزخي حتى يوم القيامة الكبرى حيث يحيي الله تعالى تلك الحالة الأولى . وإذا صار الكافر السيّىء الظن طعمة لطوفان البحر وبقي جسده بارداً في قعر ذلك البحر فروحه في جهنّم . ونار البرزخ نار تحرق في داخل طوفان البحر ، يقول الله حول قوم نوح : ﴿ ممّا خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً ﴾[1] أغرق قوم نوح على أثر ذنوبهم القديمة ، وبعد الغرق أحرقوا بالنار . وهذا الترتيب في الآية بالفاء لا بـ «ثم» يعني أنهم أحرقوا بعد الغرق مباشرة . وهؤلاء الكفار الذين كانوا طعمة لغضب طوفان البحر صاروا طعمة للنار بعد برد أجسادهم في أعماق أمواج الطوفان الرهيبة . وهذه النار البرزخية موجودة في البحار أيضاً

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٥.

وإذا مات أحد في البحر وكان كافراً مذنباً سيّىء الظن فليس معناه عدم وجود حفرة للنار هناك . كما أنّ المؤمنين من أصحاب الأخدود الذين أحرقوا بالنار في تلك الحفرة وتحوّلوا إلى رماد فليس معناه أن لا تكون تلك الحفرة لهم روضة من رياض الجنة « إنّما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران »[1] . والقبر الذي هو البرزخ إما بستان أخضر أو حفرة من حفر جهنّم . ويقول في سورة نوح أيضاً عن أولئك المذنبين الذين أغرقوا بالطوفان : ﴿ **أغرقوا فأدخلوا ناراً** ﴾ وكذلك المؤمنون من أصحاب الأخدود الذين أحرقوا بالنار كان برزخهم وقبرهم « روضة من رياض الجنة » . وليس كل وجود الإنسان هو ذلك البدن الذي تخضع جميع أجزاءه للتشريح في قاعات المختبر ، أو ذلك البدن الذي تضيع ذراته في الأرض ليقول منكروا المعاد : «أإذا ضللنا في الأرض أإنّا لمبعوثون » ويقول الله في جوابهم : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم** ﴾[2] فملك الموت الموكّل بقبض أرواحكم يتوفى كل حقيقتكم ، فأنتم تتوفّون ولا تفنون ، وليس في العالم فناء ، وذلك الذي يتوفاكم يستوفي جميع حقيقتكم ولا يُبقي شيئاً منكم : ﴿ **توفته رسلنا وهم لا يفرطون** ﴾[3] ويقبض ملائكة الموت حقيقة الميت بحيث لا يهملون شيئاً منه .

إذن وفقاً لآيات سورة البقرة وآل عمران تجرّد روح الإنسان حقيقة . وهذا ليس مختصّاً بالشهيد ، فأولئك الذين لهم أرواح أعلى من أرواح الشهداء أو أنزل أو مساوية لها لهم أرواح مجرّدة ، ولكن التجرّد له أقسام ومراتب . والإنسان بعد الموت ضيف سماطه الذي أتى به إمّا ينقله إلى

---

(١) الجامع الصغير: ج ١، ص ٦٣.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

روضة الجنان بالرغم من شهادته على يد الكفار في نار الدنيا ، أو في غموم حفرة من حفر النيران بالرغم من وفاته في بستان من بساتين الطبيعة الجميلة ، أو في غموم لهيب النار البرزخية في أعماق البحر وداخل الماء . وهذه إشارة إلى أن الإنسان ليس فقط هذا البدن الخاضع للتشريح في المختبرات . ويقول القرآن الكريم لإثبات أنّ الإنسان بموته يعبر ناحية من نواحي العالم ويدرك ويصل ناحية أخرى منه ويدخل فيها : ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾[1] فبعد الموت وترك الطبيعة والدنيا هناك حياة وسطى بين الدنيا والقيامة الكبرى ، قيامة صغرى إلى يوم القيامة والبعث العام ، وذلك في حد الحياة البرزخية .

إذن فجميع الناس أحياء ، وأحياء على كل حال ، والإنسان دائماً في حالة السير والسلوك . ولا يمكن أن تفنى قافلة الإنسانية المتحركة في وسط الطريق . وليس معنى الموت تخلل العدم بين المتحرك والهدف لتفنى هذه القافلة في وسط الطريق وبعد العدم يخرج رأسه من العدم ، أي أنه لا فاصلة عدمية بين هذه القافلة وهدفها ليكون الموت مضيقاً تكون القافلة الإنسانية في هذا الطرف منه ويكون الهدف في طرف المضيق الآخر ، بل الموت سير هذه القافلة إلى جهة الهدف . وإذا كان قد جاء في الروايات هذا التعبير : « إنّما تنتقلون من دار إلى دار » فأصلها القرآني هو قول القرآن : ﴿ **إلى ربّك يومئذٍ المساق** ﴾[2] فالقرآن حين يفصّل احتضار الإنسان يقول : ﴿ **كلا إذا بلغت التراقي * وقيل من راق * وظنّ أنّه الفراق * والتفّت الساق بالساق * إلى ربّك يومئذ المساق** ﴾[3] ، أي عندما تصل النفس إلى الحلقوم وتلتف

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة القيامة، الآية: ٣٠.

(٣) سورة القيامة، الآيات: ٢٦ ـ ٣٠.

ساقاه ببعضهما يفهم المحتضر أنّه ﴿ إلى ربك المساق ﴾ لحظة الموت ويوم الانتقال من العالم إلى البرزخ ، سوق إلى الله وسير إلى جهة الله . إذن فلا فناء في البين أصلاً بل توفي ووفاة . ويساق الإنسان في لحظة الاحتضار والتحرر من الجسد إلى الله ، وتستمر هذه الحركة إلى دار القرار ، إلى الله ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[1] مقرّ حضور الله . والدنيا ممرّ ومحل عبور ، وقد جاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الدنيا مجاز ومنطقة عبور وأنّ الآخرة دار القرار : « خذوا من ممرّكم لمقرّكم »[2] هذا العالم دار عبور ، ومكان الهدوء هناك ، وكل إنسان يصل إليه ويهدأ فيه ، والتعبير بأن القرار والمستقر هناك ، والسوق في حالة الاحتضار إلى هناك يدل على أن الإنسان لا يفنى . وليس الموت بمعنى الفناء والفاصلة بين هذه القافلة الإنسانية التي هي في حالة حركة وبين هدفها ، بل تستمر هذه المسيرة هكذا ، ومن الواضح أن استمرار المسيرة واستمرار الحياة لا ينسجم إلاّ مع تجرّد روح الإنسان الذي يتحرر بالموت من هذا البدن الدنيوي ، ويرحمه الله تعالى في البرزخ البدني المتناسب معه والهادىء ، ليرتبط هذا الشخص مرّة أخرى في القيامة الكبرى مع بدنه الأول بإذن الله . وإذا كان هذا الارتباط غير منفصل ومستمر فلا ينسجم مع مادية الروح . وتوجد في القرآن الكريم أدلة أخرى لتجرّد أرواح الأنبياء والأولياء ، فهناك عندما يتنزّل الروح الأمين هناك حيث موضع تلقي وحي الله الذي هو القلب المطهر لرسول الله : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾[3] قلب الرسول الأكرم محل هبوط ملائكة العلم لا يمكن أن يكون مادياً . وذلك القلب الذي هو لطيفة إلهية حقيقة كل إنسان مرتبطة به ، فهو الذي يرتكب

---

(١) سورة القيامة، الآية: ١٢.

(٢) نهج البلاغة: (صبحي الصالح)، ص ٤٩٣.

(٣) سورة الشعراء، الآيتين: ١٩٣ ـ ١٩٤.

الخطيئة ، وهو الذي يحوي العقائد المخالفة ، فإذا كتم الشهادة الصادقة في محكمة العدل فهو يرتكب خطيئة : ﴿ ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه ﴾[1] فالذنب ليس أمراً مادياً ، وقلب المذنب لا يمكن أيضاً أن يكون أمراً مادياً . واختلاف العقيدة والتفكير وتحصيل العلم وتغيير الطريق كل هذه الأمور أعمال الفكر والقلب والعقل لا يمكن أن تكون مادية .

والخلاصة بما أن القرآن الكريم يعرّف هذه الأمور بأنّها واقعة في وسط الطريق ، إذن لا يوجد أي فناء في البين . وبما أنّه لا يوجد فناء في البين فهذا الخلود لا يتلاءم مع حقيقة الإنسان المادية ، إذن فالإنسان بالإضافة إلى جسده المادي يمتلك روحاً مجرّدة . والمسائل العقلية التي أقيمت لإثبات تجرّد الروح في نظر القرآن الكريم وأقوال المعصومين عليهم السلام غير الأبحاث العقلية والاصطلاحية التي محل الكلام فيها مستقل وبحث التفسير الموضوعي يستقل عنها . وإذا كان نظر القرآن الكريم هو أنّ لكل إنسان برزخ ، وإذا عرف أرواح الشهداء بأنها حيّة ، وإذا كان القرآن الكريم يثبت تجرّد الروح للشهداء وقائل بثبوتها بالنسبة لمن هم أسمى من الشهداء وهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وإذا كان من غير المعقول القول بأنّ الشهادة تبعث على تجرّد الروح فتكون الروح مادية قبل الاستشهاد بلحظة ثم بعده تتحول إلى مجرّدة وأمثال ذلك ، فكل هذه علامات على تجرّد الروح الإنسانية ، وهذه الروح المجردة التي كل من عرفها أفضل عرف ربه أفضل ، لا فقط « من عرف نفسه عرف ربّه »[2] . بل « أعرفكم بربكم أعرفكم بنفسكم » وهذا مطابق للبرهان الإنّي وللبرهان اللمّي معاً ، أي من كان أعرف بربّه كان أعرف بنفسه ، أو كل من كان أعرف بنفسه كان أعرف بربّه .

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٢٨٣ .

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم : ج٥ ، ص١٩٤ .

وهذه كلّها دلائل على بقاء روح الإنسان وخلودها ، وذلك ملازم أيضاً لتجرّد الروح .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الدرس
الرابع
عشر

التعرف إلى طريق المعرفة وطريق التقوى

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمّد وآله الطاهرين .

يرى القرآن الكريم بأنَّ تهذيب وتربية روح الإنسان شرط ورهن معرفته . والإنسان بمقدار معرفته واطّلاعه يستطيع نيل الرشد وبمقدار إدراكه وبصيرته يستطيع أن يكون كاملاً . وإن لم يكن صاحب بصيرة وإطلاع فلا يستطيع أن يكتشف الطريق ولا يستطيع تشخيص الهدف . ويجب عليه أن يكتشف الطريق ويتحقّق من الموانع ليهاجر على ضوء هذه المعارف ويصل إلى الهدف . إذن أهم أسباب رشد الإنسان إطلاعه ومعرفته ، وأقوى الأسباب المؤثّرة في تكامله بصيرته ويقظته . ومن الممكن أن يحصل على هذه المعرفة والعلم عن طريق الدرس والبحث والمدرسة والقراءة والكتابة وأمثال ذلك كما من الممكن أن يحصل عليها عن طريق تهذيب النفس والعبادة والتقوى وتطهير الروح من تلوث الطبيعة وأمثال ذلك . فتارة يحصل عليه عن طريق الداخل ، وأحياناً عن طريق السمع والبصر . تارة عن طريق القلب والشهود ، وأخرى عن طريق الدرس والبحث والفكر . وقد

بيّن القرآن الكريم هذين الطريقين وشخّص علاماتهما . وبيّن كيفية الاستفادة من كل منهما ، ووضّح خصائص طريق القلب .

واستعمال الطريق الأول الذي هو طريق الدرس والبحث والسمع والبصر والفكر مفيد ومؤثر . ولكنّه يقبل التخلّف . وأمّا طريق القلب فتأثيره أكبر ولا يقبل التخلّف أو يقبله بدرجة ضعيفة جداً . وقد طرح القرآن الكريم في بعض آياته كلاً من هذين الطريقين على حدة وبصورة مستقلة ، وأشار في آيات أخرى إلى كلا الأمرين معاً من أجل أن يفصل ويشخّص كل طريق عن الآخر ويبيّن أنّهما ميسّران وأن بينهما علاقة وارتباط أيضاً .

وقد أكّد القرآن الكريم على الطريق الأول الذي هو طريق الدرس والبحث والسمع والبصر والفكر وأمثال ذلك لأنّه أسهل من الطريق الثاني وأسرع وأعم ، والدعوة إلى التدبر والتعقّل والتفكير ، وإعطاء قيمة وأهمية للسمع والبصر ، وتشجيع العلم والتعليم والتعلّم . هذا كله نماذج عن اهتمامات القرآن بالطريق الأول يقول : لماذا لا تفكّرون في عالم الخلقة ؟ لماذا لا تتدبّرون في آيات العالم ؟ لماذا لا تتعقّلون النظام الكلّي ؟ لماذا لا تفكّرون بدقة في ماضيكم وحاضركم ؟ فمثل هذه الآيات ترغّب في التفكير ، وبعد أن أعطانا الله سبحانه أدوات التفكير من السمع والبصر والفكر وعرّفنا بهذه الآلات قال : ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾[1] أعطاكم السمع والبصر لتكون المعارف في متناولكم عن طريق القراءة والكتابة والذهاب للدرس والمطالعة ، وكذلك أعطاكم الفؤاد والقلب لتتفكروا وتتذكّروا تلك المعارف . فبعد أن بيّن أهمية السمع والبصر والفؤاد رغّب في استعمال هذه الأدوات وتساءل عن علة عدم الاستفادة منها . وهذا النوع من الآيات كثير . فيقول أحياناً : لماذا لا

---

(١) سورة السجدة الاية : ٩ .

تتفكّـرون فـي أنفسكـم ؟ ويقـول أحيـانـاً : لمـاذا لا تفكّـرون فـي النظـام الخارجي ؟ والتحقيق في الآيات التي تحثّ على التفكير والعلم والتدبر دلائل على اهتمام القرآن بالطريق الأول .

وأمّا الطريق الثاني الذي هو طريق القلب لا طريق المدرسة والدرس والبحث ، طريق العمل لا طريق العلم ، طريق الكشف لا طريق القول والكتابة ، طريق الشهود لا الاستماع والكتابة والقراءة وأمثال ذلك . فبما أنه طريق صعب وقليل من الأفراد يستطيعون الوصول إليه وسلوكه فقد بيّن القرآن هذا الطريق للأوحدي من البشر والخاصّين من أولياء الله والأشخاص الممتازين من البشر ، وحذّر من صعوبته نعم غايته أن فائدته كثيرة والتخلّف فيه قليل أيضاً . وفي سورة الأنفال بيان لهذا الطريق يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيّئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم** ﴾[1] وأفضل خطاب من الله للبشر في القرآن هو هذا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ حيث يخاطبهم بعنوان أنّهم مؤمنون ، بعنوان اعتقادهم بالله . يا مؤمنوا العالم ، أيها المعتقدون بالمبدأ والمعاد ، أيها المعتقدون بالله ورسوله والقيامة ، يا من تنوّرت أرواحكم بهذا الاعتقاد ، إذ عملتم وفقاً لهذا الاعتقاد وإذا نقلتم خطاكم في طريق العقيدة هذا ، وإذا راعيتم التقوى فإنّ الله تعالى يغفر لكم معاصيكم السابقة وتكونون في مستقر رحمته الخاصّة ويعطيكم نوراً تفرّقون على ضوئه بين الحق والباطل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾ إذا اتقيتم الله وحفظتم أنفسكم عن التمرد على أوامر الله وتركتم الذنوب تعظيماً لله وأطعتم الأوامر الإلهية تعظيماً لحرمة الله أو تركتم ما خالف العقل تعظيماً لحرمة الله ﴿ **إن تتقوا الله** ﴾ إذا حسبتم لله حسابه وسعيتم للطاعة وترك العصيان ، في سبيل رضا الله لا

---

(١) سورة الأنفال، الآية : ٢٩ .

تعصون ، وفي سبيل رضا الله تطيعون ، وليس في أهداف أعمالكم شيء غير الله ، فإنّ الله يعطيكم هذه البركة : ﴿ **يجعل لكم فرقاناً** ﴾ يجعل الله لكم نوراً تفرّقون على ضوئه بين الحقّ والباطل . أي إذا اشترك أحد في مدرسة التقوى وتخرّج من هذه المدرسة تقياً وصادقاً فسوف لا يبقى متحيّراً في تشخيص أي أمر ، ولن يتلكأ في أي أمر ويبقى متحيراً فيه ، فلا يبقى متحيراً في أمر فكري ، ولا في المسائل العملية ، ولا يكون متردّداً في المسائل الاجتماعية . إذن لن يبقى متحيّراً في أي أمر لأن التحيّر أثر الجهل ، فالجاهل متحيّر . وإنما يبقى ذلك الشخص الذي لا يعلم بينما يتحرك ذلك الذي يعلم . فالتحير والتردّد من أثر الجهل ، وإنما يتخلف ذلك الشخص الذي لا يعلم ما يضرّه وما ينفعه وما يضرّ المجتمع وما ينفعه ، ويبقى ذلك الشخص الذي لا يفهم الخير والشر . ويتردّد ذلك الشخص لا يميّز بين الحق والباطل . ولكن لا يتخلف ذلك الشخص الذي يميّز بين الحق والباطل والخير والشر والنفع والضرر والسعادة والشقاء . والتحيّر والتردّد أو الرجوع هو من أثر الجهل حيث لا يعرف الإنسان الخير من الشر . وإذا ارتكب أحد أمراً قبيحاً من أجل إرضاء هواه مع علمه بأنّ هذا الأمر حسن وهذا الأمر قبيح فهو جاهل من بُعد آخر . لأنّ علمه هذا ليس تاماً مائة في المائة فهو يظن بأنّ اللذّة الآنية ترمّم خساراته في المستقبل ، ويظن بأن تحمّل متاعب المستقبل لأجل اللذّة الآنية أفضل . ولكن إذا فهم المعنى الآتي وهو أن يعلم أنّ المستقبل مملوء بالمتاعب وغير قابل للتحمّل ، وأنّ ذلك الشقاء المستقبلي راجح على اللذّة العابرة فسوف لن تمتد يده إلى الفساد أبداً ، وليس في مثل هذه الموارد علم قطعي . يقول أمير المؤمنين عليه السلام : لا تصيّر علمك جهلاً وإذا علمت فاعمل . أي أوصل علمك إلى درجة اليقين . وعلى هذا فكل تحيّر ورجوع هو أثر الجهل .

ويقولْ القرآن الكريم : **يجب أن يمتلك البشر فرقاناً لكيلا يكونوا أسرى التحيّر** والتردّد بين البقاء أو الرجوع إلى الخلف ويستمروا في طريقهم التكاملي ، أي يكون لديهم ذلك النور الذي يفرّقون به بين الحق والباطل وبين الحسن والقبيح ويضيء مصباح النور هذا بمفتاح التقوى . يقول : إذا كنتم تتحلّون بالتقوى فسيكون ذلك النور من نصيبكم . وإذا عملتم بالأشياء التي تعلمونها فستتضح لكم تلك الأشياء التي لا تعرفونها . وإذا ذهبتم بمقدار ما تستطيعون فستعطون القدرة على الذهاب في الطرق الكثيرة الالتواءات والانحناءات وإذا سرتم بمقدار ما تستطيعون فستعطون القدرة على اجتياز العقبات الكؤود . ولن تتخلّفوا أبداً ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾[1] والله لا يخلف وعده أبداً . . إذن طريق التقوى لا يقبل التخلّف ، مع أنّ في الطريق الأول الذي هو طريق الفكر احتمال التخلّف موجود لأنّه من الممكن أن يدرس البعض ولا يصيروا علماء ، ومن الممكن أن يصيروا علماء ولكن لا يستطيعون حفظ علمهم والوصول إلى درجة معيّنة ﴿ **لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً** ﴾[2] ويصل إلى أرذل العمر ويقول : « كل ما قرأته قد نسيته » ولكن ثمرة طريق التقوى هي أن الإنسان يقول : « ليس إلاّ حديث الحبيب أكرّره » .

لماذا لا يذهب حديث الحبيب عن ذاكرة الإنسان ؟ لأنّه حاضر دائماً . وليس طريق التقوى طريق يكون الفرقان إلى جانبه مرّة ولا يكون إلى جانبه أخرى . وهو ليس مثل طريق المدرسة فمرّة يحصّل على العلم والفكر وأخرى لا يحصّل على شيء . وهو ليس طريق الكتاب والكتابة فيكون الفكر الصحيح إلى جانبه تارة ولا يكون إلى جانبه أخرى . وهو ليس طريق البحث

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

والدرس ليحصل على الفكر مرّة ولا يحصل عليه أخرى . هذا طريق التقوى الذي تكون نتيجته حتمية وبقاءها حتمياً ، فليس من الممكن أن يكون أحد صاحب تقوى وليس عنده نتيجة التقوى ، وليس من الممكن أيضاً أن يذهب ما حصل عليه من طريق التقوى ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾ لأنّ التقوى منظِّف لصفحة الروح ، وجلاء لمرآة الروح . فإذا كانت هذه المرآة خالية من الصدأ . وإذا انجلت صفحة مرآة القلب وإذا أصبح وجه الروح بلا نقاب فستظهر أسرار العالم له . وبما أنّ عالم الصور المتنوعة هي لذلك الرسام الأزلي وصفحة مرآة القلب أيضاً شفافة ولاقطة ، ذلك المعلم دائم الفيض وذلك المتعلم أيضاً متهيىء وقابل ، ولهذا فإنّ فيوض طريق التقوى التي تكون من نصيب القلب قطعية ودائمية ، وهذه الآية قد تضمّنت الفيض القطعي المخصوص وكذلك دوامه ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾ . كما أنه في سورة ٦٥ عندما يبيّن مردود التقوى يقول : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾[1] أي أن كل من يراعي تقوى الله لا يتحيّر في حياته أبداً ، وطريق الخروج من كل أمر عسير وشاق مفتوح له . الإنسان المتحيّر هو الذي يبقى في المدار المغلق . الإنسان المتحيّر هو الذي يقول عنه القرآن بعنوان العذاب الأليم : ﴿ **فهم في ريبهم يترددون** ﴾[2] الإنسان المتحيّر هو الذي يتردد في بحبوحة ريبه . والإنسان المتيقن والمتقي يستمر في طريق تكامله ، وأما الإنسان المتحيّر فمحصور في مدار الطبيعة المغلق وكل طريق يتجه إليه للخروج منه يراه مسدوداً فيرجع القهقرى . وأحياناً يمرّ الإنسان من طريق ولا يرجع منه ثانية ، وأحياناً يصل إلى طريق مسدود فيرجع ثانية منه ويختار طريقاً آخر فيراه

---

(١) سورة الطلاق، الآيتين: ٢ ـ ٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٥.

مسدوداً أيضاً ويرجع من هناك أيضاً . وهذا الرجوع المتكرر يُقال له ترديد . يقول القرآن الكريم : إنّ أولئك الضالون المحرومون من طريق القلب كلما أرادوا الخروج من طريق وجدوه مسدوداً أمامهم فيرجعون مرة أخرى ، فهم محصورون في حفرة الشك والتردّد ﴿ **فهم في ريبهم يتردّدون** ﴾ والكفار والمنافقون في شكوكهم الداخلية يتردّدون ولا طريق لهم للخروج من حفرة الشك ولكن طريق النجاة للإنسان المتقي مفتوح . لأنهم يرون الهدف ويتذوقون لذّة السير فيه أيضاً ، فالطريق مفتوح والهدف واضح أيضاً ، يرون الطريق ويعرفون الهدف أيضاً ، لهذا يقول : ﴿ **ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً** ﴾[1] فالله يهيّىء له الخروج من كل عويصة ولا يبقى متحيّراً ومردّداً أبداً . لا يتعب لأنّ الطريق دائماً جديد ولذيذ ، ولا يبقى متحيّراً لأنّ الطريق واضح والهدف يجذب السالك للوصول إليه ، وذلك السبب الغيبي الذي يوجد الجذب في داخل السالك ، والشيء الذي يوجب السعي من ناحية السالك كما يوجب الجذب من جهة الهدف هو التقوى ، يقول : أعطاكم الله الفرقان الذي تفرقون به بين الحق والباطل . وأوضح لكم طريق الخروج من كل أمر صعب .

ولهذا فإنّ أهل التقوى في الوقت الذي يرون فيه الهدف يرون فيه الطريق أيضاً . فيكتشفونه ويصلون بسهولة ، وإذا كنتم تريدون أن تكونوا أشخاصاً مؤمنين فاصعدوا إلى الأعلى فالطريق مفتوح : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾[2] . وإذا كنتم تريدون الاستمرار في مسير الحق فالطريق مفتوح ﴿ **يجعل له مخرجاً** ﴾ . ولكن عندما يريد الغرباء الصعود إلى أعلى فمثلهم كمثل الإنسان الذي يريد الطيران في الفضاء : ﴿ **كأنّما يصعّد في**

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

السماء ﴾[1] ولهذا فليس من مقدورهم الاستمرار في هذا الطريق فيضطرون إلى السقوط أنهم ﴿ **عن الصراط لناكبون** ﴾[2] ينحرفون عن الطريق : ﴿ **ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى** ﴾[3] يقول : لا تعصوا ولا تطغوا فيحلّ بكم غضب الله ، وكل من يستحق غضب الله يسقط ، فهو قد أغلق الطريق على نفسه ، كما في أولئك الذين ﴿ **فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم** ﴾[4] قست قلوبهم بسبب بُعد الفاصلة عن زمان الوحي والعمل الصالح ، وعندما يقسو القلب ويغلق طريقه لا يبقى طريق للخروج لأنّه من يريد أن يتحرّك فيجب عليه أن يتحرّك في مسير القلب .

وطريق الإنسان السالك ليس إلاّ روحه وليس مكاناً آخر . وهذا السفر ليس سفراً سماوياً أو أرضياً ليسافر الإنسان في السماء أو يرحل في الأرض . هذا السفر سفر في حريم الروح يتحرك فيه الإنسان في طريق القلب . وكل صفة جديدة يحصل عليها الإنسان هي خطوة جديدة ينقلها في المسير إلى الله . لأنّ الطريق إلى الله هي الروح البشرية ، وتتوفّر هذه الصفات الفاضلة للإنسان السالك الواحدة تلو الأخرى ليعبر من خلالها إلى أن يصل تلك القمة الرفيعة للروح . وإلا فإن هذا الوطن ليس مصر ولا العراق أو الشام وليس هو أيضاً طريق سماوي أو أرضي ، هذا السير ليس سيراً في الأرض وليس سيراً في السماء ، بل سير في ذات روح الإنسان ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾[5] والإنسان الذي يعيش في الدنيا على شكل فرد سيكون بعد الموت بصورة قافلة وتحشر معه جميع أعماله وعقائده وأخلاقه ونيّاته ،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥ .
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧٤ .
(٣) سورة طه، الآية: ٨١ .
(٤) سورة الحديد، الآية: ١٦ .
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠٥ .

ولهذا ستكون معه قافلة ، وتسير هذه الروح إلى الله . إذن المسار هو درجات الروح . وطريق الإنسان السالك هو نفس درجات روحه . الطريق كمالات النفس . والإنسان السائر في هذا الطريق إذا عمل بكل ما يعلم فسيكون الطريق له مشخّصاً والهدف مبيّناً : ﴿ **ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً** ﴾[1] ولا يبقى في الداخل أبداً ، يقول في سورة الأنعام . بعضهم متحيّرون ﴿ **له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا** ﴾[2] ويدعوه أيضاً آخرون ولكنه متحيّر ، فهذا الإنسان الذي لا يعرف الطريق ولا يرى الطريق ولا يزن الهدف تحيّره تحيّر مذموم . ولكن عندما يراعي التقوى ويعمل بكل ما يعلم به فسوف لا يخدع نفسه ولا يخدعه الآخرون وسوف يطوي الطريق بإخلاص . وبعد هذا سيكون قطع ما تبقى من الطريق ورؤية بقية المسير أمراً ميسوراً له ، وكذلك سيرى قطّاع الطريق ويطردهم ويعرف طريق الرشد ويتّبعه وسيطوي هذا الطريق بسهولة ، وسيعبر من الصراط المستقيم الذي هو أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف . وإذا أراد الإنسان أن يكون مسلّطاً على نفسه ويتحرك على ضوء العدل والقسط فيجب أن يعلم بأنّ هذا الصراط دقيق إلى درجة أنّه أدق من الشعر وحادّ إلى درجة أنّه أحدّ من السيف . لقد مثّل لنا الصراط بهذا المثال وبيّن لنا بهذا البيان والإنسان ما لم يجربه لا يدرك كم هو صعب وكيف هو أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف . ولكن ما لم يجعل نفسه في مجال الامتحان الإلهي لا يدرك صحة كونه أدق من الشعر وأحدّ من السيف عندما يتحرر من نفسه ومن تعينات الطبيعة : ﴿ **اثاقلتم إلى الأرض** ﴾[3] سوف لن يكون ثقيلاً ولا توجد عنده ميول إلى التراب ، يصير رقيقاً ودقيقاً ومن أهل الشعور . وأهل الشعور يرون المطلب الذي هو دقيق

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧١ .

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٨ .

مثل الشعر ويكتشفون الطريق الذي هو دقيق كالشعر . ويستطيع أهل الشعور بما يمتلكون من دقة النظر أن يروا الطريق الدقيق فهم غير متحيّرين في رؤية الطريق . وأولئك الذين هم مخفون والمتقون والذين ارتفعوا عن الأرض قد نجوا من معبر جهنم الطبيعة الحاد فذلك السيف الحاد لا يصيبهم بأذى ، إنّهم يعبرون الصراط بسرعة ولا يتخلفون أبداً ﴿ **ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً** ﴾ وعندهم أيضاً هذا المشعل الفرقاني المضيء ، وطريق الخروج من كل أمر صعب مفتوح أيضاً . فعندهم النور وعندهم الطريق أيضاً فهم يبصرون كما أن الطريق مفتوح أيضاً أمامهم . الطريق واسع والنور قوي أيضاً . وإذا كان السالك روح والمصباح المنور في داخل الروح ودرجات الطريق نفس الروح ، فحينئذ سيكون طي الطريق ميسوراً : ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾[1] وعلى ضوء البيان الذي أمر الله به رسوله الأكرم ﷺ في سورة الإسراء بعنوان الدعاء ـ أن يدعو هكذا : ﴿ **وقل ربّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق** ﴾[2] قل لتكن كل قدم أنقلها وكل خطوة أخطوها في هذا الطريق وفي جميع شؤون هذا الطريق صادقة ، فلا أتحيّر في وضع القدم ولا في رفعها ، أرى الطريق وأضع القدم في مكانها ، وأرى الهدف أيضاً وأخرج إلى جهته . ومثل هذا الإنسان الذي لا يتحيّر في وضع قدمه ولا في رفعها لأنّ نور الفرقان بين الحق والباطل معه : ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾[3] وإذا كان له تقصير في الماضي فإنّه سيرى هذا التقصير بواسطة هذا النور ويعفو عنه الله تعالى وإذا كان خائفاً من المستقبل فإن هذا الخوف يتحول إلى أمن بواسطة هذا النور وغبار الماضي يغسل بهذا النور ، وهذا هو طريق القلب الذي لا يقبل التخلف ولا

---

(١) سورة القمر، الآية : ١٧ .

(٢) سورة الإسراء، الآية : ٨٠ .

(٣) سورة الأنفال، الآية : ٢٩ .

الاختلاف . لا يترك الإنسان في شيخوخته ولا ينعدم مدّة عمره ، لا يعطي لنفسه شكلين ، لا يتخلّف ليترك الإنسان في وقت ما ، ولا اختلاف له ليلاقي الإنسان بوجهين . وبما أنّ النور ليس له إلا وجه واحد فالصدق والقسط والعدل ليس له إلاّ وجه واحد ، ولهذا فإن لسان أهل المدرسة هو : « أنّ كل ما قرأته قد نسيته » . ومن الممكن أن لا يكون طريق المدرسة قادراً على إعطاء الأجوبة المقنعة في سن الشيخوخة . ومن الممكن أن لا يستطيع ذلك الكتاب أن يحفظ الإنسان العجوز ممتلئاً بالعلم . ولكن التقوى لها هذه الميزة إذ لا تنفصل عن الإنسان المتقي والعابد أبداً ، ولسان أهل التقوى هو : « ليس إلاّ حديث الحبيب أكرّره » والإنسان لا ينسى حديث الحبيب لأنّه يكرره دائماً . والذي يوليه القرآن الأهمية الكبرى هو الطريق الثاني . ويعرّف الطريق الأول بأنّه مقدمة ، ويعرّف الدرس والبحث بأنها أدوات العمل ، ويعرّف القراءة والكتابة والكلام والاستماع بأنّها وسائل لكي يأتي الإنسان إلى طريق القلب ويتحرّك من طريق التقوى . أي أن يعمل بكل ما يعلم به وأن لا يكون هدفه من هذا العمل سوى رضا الله ، وأن يمتحن نفسه بأنه هل يستشعر بالفرح واللذة حينما يذكر الآخرون عمله ؟ فإن كان كذلك فليعلم بأنّ هدفه غير خالص وإذا أدّى هذا العمل شخص آخر غيره فغضب لأنِ لم يؤده ولم يذكر هو لماذا أدّى غيره هذا العمل وطُرح اسم غيره فيتضح بذلك أنه لا يريد الله . امتحنوا أنفسكم دوماً ولا تغفلوا عنها أبداً . لأنّ أي لحظة يغفل فيها الإنسان عن نفسه يهجم عليه شيطان الوسوسة عن طريق الغفلة كما تقدم ذلك في المباحث السابقة : ﴿ **إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾[1] أي أن الشيطان وجماعة الشيطنة يأتون من طريق بحيث لا ترونهم ، يهجمون عليكم من جهة أنتم عنها غافلون . إذا غفلتم يصيبكم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧ .

سهم الوسوسة « كلما غفل الشخص أصابه سهم » وهذا معنى ما قيل من أن النظر إلى الأجنبية سهم فهذه هي سهام الشيطان . فإذا نظر الإنسان الغافل إلى الأجنبية « أنّ النظرة سهم من سهام إبليس » في لحظة الغفلة هذه يصيبه السهم . وهذا هو سرّ ما قيل بأنّ النظرة إلى الأجنبية سهم الشيطان المسموم . وفي تلك اللحظة التي ينظر فيها الإنسان بشهوة ويغفل عن عقله يصيبه السهم ، وفي كل بُعد يطرح الإنسان نفسه في ذلك البعد فهو غافل . لأنّ التوجّه للنفس والإنصراف عن مبدأ عالم الخلقة غفلة ، وإذا كان شخص غافلاً فإنّه يصاب بسهم في لحظة الغفلة تلك .

وبناءً على هذا فإنّ جميع الطرق السمعية والبصرية ، التعليم والتعلّم ، القراءة والكتابة وأمثال ذلك أرضية للحصول على هذا الطريق والذي هو ميسور للأوحدي من البشر . والإنسان المجذوب يطوي عقبات والتواءات وارتفاعات هذا الطريق بسهولة ﴿ **فلا اقتحم العقبة** ﴾[1] ويرغّب القرآن في هذه الآية أنه لماذا لا تجتازون هذه العقبات ؟ والسرّ في الترغيب باقتحام العقبات الصعبة هو أنكم تملكون نور التقوى وتملكون أيضاً الوضوح للسير في الطريق .

« سر على الرأس ما دام يسير بك وعلى الأرجل ما دمت تحملك » حيث يجب السير على الأرجل فليكن كذلك وحيث يكون السير لازماً بالرأس فيجب الالتزام بذلك فالإنسان المتقي لا يتخلف أبداً ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾[2] . ولا يمكن أن يبقى الإنسان المتقي متحيّراً في المسائل العلمية أو غير العلمية . لا يمكن أن يبقى الإنسان صاحب التقوى متردّداً ، لأنّ الوعد الإلهي لا يقبل التخلّف يقول : التقوى تعادل امتلاك

---

(١) سورة البلد، الآية : ١١ .

(٢) سورة الطلاق، الآية : ٢ .

النور القوي والعلم بطريق الخروج من كل أمر صعب . والبقاء في المدار المغلق وتضييع الطريق لا ينسجم مع التقوى . فتلك القدرة على التمييز وهذه القدرة أيضاً على الذهاب ، تلك الرؤية وهذه القدرة ، ذلك النور وهذه الحركة أيضاً ، ذلك الحصول وهذا التذوّق ، ذلك النظر وهذا الاحتواء ، كل ذلك ميسور « انتقل من العلم إلى العيان ومن السمع إلى الاحتضان » الإنسان يتحرك بجناحين ، جناح الفهم وجناح القدرة . وذلك الذي لا يفهم لا يستطيع الذهاب ، وذلك الذي يفهم وليس له قدرة الطيران لا يستطيع التحليق . والتقوى تمنح الإنسان جناح البصيرة وجناح القدرة ، تهب له المعرفة وتهب له أيضاً القدرة ، تجعل الإنسان عارفاً كما تجعله عاملاً ، تعطيه المعرفة كما تعطيه القدرة . والإنسان المتقي يصير مظهراً للعليم ومجرى فيض القدير ، يصير مظهر علم الله وقدرة الحق « عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي »[1] . وإذا صار مظهراً لعلم الله ، لأنّ الله أعطاه الفرقان بين الحق والباطل يصير مظهراً للقدرة ، غايته لعلم محدود ولقدرة محدودة . يصير مظهراً لعلم الله بمقدار سعة وجوده ، ويصير مظهراً لقدرة الله بمقدار منطقة وجوده . إذا اجتمع العلم والقدرة فإنهما يمنحان الحياة ، والحياة هي حيثية منح الالتئام تلك بين القدرة والعلم . والموجود الذي يفهم شيئاً ثم يعمله ، والموجود الذي لعلمه دور في عمله ، والموجود الذي يستلهم عمله من علمه ، والموجود الذي يهيىء علمه برنامجاً لعمله ، والموجود الذي يستمد عمله من علمه ، ذلك الموجود هو الذي يقال له في اصطلاح الحكمة الحي . والحي موجود عليم قدير ، موجود عليم فعال . والإنسان الذي أصبح من أهل التقوى ووصل إلى أن يكون مظهراً لعلم الحق من قناة الفرقان بين الحق والباطل ووصل إلى كونه مجرى قدرة الحق من

---

(١) حديث قدسي .

طريق القيام بالأعمال الصالحة ، فصار عليماً بمقدار نفسه وقديراً بمقدار نفسه أيضاً . وفي منطقة علمه وجدت القدرة الطريق ، وفي منطقة قدرته نفذ العلم ، وصار العلم والقدرة معاً عجيناً واحداً ، في هذه الأثناء يصير هو حيّاً ، وهذا الإنسان مع التقوى يصير حيّاً لأنّه مظهر « حي لا يموت » هذا الإنسان يصل إلى الحياة التي لا يتنابها الموت وإلى الحياة الخالدة . وصار هو ماء الحياة وعين الحياة ، ولذا فهو لا يموت في الجنة أبداً . فقد أعطاه الله سبحانه الحياة الدائمية « من الحي الذي لا يموت بالذات إلى الحي الذي لا يموت بالعرض » وتصل رسالة الله الذي هو حي لا يموت بالذات إلى هذا الإنسان الكامل الذي هو حي لا يموت بالعرض . وتصير هذه التقوى ماء الحياة ، وإلا فإن ماء الحياة ليس أكثر من خرافة . ماء الحياة ليس مطراً يمطر ولا عيناً تنبع ، ماء الحياة بيّنه الله في سور الفرقان والأنفال والفلق . يقول : طريق القلب هو منبع ماء الحياة والإنسان السالك طريق القلب يشرب من ماء الحياة . والإنسان السالك هذا الطريق يتجرّع من الكأس ماء الحياة . وهذه هي أرضية ﴿ **وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً** ﴾[1] وعلى ضوء ما نقله أمين الإسلام الطبرسي في مجمع البيان عن الإمام السادس سلام الله عليه أنّ ذلك الشراب الطهور يطهّرهم عمّا سوى الله . يوصل قلب الإنسان إلى مقصده ويطهّره عن كل ما سوى الله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الدهر، الآية: ٢١.

الدرس
الخامس
عشر

التقوى أساس النظم الداخلي للدنيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

يرى القرآن الكريم بأن الدنيا أهم أسباب قطع الطريق . وكل ما عدا الله سبحانه ويمنع من الوصول إلى الله فهو دنيا . وهو يرى أن هذه الدنيا وفائدتها قليل : ﴿ **قل متاع الدنيا قليل** ﴾[1] والدنيا غير نظام الطبيعة ، الدنيا ليست بمعنى الأرض والسماء . وليست أيضاً بمعنى البحر والصحراء . الدنيا ليست بمعني المعدن أو النبات أو الحيوان والإنسان ، والدنيا ليست بمعنى النجوم في السماء أو الطيور في الفضاء ، لأنّ هذه جميعاً آيات إلهية ، والآيات الإلهية لا تذم أبداً . الدنيا هي النظام الحاكم على المجتمعات البشرية وتلك العهود الاعتبارية والتمتعات التي تفسد هذا النظام وتبعث على الانشغال والإنصراف والغفلة . وليست ظواهر الخلقة التي هي تجلّيات الحق وآيات الله لهواً ولعباً أبداً . فالنفع الذي يحصل عليه الإنسان من هذه الطبيعة ، ذلك التمتع واللذة الملهية هو الدنيا . ولذّتها

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

قياساً إلى أحداث القيامة قليلة ﴿ **قل متاع الدنيا قليل** ﴾ فنسبتها إلى الآخرة قليل وهي في نفسها قليلة أيضاً ﴿ **وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع** ﴾[1] وعندما يقيس الإنسان الدنيا إلى الآخرة لا يجدها أكثر من متعة ولذة عابرة ﴿ **قل متاع الدنيا قليل** ﴾ وإذا أدرك الإنسان حقيقة الدنيا وأنها ليست سوى متاع قليل فلا يجعل نفسه التي هي بضاعة أبدية في مقابل لذة قليلة ومتاع عابر لا يخشاها ، ولا يطير بها ، ولا يتعلّق قلبه بها ، ولا يأخذ سهماً منها ، لا يخافها ولا يرغب فيها ، لأنّ مبادلة روح الإنسان الأبدية بمتاع عابر لا أن يرضي القلب ولا يخيفه . والسبب المهم في ترقي الأنبياء والأولياء ورشدهم هو رؤية باطن الدنيا وحقيقتها ومتاعها التافه ، ومشاهدة الحياة الآخرة التي هي النهاية ودار القرار وتتفتح فيها روح الإنسان غير القابلة للفناء والأبدية ، وتصل إلى فيضها الأبدي . وليس من المناسب أن يختار الإنسان المنفعة الدنيوية العابرة على ذلك العالم الأبدي الخالد . والسبب الرئيسي في محرومية الأفراد المتأخرين عن الركب هو أنّهم لم يروا باطن الدنيا وظنّوا بأنّ الدنيا دائمة وحسبوا أنّ حياة الإنسان هي فقط هذه وتوهّموا أنّ الدنيا هدف . ولأنّهم لم يروا الباطن والحقيقة اتّبعوا الأساطير ، ولأنهم لم يروا حقيقة الآخرة مالوا إلى الأرض والطبيعة والدنيا من حيث كونها دنيا . وقد بيّنا في الدرس السابق هذا الموضوع وقلنا أن الله يعطي الإنسان المتقي الفرقان ليفرّق به بين الحق والباطل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾[2] وسوف لن يكون لديكم أي شك أو ترديد في أي أمر من الأمور ، وقد ورد هذا البيان عن علي بن أبي طالب سلام الله عليه : « ما شككت في الحق مذ رأيته »[3] لأنّه كان الفاروق ، أعطاه الله الفرقان بين

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٣) نهج البلاغة: فيض الإسلام، ص ١١٧١.

الحق والباطل . أعطاه نوراً يميّز بضوئه بين الحق والباطل والخير من الشر والسعادة من الشقاء والقبيح من الجميل والقليل من الكثير . والتقوى ستبعث على رؤية باطن الدنيا والآخرة . وإذا نظرنا إلى مقدار ما تتمتع به الدنيا من الدوام وما للآخرة من الامتداد فلا نتأخّر حينئذ عن اختيار ذلك العالم الأبدي على هذا المتاع الزائل . وفي بعض الحروب عند تقابل جيش الكفر مع جيش الإسلام أرى الله باطن أولئك الناس لجيش الإسلام ، ولكن لم يُرِ أولئك باطن وحقيقة جيش الإسلام فهم لا يملكون الفرقان ليروا جيش الإسلام باطناً كثير وغفير ولهذا ظنّوا أنّهم قليل ولكن المؤمنين كانوا يملكون ذلك النور الإلهي وكانوا يرون باطن الكفار في هذه الدنيا ويفهمون بأنّهم قليل ولهذا لم يخشوهم حيث أن الدنيا بلحاظ كونها قليلاً لا تبعث على الخوف . فالإنسان لا يخاف من الدنيا لأنها قليل ، ولا يخاف من جيش الكفر لأنّهم أهل الدنيا وهم قليل لا يخاف من جيش الكفر لأنّه جيش دنيوي والدنيا قليل ، والإنسان لا يستوحش من القليل ، وقد بيّن الله تعالى هذا المعنى في سورة آل عمران وسورة الأنفال . يقول في سورة آل عمران هكذا : ﴿ **قد كان لكم آية في فئتين التقتا** ﴾[1] يقول : آية وعلامة الله ترونها عند اللقاء بين جيش الكفر وجيش الإسلام وتشاهدون هذه المعجزة الإلهية عن قرب : ﴿ **قد كان لكم آية في فئتين** ﴾ ترون آية الله ومعجزة الله في ميدان القتال بين فئتين متحاربتين ﴿ **فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة** ﴾[2] والأخرى تقاتل في غير سبيل الله كافرة بالحق وساترة للحق ومنكرة للحق : ﴿ **يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيّد بنصره من يشاء** ﴾[3] يرونهم بأعينهم بأنهم مثليهم . فهل الله سبحانه أرى المؤمنين جيش الكفار الذي كان عدة

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٣ .

(٢) سورة آل عمران، الآية : ١٣ .

(٣) سورة آل عمران، الآية : ١٣ .

أضعافهم مثليهم فقط أي أنّه أراهم إياهم أقل لأنّ باطنهم كان أقل ؟ أو أنّ أعداد المؤمنين كانت قليلة وباطنهم كثير وغفير وحقيقتهم دائمة وثابتة ، فكثّرهم في أعين الكفار إلى المثلين ؟ فهل قد بيّن للكفار باطن الأشخاص الذين هم في الظاهر قليل وفي الباطن كثير ؟ أم أنه بين للمؤمنين الأشخاص الذين ظاهرهم كثير وباطنهم قليل بمقدار قليل ؟ الكفار ليس لهم عين باطنية ليروا بها باطن المؤمنين ، كما قال في سورة الأنفال : ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾[1] إذا كنتم من أهل التقوى فإنّ الله يعطيكم ذلك الفرقان بين الحق والباطل ، ذلك النور الفارق بين القليل والكثير ، ذلك النور الذي يتيسر بضيائه التفرقة بين القبح والحسن . هكذا طهّر قلب الرسول الأكرم ﷺ وقلوب المؤمنين بالبصيرة واليقظة بحيث يرون الكفار قليلاً ، الكفار كان ظاهرهم كثيراً وباطنهم قليلاً ، فكان باطن وحقيقة الكفار القليلة مشهورة للمؤمنين فرأوا باطن الكفار . ولهذا يقول الله تعالى لرسوله وللمؤمنين في سورة الأنفال : ﴿ **إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلّم إنّه عليم بذات الصدور** ﴾[2] أرى الله تعالى رسوله الأكرم ﷺ في عالم الرؤيا باطن الكفار الذي كان قليلاً ، رأى الرسول ﷺ في عالم الرؤيا مجموعة قليلة تحاربه ومجموعة قليلة تهاجمه ، وليت رؤيا الرسول الأكرم ﷺ خلاف الواقع ، فالرسول مصون ومعصوم في النوم واليقظة لأنّ قلب الرسول الأكرم ﷺ الطاهر لا ينام ، يقول رسول الله ﷺ « تنام عيناي ولا ينام قلبي »[3] فليس للشيطان طريق إلى الحرم الآمن لقلب النبي ﷺ .

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.

(٣) الجامع الصغير: ج ١، ص ١٣٣.

فالرسول الأكرم ﷺ مصون ومعصوم في النوم واليقظة من آفة وسوسة الشيطان . وما يراه في عالم الرؤيا حق ، وما يراه في اليقظة من أحلام اليقظة حق ، وما يراه في الحالة العادية حق . يرى الحق في جميع أحواله سواء في عالم النوم أو في عالم اليقظة . يقول الله تعالى : أرينا النبي الكفار في عالم الرؤيا قليل . فلا الله سبحانه أراه خلاف الحقيقة ولا رسول الله رأى خلاف الحقيقة . وما أراه الله تعالى من أعداد الكفار الكثيرة قليلاً ليس لأجل أن الله سبحانه قد كتم الحقيقة بل لأن الحق المحض لا يكتم الحق : ﴿ **الحق من ربك** ﴾[1] فالحق من الله وليس من الممكن أن يعمل الله عملاً خلاف الحقّ لأنه لا يظهر من الحق إلاّ الحق ، وقلب الرسول الأكرم ﷺ وصل إلى المقام الواحدي : ﴿ **ما كذّب الفؤاد ما رأى** ﴾[2] ونجا من أن يكون في متناول وسوسة الشيطان وإغوائه وصار في مقام أسمى من أن تصل إليه وسوسة إبليس ، وهو أيضاً لا يرى غير الحق . وإذا كان الله قد أرى رسوله في عالم الرؤيا الكفّار بأنهم مجموعة صغيرة ، أي أنه أراه باطن الكفار الذي هو هذه الدنيا وحقيقة الكفار التي هي شيء فارغ قليلاً . فاطمئن رسول الله ﷺ بأنّ مجموعة قليلة تنهض لمحاربته ، ولهذا قال لأمّته : تهاجمنا فئة قليلة . لماذا ؟ لأن باطنهم قد ظهر في عالم الرؤيا : ﴿ **إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر** ﴾[3] ولو كان الله قد أراكم ظاهر الكفار ولم يركم باطنهم لخفتوهم لأنّ ظاهرهم كان أخّاذاً ويملأ العين ويدهشها فيكون هذا سبباً لخوفكم . يقولون : مَن هم الذين ﴿ **أحسن أثاثاً ورئياً** ﴾[4] يقولون : أن منظرنا لأخّاذ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٠.

(٢) سورة النجم، الآية: ١١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.

(٤) سورة مريم، الآية: ٧٤.

يملىء العين ويلفت النظر أكثر من الآخرين كما أننا أكثر من الآخرين من ناحية الأثاث ومستلزمات الحياة وكمالياتها . فقد كان منطقهم ودعواهم هو أنّ منظرنا أخّاذ يملىء البصر ويلفت النظر . ولو كان المؤمنون قد رأوا كثرتهم الظاهرية وبهرجهم الظاهري فمن الممكن أن يتأثّروا بذلك . يقول الله : لو أنكم كنتم رأيتم ظاهرهم ولم تروا باطنهم فمن الممكن أن يصيبكم الضعف والخور فتتنازعوا وتفشلوا ، فبعضكم يقول نقاتل وبعضكم يقول لا نقاتل فتفشلون ﴿ **لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلّم** ﴾[1] ولهذا فإنّ الله تعالى قد جعل الأمر على أساس أن تبقوا سالمين ويبقى الدين سالماً أيضاً ، وأن يكون أخذكم للأمور أخذاً باطنياً وأن تعبروا هذه المحنة بسلامة لأنّ الله عالم بقلوبكم وأرواحكم . وإذا كان الله قد قال : نُري القليل كثيراً ونُري الكثير قليلاً فليس بمعنى الشعوذة أو سحر البصر وأمثال ذلك حيث يمكن أن يُرى القليل كثيراً والكثير قليلاً إذ أن هذا عمل أهل الشعوذة والسحر . بل الله يُري البواطن ، فباطن الكافر قليل مهما كان ظاهره مزخرفاً ومدهشاً لأنّ باطنه دنيا والدنيا أيضاً قليلة ، وباطن المؤمن كثير وإن لم يكن له ظاهراً برّاقاً لأنّ باطنه الآخرة والآخرة كثيرة وأبدية ودائمة . ولهذا فقد أرى الله رسوله باطن الكفار الذي كان قليلاً وأعلم المؤمنون أيضاً بذلك ، ولكن الكفار لم يطّلعوا على باطن المؤمنين الذي كان كثيراً ، ولو كان لهؤلاء عين باطنية لرأوا باطن المؤمنين كثير ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً** ﴾[2] يريكموهم الله في أعينكم قليلاً ، ويرى المؤمن عدوّه الكافر قليلاً ، أي يطّلعون على داخلهم وباطنهم القليل ﴿ **ويقللكم في أعينهم** ﴾[3] إنّ حقيقتكم كثيرة ، ولكن لا يريهم الله حقيقتكم ، إذ ليس لهم

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٣ .
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٤ .
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٤ .

عيـن تـرى الحـق لتنظـر إلـى داخلكـم وبـاطنكـم ﴿ ليقضـي الله أمـراً كـان مفعـولاً ﴾[1] وإذا أراد الله أن ينجز عملاً فإنّه يـوفـر مقـدّماتـه عـن الطـريـق الصحيح . وقد نقل هذا المعنى المرحوم الكليني رضوان الله عليه في كتابه القيّم الكافي أنه « أبىٰ الله أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها » وهذا إقرار لقانون العلية العام وهو أنّ الله يجري الأمور بأسبابها ، لأنّ مسبب الأسباب يعطي لكل شيء سببه ، سبب الصنع وسبب الاحتراق معاً ، لأنّ السببية بيده ، فهو يعطي السببية وهو الذي يأخذها ، لأنّ الأعمال والعلل والأسباب بيده فهو مسبب الأسباب . وقال هنا : شاء الله أن يكون هذا الأمر في مرحلة التنفيذ وينصركم . ومن أفضل الطرق لنصرة جيش الإسلام هو أن يرى المؤمنون باطن جيش الكفر وداخل الكفار الذي هو الدنيا إذ هم من أهل الدنيا والدنيا قليلة ، وعلى هذا فهم قليلون . ومن أقوال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة : أنّ للدنيا أبناء وللآخرة أبناء « فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا »[2] والكافر ابن الدنيا والدنيا ليست أكثر من لهو ولعب ، الكافر في الدنيا مشغول باللهو واللعب ، الذي لا يساوي أكثر من البصاق . إذن فهم قليل ، والشيء القليل محكوم دائماً بالزوال والخسران . ولهذا لم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً : إنّ الكفار كثيرون ونحن قليل ، ولم يقلق أبداً من كثرة الكفّار ، لأنّه رأى باطنهم القليل ، ووجد باطنه الذي هو حق كثير ، وقد رأى بأن هذا الكثير سينتصر على ذاك القليل ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾[3] إذن إذا كان قد قال في سورة آل عمران : ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾[4] وقال في سورة الأنفال :

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٢) نهج البلاغة فيض: ص ١٢٨.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

﴿ ويقلّلكم في أعينهم ﴾[1] فهذا ليس عمل السحرة والمشعوذين ، فالله سبحانه أنزه من أن يرتكب مثل هذه الأعمال ، وحرم القرآن الآمن مطهّر من أن توجد فيه مثل هذه المسائل ، وسيرة رسول الله سلام الله عليه وآله أيضاً فوق أن يكون مع السحر ، والانتصارات الساحقة لجيش الإسلام أيضاً فوق أن يكون توأماً مع ألعاب الشعوذة . بل ما يحل جميع هذه المسائل سواء رؤيا الرسول الأكرم ﷺ أو يقظة جيش الإسلام هو أن المؤمنين رأوا باطن جيش الكفر وأنه قليل والقليل لا يبعث على الخوف ورأوا باطنهم أيضاً الذي هو حق وكثير ، والحق غير قابل للهزيمة من الباطل . ولن يكون الكثير قابلاً للهزيمة من القليل . ويجعل الله هذا الطريق من الإنسان المتقي إذ يقول : ﴿ إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيّئاتكم ﴾[2] إذا كانت التقوى عادة لكم فإنّ الله يعطيكم ذلك النور الذي تفرّقون به بين الحق والباطل والقليل والكثير والحسن والقبيح والخير والشر والسعادة والشقاء والصدق والكذب والعدل والجور وأمثال ذلك ، فلا تعجزون في المسائل الاعتقادية ولا تتحيرون في المسائل العلمية ولا تكونون خسيسين في حياتكم الاجتماعية . وعندما يرى الإنسان الدنيا قليلاً ويجد أن باطنها متاع عابر وأن باطنه أبدي ودائم ويسير بناءً على فهم كلام علي بن أبي طالب عليه السلام : « ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنّة »[3] ، إذا بعتم أنفسكم بثمن أقل من الجنة فسيصيبكم الضرر ، وحتى إذا أعطوكم في مقابل حياتكم كل الدنيا فإنكم تتضرّرون ، يقول عليه السلام : « والله لو أعطيت الأقاليم السبعة »[4] لو أعطوني الأقاليم السبعة وما تحت كرة القمر وما في الأرض الواسعة على أن أظلم ما

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٤ .

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩ .

(٣) نهج البلاغة فيض: ص ١٢٩٥ .

(٤) نهج البلاغة فيض: ص ٧١٤ .

فعلت . أي لو أعطوني الدنيا لأفسد روحي لا أفعل ، لأنّ الروح موجود أبدي ، وثمن الأبد الجنة الأبدية . وإذا بعنا هذه الروح الأبدية بمتاع هو في الحقيقة لعب وفي حكم اللعاب العابر فسيصيبنا الضرر . وقد قال لنا جميعاً : إذا بعتم أنفسكم التي تساوي قيمتها الجنّة بأقل من الجنة فإنكم قد تضرّرتم . وإذا كان أحد من أوساط المؤمنين قد باع نفسه بغير الجنة التي **﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾**[1] فإنّه قد تضرّر ، وإذا كان أوحدي من أهل الإيمان باع نفسه بأقل من جنّة اللقاء فقد أصابه الضرر . وتغذّى سيرة الأنبياء من الرؤية الداخلية والنظرة الباطنية ، ولهذا نلاحظ أن النبي حينما يصل في أي وقت إلى متاع من متاع الدنيا فإنّه يطلب النجاة منه . أي لا يبقى أسيراً لهذا المتاع ولا يتعلّق قلبه به لئلاّ يحجب باطنه ويصبح ظاهره خدّاعاً وبرّاقاً . فقد كان في زمان يوسف الصدّيق سلام الله عليه أعلى منصب هو منصب الوزارة ، وحينما وصل يوسف الصدّيق سلام الله عليه إلى هذا المنصب الدنيوي البرّاق ، تمنّى من الله تعالى الموت حتى لا يؤثر عليه هذا المنصب ويجذبه إا ـه ويصرفه عن سيره نحو الله بعد أن اجتاز جميع الامتحانات بنجاح باهر ووصل إلى أعلى منصب دنيوي . يقول : إلهي توفّني . والرجال الإلهيون لا يتمنون الموت في الظروف الصعبة ، لا يتمنون الموت في أحوال العسر ، لا يتمنون الموت في حالات الارتفاع والانخفاض والاختبار والامتحان ، ويوسف الصدّيق لم يطلب الموت من الله عندما ألقي في الجب ، ولم تلجأه مشكلات البئر لطلب الذهاب إلى الآخرة . . وعندما أخرج من البئر وباعوه بثمن قليل بعنوان أنه عبد ورقّ **﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾**[2] تحمّل ذل العبودية بعنوان

(١) سورة المائدة، الآية : ١٢ .

(٢) سورة يوسف، الآية : ٢٠ .

الامتحان ولم يتمنّ الموت لأنّه يرى بأن الحسن والقبح والفرح والحزن في الدنيا كلاهما قليل ، ولم يتمنّ الموت أيضاً عندما كان خادماً بسيطاً ، ولم يتمنّ الموت حينما اتهم ، ولم يتمن الموت عندما ألقي في السجن ، وتحمّل مشكلات السجن بهذا النداء والأنين : ﴿ **ربّ السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه** ﴾[1] ولم يطلب الموت . ولكن عندما أخرج من السجن ووصل إلى مقام ﴿ **وخرّوا له سجّداً** ﴾[2] وتواضع له أبويه وأخوته وعندما هابه وعظّمه أهل مصر وأطرافها لمقامه ومنزلته حينئذ طلب من الله الموت في أوج قدرته فقال : إلهي وهبت لي كل هذه النعم ، وهديتني في جميع أيام الاختبار والابتلاء ، وأرشدتني في جميع هذه الخافضات الرافعات ، إلهي والآن توفّني إليك بعد أن وصل إلى ذاك المنصب الدنيوي الرفيع ﴿ **ورفع أبويه على العرش** ﴾ وأجلس أبويه على العرش ﴿ **وخرّوا له سجّداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقّاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن** ﴾[3] . وقد مضى في إحدى الأبحاث السابقة أنّه شكر الله على هذه الحال قائلاً : الحمد لله الذي أخرجني من السجن ، ولم يقل : الحمد لله الذي أنجاني من البئر مع أنّ نجاته من البئر أهم من خروجه من السجن وأيضاً فإن جميع الأخطار التي واجهته بدأت من البئر . ولم يأت باسم البئر حتى لا يبعث الخجل في نفوس إخوته ، ولم يأت باسم البئر بحضور إخوانه لئلاّ ينفعلوا . وقد بدأ من وسط تاريخ محنته لا من بدايتها وقال : الحمد لله الذي أخرجني من السجن ، ولم يقل : الحمد لله الذي أنجاني من البئر : ﴿ **وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي إنّ ربّي لطيف لما يشاء إنّه هو العليم**

---

(١) سورة يوسف، الآية : ٣٣ .
(٢) سورة يوسف، الآية : ١٠٠ .
(٣) سورة يوسف، الآية : ١٠٠ .

الحكيم ﴾[1] .

وهنا أيضاً لم يذم أخوته بشكل صريح ، بل قال : الشيطان هو الذي أوجد الاختلاف بيني وبين أخوتي . وبعد ذلك قال بعنوان الدعاء : ﴿ **ربّ قد آتيتني من الملك** ﴾[2] ربّي أنت الذي أعطيتني هذا الملك والسلطان وأخرجتني من السجن وأجلستني على العرش لأنّه : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾[3] كل نعمة إنّما تصل لكم من ذلك المنعم الأزلي ﴿ **ربّ قد آتيتني من الملك** ﴾ والذي هو هذه النعمة الظاهرية ﴿ **وعلّمتني من تأويل الأحاديث** ﴾[4] وعلّمتني أيضاً تأويل الأحاديث والظواهر والوقائع ، وهي النعمة الباطنية . وتعبير الرؤيا غير تأويل الأحاديث : تأويل الأحاديث هو أنّ كل ظاهرة وكل حادثة وكل واقعة لها عود ورجوع ، ومن كان عالماً بمجريات أحداث الدنيا الآن وعلى اطّلاع أيضاً بعودة ورجوع وقائع الدنيا يعلم نهاية هذه الحادثة وإلى أين مآبها . وتأويل الأحاديث المتعلّق بمشاهدات اليقظة غير تعبير الرؤيا ، أي ما يراه الإنسان في النوم ويستطيع بعد ذلك العبور من تلك الصورة والوصول إلى ذلك الهدف وتعبيرها . وعلى كل حال فقد كان يوسف الصدّيق سلام الله عليه عنده علم تعبير الرؤيا وعلم تأويل الأحاديث أيضاً ﴿ **وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض** ﴾[5] يا ربّ أنت الذي خلقت السماوات والأرض على غير مثيل سابق وأظهرتها إلى الوجود . وهذا هو دعاء جميع الأنبياء ، يقول إبراهيم الخليل : ﴿ **إنّي وجّهت وجهي للذي فطر السمٰوات**

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠ .
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠١ .
(٣) سورة النحل، الآية: ٥٣ .
(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠١ .
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠١ .

والأرض ﴾[1] ويقول رسول الله : ﴿ **أغير الله أتّخذ ولياً فاطر السمٰوات والأرض** ﴾[2] ورسول الله أيضاً قد وصف الله بعنوان فاطر السماوات والأرض ﴿ **قل أغير الله أتّخذ ولياً فاطر السمٰوات والأرض** ﴾ هو الذي أبدع السماوات والأرض والفاطر فوق الخالق ، واهب الوجود الأول لعالم الخلقة هو الله ، ومبدع نظام الوجود هو الله . فهو بديع ومبدع وفاطر . وقال يوسف الصدّيق : ﴿ **فاطر السمٰوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة** ﴾ أنا تحت ولايتك في الدنيا والآخرة ﴿ **توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾[3] أوصلني إلى درجة تلحقني مع الصالحين بالذات ، والصالحون غير ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾[4] وقد مضى في بعض البحوث السابقة أنّ الصالحين في القرآن الكريم فوق ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فصلاح الذين عملوا الصالحات في مقام الفعل ، ولكن صلاح الصالحين في مقام الروح والذات . ويلحق بعض أولياء الله في الآخرة مع الصالحين : ﴿ **وإنّه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾[5] . وهنا يقول يوسف الصدّيق : ﴿ **وألحقني بالصالحين** ﴾[6] فهو يتمنّى الموت والذهاب إلى عالم الآخرة في حال كونه وزيراً ، ولم يطلب الموت وهو في غياهب الجب ، ولم يدع الله أن يتوفاه وهو في السجن ، لأنّه يعلم أن البئر والسجن امتحانات دنيوية وهي قليلة ، ويعلم بأن الوزارة علوّ دنيوي وهو قليل . ولا يريد أن يتلوث بهذه المزخرفات عند دخوله هذا الامتحان ، يقول في هذا الحال : ربّي توفّني . وهذا المعنى مذكور في الرسالة القشيرية لأحد العرفاء

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٩ .
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤ .
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠١ .
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥ .
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣٠ .
(٦) سورة يوسف، الآية: ١٠١ .

قبل عشرة قرون . ولكن الأستاذ العَلامة الطباطبائي رضوان الله عليه لا يقبل هذا المعنى ويقول في تفسيره القيّم الميزان هكذا : أنّ يوسف الصدّيق لم يقل : توفّني في هذا الحال ، بل قال : إلهي ارزقني توفيق الموت مسلماً لا أنّه في حال طلب الموت فالهدف والمدار الأصلي لهذا الدعاء هو ﴿ **توفني مسلماً** ﴾ أي أعطني توفيق أن أموت مسلماً لا أنه في حال طلب الموت . ولكن يقول القشيري : أنّ يوسف الصدّيق قد طلب الموت عندما صار وزيراً . والأستاذ العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه يقول : عندما صار وزيراً طلب من الله توفيق الوفاة مسلماً . فمصب ومحور الدعاء على رأي الأستاذ الطباطبائي هو الوفاة مع الإسلام لا تمني الموت ، أي أن يوسف الصدّيق يقول : إلهي امنحني توفيق الموت مسلماً ، لأنّ وصية يعقوب عليه السلام هي : ﴿ **فلا تموتنَّ إلاّ وأنتم مسلمون** ﴾[1] فوصيّة يعقوب لأولاده والتي ينقلها القرآن يقول : أجهدوا في أن تموتوا مسلمين ، فليس المهم هو الموت القريب أو الموت البعيد لأن الخلود في مرحلة الطبيعة محال ، فالموت يصل إمّا سريعاً أو متأخراً ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾[2] والمهم هو الموت مسلماً ، الإطلاع على باطن الدنيا وعلم خبرها والنظر إلى باطن الآخرة والتعلّق بها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢ .

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٤ .

الدرس السادس عشر

براهين المعاد وأهمية الاعتقاد بالقيامة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

يعتبر القرآن الكريم تربية الروح وتهذيبها الجزء الأهم من برنامجه لإيجاد السعادة ويطرح أيضاً سبب تعيين هذا البرنامج ويقول : إنّ ما له تأثير فعّال في تحقّق هذا البرنامج وذلك السبب المؤثر في تهذيب النفس وتربية الروح هو الاعتقاد بالقيامة . فالإيمان بالمعاد هو الضامن لتنفيذ هذا الأصل السماوي . والإنسان الذي لا يؤمن بالمعاد لا يستطيع تهذيب روحه وتربيتها ، بينما الإنسان الذي يعتقد بالقيامة فستلجؤه هذه العقيدة ويكون لها دور مهم في تربيتها . ولهذا فإنّ الأشخاص الماديين والدنيويين قبل كل شيء ينكرون المعاد وحتى أولئك الذين يؤمنون بالمبدأ يؤمنون بوجود الله بعنوان خالق النظام الموجود يتلكئون في قبول المعاد وينكرونه كوثني الحجاز وعبدة الأصنام الآخرين كانوا يعتقدون بوجود الله ويؤمنون بأن خالق نظام الخلقة ولكنهم يعاندون وجود المعاد ويجهدون في إنكاره ويصرّون جداً على عدم قبول القيامة ، لأنّ الاعتقاد بالمعاد يمنع الإنسان من الانفلات

والهوس فالاعتقاد بالقيامة يقف في وجه ظلم الطواغيت ويمنع أصحاب الهوى والشهوات من التعدّي ، ويسيطر أيضاً على غريزة الغضب والتصرّفات غير الملائمة ، ويعدّل من غريزة الشهوة ، ولا يدع الإنسان يغلي حقداً في الانتقام الجريء ، ولا يجيز للاهثين وراء الشهوات التجاوز عن حدودهم ، فلا يترك زمام الأمور بيد الهوى ، ولا يدع الأمور بيد الميول والرغبات النفسانية ، بل ينظم الأعمال بأمر العقل ، ويكمّل العقل تحت قيادة الوحي . فالاعتقاد بيوم المعاد له هذا الدور الفعّال . وأولئك المدافعون عن المدارس المادية حيث أنهم لا يقولون بوجود مبدأ للعالم فهم لا يقولون قهراً بوجود المعاد ولا يعتقدون بوجود نهاية للعالم . وأيضاً أولئك الإلهيون الذين يعتقدون بوجود مبدأ للعالم باسم الله ولكنهم يتردّدون في قبول المعاد وينكرونه ويعاندونه لأنهم يريدون أن يتركوا أحراراً . وقد أطلع القرآن الكريم الناس على أهمية مسألة المعاد وقال : بالرغم من أهمية الاعتقاد بالمبدأ ولكن إذا لم يكن هناك اعتقاد بالمعاد فليس هناك ضمان لتنفيذ الفضائل الأخلاقية . وسوف لن يكون الزهد والتقى ضماناً لذلك .

ومن الممكن أن لا يؤمن شخص بالمعاد ويسعى للتوفر على بعض الفضائل الإنسانية في حدود العاطفة المعتدلة ، ولكن الاكتفاء بحدود العاطفة والإحساس ليس كمالاً رفيعاً للروح الآدمية ، ويجب أن تصل الروح إلى مقامات أعلى من هذه وترتقي إلى أرفع من ذلك . وأولئك الذين يؤمنون بمبدأ الوجود ويعتقدون بالله إذا كانت معرفتهم بالله كاملة وصحيحة فإنهم حتماً سيعتقدون بالمعاد ويؤمنون بالقيامة ، لأنّ الألوهية أوصاف جليلة وأسماء حسنى ، فالله حكيم وعادل . وبما أنّ الله حكيم والحكيم لا يصدر منه فعل عبث أبداً ، ولأنّ الله حق فلن يكون من الحق باطل . ولأنّ الله عادل فسوف لا يصدر منه فعل مخالف للعدالة . ويثبت القرآن أحداث المعاد عن

طريق التحقيق في هذه الصفات العالية للحق . إذ قد ذكر القرآن الكريم مجموعة من البراهين لإثبات ضرورة المعاد والحد الأوسط لهذه البراهين هو الأوصاف العالية للحق . فمن إحدى هذه البراهين يثبت ضرورة المعاد من جهة أن الله حكيم ، والحكيم لا يصدر منه فعل عبثاً ، إذن الله لا يصدر منه فعل عبث . وإذا لم يصل هذا النظام إلى مقصده النهائي والكمال المطلوب أي إلى الحياة الأبدية وأمثال ذلك سوف لن يكون سوى أمر عبثي ، والفعل العبث لا يصدر من الله الحكيم .

إذن للعالم مقصد يصل إليه ويناله . وهذا البرهان يجب أن يحلل ويشرح بهذه السهولة والبساطة .

والبرهان الثاني من طريق حقّية الله تعالى وكونه الحقيقة وتقريب ذلك أنّ الله حق ، ولا يصدر من الحق فعل باطل . وإذا لم يصل العالم إلى مقصد وكان مجرّد تكرار للموت والحياة فقط فسوف لن يكون شيئاً سوى الباطل ، ولا يصدر فعل باطل من الحق المحض . إذن للعالم مقصد . وهذا البرهان الثاني يجب أن يكون فيه مقدار من التحليل أكثر من المقدار المذكور .

والبرهان الثالث هو كون الله سبحانه عادلاً ، والحد الأوسط لهذا البرهان هو عدالة الله . وبما أنّ الله عادل فيجب أن يحاسب المحسنين والمسيئين . يجب أن يُثاب المحسنون ويعاقب المسيئون . ويجب أن يكون هناك يوم للجزاء ، يوم للثواب والعقاب لينفصل الحسن عن القبيح وينفصل المذنب عن العابد . وبما أنّ الله عادل فيجب أن يحاسب الجميع وإلاّ فسيكون ظالماً للعبّاد والمحرومين . فإذا كان المذنبون والمطيعون سواء في حياتهم وسواء في مماتهم ولا يكون بعد الموت حساب ولا يجعل بين هذين الصنفين فرق فسيكون ذلك ظلماً ، وبما أنّ الله عادل ولا يصدر من العادل شيء غير العدل ، إذن لا بد من وجود يوم للحساب والثواب والعقاب .

وهذا البرهان الثالث أيضاً كما البراهين المذكورة يجب أن يكون فيه من التحليل أكثر مما ذُكر .

ونتقل الآن فهرست موضوع المعاد وخلاصة بحث القيامة مع هذه البراهين وسيجيء إن شاء الله من خلال الأبحاث المقبلة المفصّلة كلام حولها ، ونبيّن مقدمة بأنّ مسألة المعاد تتمتع بأهمية بحيث أن الأشخاص الماديين يسعون بإصرار وعناد لإنكارها . ويسعى الأنبياء بإصرار لإثبات أحداثها بالبراهين القطعية والعقلية . ولا يكتفي منكروا المعاد باستبعاد وإنكار ذلك فقط ، بل حيث أنهم يعتقدون بالله وينكرون المعاد فهم يحلفون بالله أن لا معاد لهم . وينكرون المعاد بالأيمان المغلّظة لأنّهم يريدون الوصول إلى تلك الشهوات واللذائذ المحرّمة ونيل تلك الأحقاد وأن لا يكون الإيمان بالمعاد سدّاً أمام تلك الأحقاد والشهوات . وعندما ينقل الله تعالى إنكار الماديين العنيد في سورة النحل يقول لأولئك الذين يؤمنون بالله ولا يؤمنون بيوم الجزاء : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[1] لقد أرسلنا رسلاً إلى جميع الأمم ، ورسالة هؤلاء الأنبياء موضوعان : طرد كل طاغوت والثاني الاعتقاد بالتوحيد . وقد بشّر جميع الأنبياء بهذين الهدفين :

الأول : عبادة الله ﴿ **أن اعبدوا الله** ﴾ **والثاني** : الابتعاد عن الطاغوت ﴿ **واجتنبوا الطاغوت** ﴾ ، الأول توحيد الحق وعبادة الله ، والثاني الاجتناب عن الطاغوت . الطاغوت الخارجي والطاغوت الداخلي . ويسمّى ذلك الطغيان والظلم بالطاغوت . ومعنى اجتناب الطاغوت أن يكون الطاغوت في وادٍ وأن يكون هو في وادٍ آخر ، ويسمى عدم الكون في خط الطاغوت واتخاذ موضع في مقابل الطاغوت . ذلك الكون في جانب والطاغوت في

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

جانب يسمى اجتناب للطاغوت . والمؤمن يجتنب الذنب يعني أنّ الذنب في جانب وهو في جانب آخر . فالمكان الموجود هو فيه لا وجود للذنب فيه ، والمكان الذي يوجد الذنب فيه لا يوجد هو فيه . والمؤمن لا يرتكب ذنباً ولا يأذن للآخرين أن يرتكبوا ذنباً في حرمته ، وقد جاء الأنبياء بهذه الرسالة : ١ ـ ﴿ **أن اعبدوا الله** ﴾ ، ٢ ـ ﴿ **واجتنبوا الطاغوت** ﴾ . وقد انقسم الناس في مقابل رسالة الأنبياء إلى طائفتين ، فطائفة قبلت عبادة الله واجتناب الطاغوت ، وطائفة لم تقبل . ﴿ **فمنهم من هدى الله** ﴾[1] اختار الطريق وشملته الهداية الإلهية ﴿ **ومنهم من حقّت عليه الضلالة** ﴾[2] ، وطوى بعض طريق الباطل عمداً فثبّتت عليهم الضلالة . لم يضلّهم الله ابتداءً بل الله أرشدهم وهداهم بإرسال الأنبياء لهم ولكن حقّت عليهم الضلالة بسبب إيثار الهوى . ﴿ **فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين** ﴾[3] يقول : لا تقرأوا التاريخ فقط وتتصفّحوا كتب التاريخ بل سيروا في الأرض لتروا التاريخ العيني للعالم وكيف صنع الله بالطواغيت والمذنبين ﴿ **إن تحرص على هداهم فإنّ الله لا يهدي من يضلّ وما لهم من ناصرين** ﴾[4] ، يا أيها النبي لا فائدة من حرصك على هداية الأشخاص الضالين لأنّهم قد أغلقوا الطريق عمداً على أنفسهم ، سدّوا طريق السعادة على أنفسهم بذنوبهم ، وأغلقوا طريق الجنة على أنفسهم باتّباع الشهوات ، وفتحوا طريق جهنّم بأحقادهم ، إنّهم قد ضلّوا عن الطريق بأرجلهم ، ولا طريق لعلاج هؤلاء وهدايتهم ، لا من الداخل ولا من الخارج ، أولئك الذين ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من**

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٣٦ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ٣٦ .

(٤) سورة النحل ، الآية : ٣٧ .

يموت﴾[1] أنّهم أقسموا أيماناً مغلّظة بالله بعدم وجود القيامة. قالوا: نقسم بالله أن الأموات لا يبعثون، وأن ليس لله يوم باسم المعاد ويوم للحساب باسم القيامة، يعني ذلك الذي يموت يفنى أبداً. والموت فناء ولا يحيي الله من فنىٰ مرة أخرى. وهذا هو يمين المنكرين للمعاد المؤمنين بوجود المبدأ. ولكن الله يقول في جوابهم: ﴿ **بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[2] نعم هكذا تكون القيامة حق والحياة بعد الموت حق. وظن أولئك باطل وخرافة، وأقسموا أنّ الله لا يحيي ثانية من يموت. نعم سيبعث الله الموتى ليضع خاتمة لكل الاختلافات ليصل كل واحد إلى ثوابه أو عقابه ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ والبرهان الذي أقامه الله في سورة النحل على ضرورة المعاد هكذا: ﴿ **ليبيّن لهم الذي يختلفون فيه** ﴾[3] أي يجب أن يصل اليوم الذي يظهر فيه الحق ويُنهي عمر جميع الاختلافات والنفاق. ويجب أن يحلّل هذا البرهان بصورة كاملة في بحث ضرورة القيامة. ونبحث الآن في هذه المقدمة أهمية مسألة المعاد. إذن فئة من أولئك الذي يؤمنون بالله مثل عبدة الأصنام في الحجاز وباقي عبدة الأوثان لا يشكّون فقط بالمعاد بل يحلفون بالله ويصرّون على إنكاره. ولذا فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بأنّ المعاد حقّ، وأن لا يقيم فقط البراهين على ضرورة المعاد، وأن لا يثبت بالأدلة فقط على أنّ الحياة بعد الموت حق، وأن لا يبيّن فقط بالبراهين بأنّ الإنسان لا يفنى بعد الموت لأنّه يتوفى وينتقل من عالم إلى عالم آخر، بل أمره أن يقسم على حتمية المعاد. وقد أمر الله رسوله ﷺ في سورة يونس وفي سورة سبأ أيضاً وفي سورة التغابن أيضاً: أقسم على أنّ المعاد حق. يقول في سورة يونس: ﴿ **ثم قيل للذين**

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٨.
(٣) سورة النحل، الآية: ٣٩.

ظلموا ﴾[1] أي عندما تقوم القيامة وينتهي الحساب ويعطى الصادقون جزاؤهم ويقال للعاصين : ﴿ **ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلاّ بما كنتم تكسبون** ﴾[2] أي جاء ما تكسبون اليوم بصورة عذاب أليم وأصبحتم وجهاً لوجه أمام هذا العذاب الأليم . وحينئذ قال لنبيّه : ﴿ **ويستنبئونك أحق هو** ﴾[3] يسألونك : هل أنّ القيامة موجودة ؟ وهل المعاد موجود ؟ وهل توجد حياة بعد الموت ؟ هل يبعث الإنسان ويُحاسب على أعماله ﴿ **قل إي وربّي أنّه لحقٌّ وما أنتم بمعجزين** ﴾[4] يقول : قل : نعم أقسم بالله أن المعاد حق والقيامة حق ولا تستطيعون أن تعجزوا الذي يحيي الموتى أن يحييكم ، ولا تقدرون أن تخرجوا عن قبضة القيامة . لا تستطيعون تعجيز هذا الأمر الإلهي ، ولا تقدرون على الفرار من هذا الحكم الأبدي الذي ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ . ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ وهناك يوم ينتظركم يتمنّى فيه الإنسان الظالم أن يفتدى من عذاب ذلك اليوم بجميع ما على الأرض ، فإن كان صاحب مال فهو مستعد أن يعطي جميع ماله ليتخلّص من العذاب الأليم الذي لا يطاق ﴿ **ولو أنّ لكل نفس ظلمت ما في الأرض** ﴾[5] ولو كان بجميع ما على الأرض ملك للظالم ﴿ **لافتدت به** ﴾[6] لكان مستعداً أن يفتدي به نفسه ويحصل على النجاة ﴿ **وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب** ﴾[7] وعندما يرى المذنبون العذاب الإلهي يخفون الندامة ولكن لا فائدة لتلك الندامة :

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٢ .
(٢) سورة يونس، الآية: ٥٢ .
(٣) سورة يونس، الآية: ٥٣ .
(٤) سورة يونس، الآية: ٥٣ .
(٥) سورة يونس، الآية: ٥٤ .
(٦) سورة يونس، الآية: ٥٤ .
(٧) سورة يونس، الآية: ٥٤ .

﴿ وقضىٰ بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾[1] .

وقال الله تعالى لرسوله ﷺ في سورة سبأ : أقسم على أن القيامة حق ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾[2] ويُقسم الكفار بأن لا وجود للقيامة ، ولكن قال الله لنبيّه : ﴿ قل بلى وربّي ﴾[3] قل القيامة حق . أقسم بربّي ﴿ لتأتينكم ﴾ القيامة يقينية وآتية . والله الذي هو عالم الغيب ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين ﴾[4] ذلك الله الذي تقع تحت علمه جميع ذرات الوجود ، فلا شيء غائب عن علم الله لا بسبب بعده ولا بسبب فرقته ولا بسبب الظلام ولا الحجاب . والذي يمنع علم الآخرين هو إما بعد المعلوم أو دقته أو الحجاب أو الظلام . فإذا لم يكن لنا علم بشيء فذلك إما لأنّه بعيد عن بصرنا أو بصيرتنا أو في ظلمة الجهل والظلام الظاهري أو مختفٍ بستار الجهالة أو لا تراه العين لدقته ولطافته أو لا تراه البصيرة لأنّه عميق ومظلم . وأحد هذه الأمور الأربعة هي التي تمنع رؤية البصر ورؤية البصيرة : البُعد ، الدقة ، الظلمة ، الحجاب . يقول : وليس شيء من هذه الأمور يمنع الله من الاطّلاع على الأشياء ، فإذا كانت ذرّات جسمك في العالم مخلوطة أو ممزوجة مع شيء آخر وفي أي موضع جعلت فيه روحك فإنّ روحك وجسمك تحت قدرة علم الله . وقدرة الله اللامتناهية سوف لن تكون عاجزة أبداً . إذن فهو يعلم ويقدر على جمع الأجزاء المتناثرة . يقول لنبيّه : قل أقسم لكم بربّي بأنّ القيامة حق ﴿ قل بلى وربّي لتأتينكم ﴾ . وفي سورة التغابن بيّن مسألة المعاد مع القسم أيضاً . يقول : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن

(١) سورة يونس، الآية: ٥٤ .
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣ .
(٣) سورة سبأ، الآية: ٣ .
(٤) سورة سبأ، الآية: ٣ .

يبعثوا ﴾[1] ظن الكفار أنّ الموت فناء لهم لأنّهم عندما يموتون يفنون . ولهذا فما داموا أحياءً يجب أن يكونوا أحراراً في الشهوة وفي الغضب والحقد . يقولون : الإنسان الذي ينتهي بالموت والفناء لماذا لا يُترك أن يعيش حرّاً كما يشتهي ، ويطلقون على هذا اسم الحرية . فهؤلاء يطلقون هذا الاسم المبارك والمقدس « الحرية » على أقذر وأقبح وصف حيواني . وهم يسمّون هذه الحيوانية بالحرية . ويقول الله تعالى لنبيّه ﷺ : قل أقسم بالله أنّ القيامة حق ﴿ **قل بلى وربي لتبعثن** ﴾ . فليس كل إنسان يعمل كما يحلو له ثم يذهب هو وعمله هكذا فلا هو يفنى ولا عمله يتلاشى ولا تنفسخ علاقته مع ذلك العمل وتضمحل . وعلى هذا فالإنسان حيّ ، عمله حيّ وعلاقته بذلك العمل حيّة ﴿ **قل بلى وربي لتبعثن** ﴾ ستبعثون يقيناً ، فقد أقسم بحذف اللام وأكّده بالنون مثبتاً للمعاد . وللمعاد في القرآن الكريم تعبير آخر هو اليوم الذي ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أي اليوم الذي لا شكّ فيه . ومن البديهي أنّ الذي سيقع في المعاد ليس فيه إبهام وشك وغفلة . لا هو متعلّق للشك ، ولا ظرف للشك . فلا شك في القيامة ، ولا موضع للشك في يوم القيامة . فلا يمكن الشك في أن القيامة موجودة أم لا ، ولا يمكن الشك أيضاً عند قيام القيامة في شيء أو شخص أو موضوع لأنّ المعاد يوم ظهور الحق ، ولا طريق للشك في يوم ظهور الحق . وسيوضح البرهان الذي يرتبط بظهور الحق في القيامة بأنّ القيامة لا تتحمّل أي شك ، لا هي متعلق الشك ، ولا ظرف الشك ، فلا يمكن الشك في أصل القيامة ولا يمكن الشك في شيء ما في يوم القيامة . فذلك اليوم يوم ظهور الحقيقة ﴿ **قل بلى وربي لتبعثن** ﴾ ستبعثون يقيناً ﴿ **ثم لتنبؤنّ بما عملتم** ﴾[2] ويعرض على

---

(١) سورة التغابن، الآية : ٧.

(٢) سورة التغابن، الآية : ٧.

الإنسان جميع ما عمله مع أنّه لا يلزم أن يعطي للإنسان ملف أعماله لأنّه يرى بنفسه ، فالإنسان أحد المخبرين عن الأعمال في يوم القيامة : ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره** ﴾[1] ولو قدّم أي عذر فلا يُقبل منه لأنّه بصير بنفسه ﴿ **ينبؤا الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر** ﴾[2] .

ويقول في سورة القيامة بأنّه يقدّم للإنسان ملف أعماله يوم القيامة . ثم يقول : ما هي الحاجة إلى الملف والكتاب فهو يعلم كل أعماله ، وهو لا يعلمها فقط بل يراها ماثلة أمامه ، وليس يراها فقط بل أعضاؤه أيضاً تشهد عليه . وإذا جاء الإنسان ورأى بأنّه سيعيش أبداً وعمله أيضاً سيبقى أبداً وفي محيط عمله فإنّه سيهذّب نفسه ويحلّق بروحه ، ولا يبقى في دائرة الخيال وسوف لن تقيّده أي شهوة وأي غضب ، بل سوف تسعى كل أفكاره وقواه أن تمسك يديه لا أن تقيد رجليه . والفرق بين الإنسان الأعمى والبصير هو أنّ الإنسان البصير يسعى أن يصنع من أفكاره وتجارب عمره شيئاً يقيّد يديه ، والإنسان الأعمى يعمل عملاً يقيد به رجليه ، فكل جهد الإنسان الشهواني أو الغضبي ليل نهار هو أن يصنع قيداً لرجليه .

والإنسان البصير الواعي يسعى أن يوفّر الأسباب التي تقيّد يديه . وهذا هو الفرق بين الإنسان الأعمى والبصير ﴿ **هل يستوي الأعمى والبصير** ﴾[3] يقول : ستطّلعون في ذلك اليوم على أعمالكم ، ولا تظنّوا أنّ ذلك على الله عسير ﴿ **وذلك على الله يسير** ﴾[4] .

يقول أحياناً : أنّ الإحياء بعد الموت أسهل من الإحياء الابتدائي .

---

(١) سورة القيامة، الآيتين: ١٤ ـ ١٥ .
(٢) سورة القيامة، الآية: ١٣ .
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٠ .
(٤) سورة التغابن، الآية: ٧.

ويقول أحياناً : إنّ إحياء الموتى عند الله أسهل عليه من العمل الذي عمله سابقاً من إعطائه الحياة للمعدوم . فالإنسان لم يك شيئاً وأعطاه الحياة ، وإذا أراد مرة أخرى أن يهبه الحياة فهو أيسر عليه ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾[1] ولكن بما أنّ الله القدير المطلق والقادر المحض فليس من الصحيح أن نفرض بأنّ شيئاً سهل عليه وآخر أسهل ولهذا فإنّه بعد أن قال : ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾ قال فوراً : ﴿ **وله المثل الأعلى** ﴾[2] أي أن ما قيل هو في مستوى فكركم وإلاّ فليس عند الله شيء سهل وآخر أسهل . فكل الأعمال عنده سواء وهيّنة ، ولهذا يقول حول القيامة الكبرى : ﴿ **وذلك على الله يسير** ﴾ . والقسم الذي يطرحه القرآن سواء كان ما يذكره الله أحياناً أو يأمر نبيّه به غير القسم الذي يذكره الآخرون . والبيان الذي يقدّمه الأستاذ العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه في تفسيره القيّم الميزان أنّه عندما يُقسم الله على موضوع فهو ليس نظير قسم الآخرين ، لأنّ الشخص الفاقد للبيّنة يتوجّه عليه القسم ، والذي لا شاهد له يتعيّن عليه القسم . فقسم الناس في مقابل البيّنة ، في مقابل الشاهد والدليل . ولكن عندما يذكر الله القسم فليس كذلك إذ لا يذكر القسم في مقابل البيّنة والدليل ، بل يقسم الله بالبيّنة وبالشاهد والدليل . فإذا أراد الله إطلاعنا على بيّنة فإنّه يقسم بها ويقول : أقسم بالشيء الفلاني . فقسم الله بالشاهد لا في مقابل الشاهد . وقسم الله بالبينة لا في مقابل البيّنة .

ولقد كان بنائنا أن نبيّن أهمية مسألة المعاد من وجهة نظر القرآن الكريم ، وأن نبيّن عدة براهين ذكرها القرآن على ضرورة المعاد ، فإذا وهبنا الله هذا التوفيق فإننا سنذكر ذلك في الجلسات القادمة .

---

(١) سورة الروم، الآية : ٢٧ .
(٢) سورة الروم، الآية : ٢٧ .

ولكن في هذا القسم الذي يُقسم فيه الله أو يأمر نبيّه بالقسم فهو يقسم بالبيّنة لا أنّه قسم في مقابل البيّنة ، مثلاً يريد الله أن يقول أن أولئك الذين اتّخذوا مواضعاً لهم في مواجهة الرسول ودخلوا معه في صراع مرير ولم يقبلوا رسالة الوحي السماوي هم في ضلال بعيد وسلكوا في طريق الانحراف . فيبيّن هذا المطلب مع القسم ، فيقسم بأنهم يسيرون منحرفين ، ويقسم بعمر الرسول الأكرم ﴿ **لعمرك إنّهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾[1] قسماً بحياتك ، قسماً بسيرتك ، قسماً بعمرك أن هؤلاء المنحرفون ، أن هؤلاء لا ينقلون خطاهم بتعقل ، سكر الدنيا ، سكر الشباب ، انعدام للتعقل ، سكر المنصب ، سكر الثروة ليس تعقلاً ، وفساد السكر سواء كان من الشباب أو الثروة ، أو المنصب ، أو من سائر الشؤون الدنيوية لا يتلاءم مع العقل والفهم . يقول : قسماً بعمرك ، قسماً بروحك ، قسماً بحياتك المعلّمة والمباركة أنّ هؤلاء السكارى يطلبون الماء من السواقي التي انحسرت عنها المياه . لأنّهم إن أرادوا السعادة فأنت معيار وأنموذج السعادة ، وإن أرادوا الإنسانية فأنت الشاخص ، وإن أرادوا الإباء والكرم فأنت مثله ، وإن أرادوا المربّي فأنت الأسوة ، وإن أرادوا الصادق والعابد فأنت هو ، وإن أرادوا الحرية والتحرر فأنت الشاهد . وبهذا الدليل فكل من انفصل عنك فقد ضلّ عن الطريق ، لأنّك أنت الطريق ، أنت العدل ، أنت رجل الحرية والحرية في صميم خططك . قسماً بك يا نموذج الأحرار هؤلاء عبيد ، قسماً بك يا أيها الإنسان الكامل هؤلاء ناقصون ، قسماً بك يا أيها الإنسان السالم هؤلاء مرضى ، قسماً بك يا طاهر هؤلاء ملوثون ، قسماً بك يا من أفنيت نفسك في هداية الناس هؤلاء ضالّون . ويقسم الله بالبيّنة في ثلاثة سور هي يونس وسبأ والتغابن حيث يأمر الله رسوله

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٧٢ .

أن يقسم بربّه على أنّ المعاد حقّ ، أي معرفة الربّ ، الإيمان بالله ، معرفة الله دليل قطعي على أحقيّة المعاد فهل يمكن لمن يعرف عدالة الله أن يشك في يوم الحساب والجزاء ؟ وهل يمكن لمن عرف الله بأنّه الحليم أن يعتقد أنه قد خلق العالم عبثاً وبلا هدف وفائدة ؟ وهل يمكن لمن عرف الله بأنه الحق ولا يرى نهاية للأباطيل ولا يعتقد بوجود قيامة في نهاية العالم . قيامة تكون هي في ذلك العالم يوم ظهور الحق ؟ كلا ، وهذه البراهين الثلاثة مع حدودها الوسطى الثلاثة سنطرحها مع حدودها الوسطى الثلاثة إن شاء الله في الجلسات القادمة .

إذن إذا أقسم النبي الأكرم ﷺ بربّه بأنّ المعاد حقّ فهو مثل ذلك الشخص الذي يقول : الآن النهار مضيء ويقسم بالشمس ويقول : أقسم بهذه الشمس الآن نهار . فهذا الشخص أقسم بالدليل وأقسم بالبيّنة . فليس ذلك الإنسان الذي لا دليل له الذي لكي يلجأ إلى القسم ، ولا ذلك الإنسان الذي لا شاهد له حتى يعتمد على القسم . بل الإنسان صاحب الشاهد والبيّنة الذي ﴿ **على بيّنة من ربّه** ﴾[1] يقسم بنفس تلك البيّنة ويقسم بنفس ذلك الشاهد ويقسم بنفس الدليل ، وكل هذا يدلل على أهمية المعاد . ويقول في سورة صاد أيضاً بأن عذاب المذنبين بسبب نسيان القيامة ﴿ **لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾[2] ومن المستحيل لمن كان ذاكراً للقيامة أن يستمر في ذنوبه ومعاصيه . وإذا تلوّث بمعصية في لحظة معينة فإنّه يسعى لتطهير نفسه من دنسها . ومن غير الممكن أن يكون أحد ذاكراً للقيامة ويعيش غافلاً ، بل يسعى للخروج من غفلته وتلافي أخطائه . وأفضل الذكر ذكر القيامة حيث منح الله هذه الجائزة للطاهرين من البشر . يقول : ﴿ **إنّا**

---

(١) سورة هود، الآية : ١٧ .

(٢) سورة ص، الآية : ٢٦ .

أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾[1] إنّا أخلصنا إبراهيم والأنبياء الآخرين بذكر القيامة وجعلناهم من أهل الإخلاص وعددناهم من المخلصين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



(١) سورة ص، الآية: ٤٦.

الدرس السابع عشر

القيامة خاتمة كل أنواع الاختلاف والباطل

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الّذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

بما أنّ أهم برامج الرسل الإلهيون هو تهذيب النفس وتربية الروح ، والعامل المؤثر في تهذيب النفس هو ذكر المعاد ، لأنّ نسيان القيامة والغفلة عن المعاد أكبر موانع تهذيب النفس وتكامل الروح ، لهذا أعطى القرآن الكريم أهمية عظمى لمسألة المعاد ورأى أن ارتكاب الرذائل الأخلاقية بسبب نسيان المعاد ، وأن التورط في الشهوانية والأحقاد الظالمة أيضاً دليل الغفلة عن القيامة . وينكر الراكضون وراء الشهوات والظالمون القيامة ليتحلّلوا من قيد العقل والوحي باسم الحرية المقدّس .

وحتى أولئك الذين يؤمنون بالله ويقبلون مبدأ العالم مثل وثنيّي الحجاز ينكرون القيامة ويقسمون بإصرار على نفي القيامة ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت** ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٨.

وقد بُيّنت الموضوعات المرتبطة بهذا القسم بشكل مفصّل في الجلسة السابقة وكان من المقرّر في هذه الجلسة طرح الأدلة التي ذكرها الله تعالى في القرآن على ضرورة المعاد . وقد ذكر الله سبحانه المعاد في القرآن الكريم بعنوان اليوم الذي ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أي ضرورة التحقق . ليس من الممكن الشك في القيامة لأنّ وقوعها بديهي ويقيني . فليس في أصل وقوعها شك وتردُّد ، وليس بعد وقوعها شك في وقائع وحوادث ذلك اليوم . فلا شك في وقوع القيامة ، وإذا وقعت فلا يكون ذلك اليوم ظرفاً للشك . ولا يشك الإنسان في شيء هناك لأنّه ستنتهي هناك جميع الاختلافات ويظهر الحق في ذلك اليوم ، وستظهر بواطن جميع الأفراد بشكل علني ومكشوف ، وسترتفع كل الستائر ، فلا يمكن الشك في شيء في ذلك اليوم لأنّ حقيقة كل شيء ستظهر هناك ، ولهذا قال ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أي أنّه لا شك في القيامة ، فلا يتعلّق الشك في أصل وقوع القيامة ، ولا يتعلّق الشك في ذلك اليوم في شيء . والبراهين التي أقامها القرآن الكريم على ضرورة القيامة متعددة . فبرهان حدّه الوسط حكمة الله ، أي بما أنّ الله حكيم ، والحكيم لا يرتكب فعلاً عبثاً وبلا فائدة . فإذا كان عالم الدنيا لا يصل إلى مقصد معيّن ، وليس إلاّ هذا الحياة والموت المتكرر ، شخص يولد وآخر يموت ، وليس في العالم حساب ولا كتاب ، والحياة هي هذه فقط ، فإنّه سيكون عبثاً وبلا فائدة ، والشيء العبثي وعديم الفائدة لا ينسجم مع الحكمة ، والله الحكيم لا يفعل فعلاً عبثاً وبلا فائدة أبداً . إذن للدنيا مقصد حتماً تتوجّه إليه وتصل إليه ﴿ **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾[1] . ويجب أن يوضّح هذا البرهان الذي حدّه الأوسط الحكمة على حدة .

والبرهان الآخر طريق الحق والحقيقة الله حق ولا يصدر من الحق

---

(١) سورة الدخان، الآية : ٣٨.

سمل باطل ويجب أن يظهر الحق ، والدنيا ليست محل ظهور الحق الكامل لأنّه في الدنيا هناك باطل أيضاً وهناك اشتباه الحق بالباطل أيضاً . إذن يجب وجود عالم تظهر فيه الحقيقة ، ولا يكون في ذلك العالم مكان للباطل ولا مجال للاشتباه ، وعندما لا يكون شيء سوى الحق ولا مجال للباطل فيه فلا تكون حينئذ أرضية للاشتباه والترديد . وإنما يكون الشك والاشتباه دائماً لوجود شيئين في الخارج ، وعندما يصل الإنسان إلى فرد ثالث لا يعلم هل هو من القسم الأول أم من القسم الثاني لأنّ في الدنيا حق وباطل ، وربما كانت أشياء حق وبعد زمن تكون من الأشياء الباطلة ، ولهذا يوجد فرد مشكوك ومشتبه بين الحق والباطل . والعقائد والأخلاق والأفعال المشكوكة هل هي من قبيل الحق أو من قبيل الباطل . وعندما لا يكون في القيامة شيء سوى الحق وليس للباطل أي مجال فلا توجد حينئذ أرضية للشك والاشتباه . والحد الأوسط لهذا البرهان هو ظهور الحق والقيامة يوم ظهور الحق .

والبرهان الثالث حدّه الأوسط العدالة . بما أنّ الله عادل . والناس في الدنيا على نوعين : فئة متقية وفئة مذنبة ، بعض عادل وبعض ظالم . ولم يفرق في الدنيا بين الحسن والقبح والحق والباطل . فإذا لم يكن هناك يوم للجزاء يحصل فيه أهل الحق على ثوابهم وأهل الباطل على عقابهم فإنّ ذلك لا ينسجم مع العدل الإلهي . والحد الأوسط لهذا البرهان هو العدل الإلهي أي بما أن الله عادل ، إذن يوجد يوم للجزاء .

هذه براهين متعددة أقامها القرآن الكريم على ضرورة المعاد . وكان أحد هذه البراهين مسألة ظهور الحق يعني يجب أن يصل اليوم الذي تظهر فيه الحقيقة ، ويقال لذلك اليوم يوم ظهور الحق .

(ترجمة شعر) .

غداً عندما يطلع سلطان الحقيقة فواها للسالك الذي بنى عمله على المجاز وما دام في الدنيا بشر فالفكر موجود وما دامت البشرية موجودة فالتفكير موجود أيضاً ، وكما أنّ أصل الفكر والتفكير لا ينفصل عن البشر فكذلك لا تنتهي الاختلافات بين العقائد والمدارس الفكرية وتضارب النظريات ، وصراعات الإيديولوجيات وانتشار المكر في المجتمعات البشرية . فالبشر لا يفكرون على طراز واحد بحيث يعتقد الجميع بأمر واحد ويفكر الجميع على شاكلة واحدة ويصل الجميع إلى هدف واحد . إذن اختلاف وجهات النظر كأصل التفكير ملازم للمجتمعات الإنسانية ، فهل يوجد موطن تنتهي فيه هذه الاختلافات الفكرية والمذهبية ؟ أو يستمر إلى الأبد حرب الـ «٧٢» فرقة وكل يزعم أنّه الفرقة الناجية والآخرون هم المنحرفون ؟ أم نصل إلى موطن تنتهي فيه حرب الـ «٧٢» أمة ويتضح فيه الحق ؟ هل هذه الاختلافات أبدية أم لا ؟ أي إما اختلاف وجهات النظر حق أو الاختلاف بينها باطل . وبما أن الحق لا يختلف مع الحق ، والباطل هو الذي يختلف مع الحق ، والباطل لا يتلاءم مع الأبدية ، إذن لا بد أن يصل يوم تنتهي فيه كل ألوان الباطل وتنتهي أيضاً بصورة قهرية عمر الاختلافات الفكرية ، وذلك اليوم يوم ظهور الحق . فإذا كان الاختلاف باطلاً فليس من الممكن أن يبقى شيء خالداً وهو بلا فائدة ، وإذا كانت النظريات المتنوعة بعضها حق وبعضها باطل فيجب أن يصل يوم تسوّى فيه هذه الاختلافات ويُعلم أين هو الحق وأين هو الباطل . وهذا نوع من الاختلافات التي يجب أن تنتهي . وهناك نوع آخر من الاختلافات بين باطن وظاهر المرائين والمتظاهرين بالزهد وطالبي الشهرة والباحثين عن السمعة والمتملقين والمنافقين ذوي الوجهين . أفلا يجب أن يوجد موطن في العالم تنتهي به هذه الاختلافات وهذا الصراع بين الباطن والظاهر ؟ فهذا النفاق وهذا التلوّن

امتلاك الوجهين هذا باطل أفلا يجب أن يزول هذا الباطل من العالم ؟ فهل من الممكن أن يكون الباطل خالداً والنفاق أبدياً أم لا ؟ فالعالم الذي يوجد فيه النفاق والعالم الذي يوجد فيه التظاهر والرياء والخداع والسمعة يُبدّل بنظام لا يقبل السمعة ، ولا طريق للرياء إليه ، ولا مشترٍ للنفاق فيه ، وليس للحيلة دور فيه . وعالم الطبيعة الذي عُجن مع النفاق يجب أن يصل إلى حيث تسوّى فيه الاختلافات الظاهرية والباطنية . ويطرح القرآن هذا البعد من القيامة ويقول : الله هو الحق ويجب أن يظهر الحق . والدنيا لا تتحمّل ظهور الحق ، ولا يعلم القرآن بملائمة الدنيا لظهور الحق وتؤيد التجارب البشرية وتصدّق بأنّ الدنيا غير ملائمة لظهور الحق وليست محلاً لظهور الحقيقة المحضة وليست قابلة للظهور التام لله . ولهذا توافق هذه الدنيا وجود هذه الاختلافات وتلك التخلّفات وهذه الثنائية وذلك النفاق . ومع أنّ الأنبياء قد جاؤوا بالكتب السماوية لوضع نهاية لهذه الاختلافات الظاهرية والباطنية واختلافات آراء أصحاب النظر ورفع ثنائية مفكري البشرية . ولكن يقول القرآن بنفسه : هذا غير قابل للإصلاح بنسبة واحد بالمائة لا مائة بالمائة ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[1] ويقول الله تعالى لرسوله ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك ﴾[2] .

وهناك مجموعة لا تحصى أسيرة لأهوائها الباطنية تشكل أرضية الاختلاف وأساس النفاق . ورغم ما جاء به الأنبياء وما نزلت به الكتب السماوية لحل الاختلافات ولكن في حدود التشريع وفي حدود اختيار الثواب والذنوب فقد كانت نسبة موفقيتها بواحد بالمائة . وأمّا هذه الاختلافات فستستمر إلى الأبد في البشرية إلى أن تغيّر الطبيعة ويبدّل هذا

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

النظام المتنوع إلى نظام آخر لا يقبل سوى الحق ويبدّل إلى موطن لا يكون ظرفاً لشيء سوى الحق .

وبما أن الدنيا لا تملك الصلاحية لتكون المجلس الكامل للحق ، فالحق لا يظهر بتمامه ، وعندما لا يظهر الحق بتمامه فتلك النقائص وخلاء الحق يصير باطلاً ، وإلاّ فالباطل ليس أمراً وجودياً . ويقول في سورة النحل عند طرح أحداث القيامة : أن القيامة لأجل أن توضع خاتمة لعمر هذه الاختلافات وتصير تلك الاثنينية في إتجاه واحد ﴿ **ليبيّن لهم الذي يختلفون فيه** ﴾ أي أنّ القيامة لأجل أن يبيّن الله جميع الحقائق التي كانت مورداً للاختلاف فيعلم مع مَن كان الحق ومن هم الذين كانوا جماعة الباطل : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين** ﴾[1] فالقيامة لأجل ظهور الحق ، ولكي توضع نهاية لجميع الاختلافات ، وليفهم الكفّار أنهم كانوا كاذبين ومنكرين للحق وأنهم كانوا يقولون باطلاً ، ويقول في سورة النور عندما يطرح أحداث القيامة : سيصل اليوم الذي ﴿ **تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾[2] تشهد عليهم ألسنتهم في ذلك اليوم ، فإذا ارتكب الإنسان عملاً مخالفاً فسيشهد عليه لسانه في محكمة الله ، وتشهد عليه يديه وتشهد عليه رجليه ، ويتضح من قوله أن لسانه ويديه ورجليه تشهد عليه أنّ الإنسان هو الذي يرتكب الذنب لا لسانه ويديه ورجليه وأن هذه ما هي إلاّ أدوات العمل ، لأنّ الشاهد غير المتهم . فمرة يتكلّم المتهم عن نفسه فيقال له إقرار وأخرى يتكلّم الغير عن هذا المتّهم ويقال له الشاهد . فالشهادة غير الإقرار . وإن

---

(١) سورة النحل، الآيتين: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٤.

كان القرآن يقول : يشهدون على أنفسهم ، لكن هذا بالتجزئة والتحليل العقلي حيث مع الدقة الاعتبارية الشاهد غير المتهم ، أو أنّ الشهادة هناك تكون بمعنى الإقرار ، وله نظير في الاستعمال في محاكم الدنيا ﴿ **شهداء لله ولو على أنفسكم** ﴾[1] وعلى أي حال فاليد والرجل واللسان تتحدث عن تلك الأقوال والأعمال التي ارتكبها الإنسان وتشهد عليه في محكمة العدل الإلهية ﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أنّ الله هو الحق المبين** ﴾[2] ويُري الله في ذلك اليوم الدين الحقيقي في حدّه الكامل ويثبّته ، ويفهم هؤلاء في ذلك اليوم أنّ الله هو الحق الواضح الجلي ، يقول أمير المؤمنين ومولى الموحّدين عليه السلام : « هو أحق وأبين ممّا ترى العيون »[3] فليس شيء أثبت وأبين من الله ، فكل ما تراه العين فالله أحق منه وأثبت وأبين . ويظهر الله في ذلك اليوم باسم الحق ظهوراً كاملاً ولا يكون هناك شيء غير ظهور الحق ، ولهذا سينتهي الباطل وتتلاشى الاختلافات وأيضاً لا يكون هناك مجال للاشتباه . وليس في ذلك اليوم إلى جانب الحق باطل لتميل إليه مجموعة من الناس وتتمسك مجموعة أخرى بالحق وتبقى مجموعة ثالثة مترددة بينهما . إذ لو كان هناك باطل لكان الناس ثلاث مجموعات : فئة إلى جانب الحق وفئة إلى جانب الباطل وفئة متردّدة بينهما . ولكن إذا لم يكن شيء سوى الحق فليس للباطل وجود لتوجد أرضية للاختلافات ولا يبقى مكان للاشتباه ، فإذا لم يكن هناك شيئان في مكان ما فسوف لن يكون لدينا شك ، وإنّما يكون الشك دائماً إذا وجد أمران فيشك الإنسان في شيء ثالث هل هو من الأمر الأول أو من الأمر الثاني . وإذا ظهر الله في القيامة باسمه المبارك الحق وكان ذلك الوجود الخاص ، وجود ظهور الحقيقة ، فلا يبقى حينئذٍ

---

(١) سورة النساء، الآية : ١٣٥ .
(٢) سورة النور، الآية : ٢٥ .
(٣) نهج البلاغة فيض : ص ٤٨٣ .

مجال للاختلاف والاشتباه . وقد عبّر الله عن القيامة بيوم الحق .

يقول : ذلك اليوم ﴿ **اليوم الحق** ﴾ أي اليوم الذي يظهر فيه الحق تاماً . لا أن معنى الآية أن القيامة حق ، فمرة نقول « القيامة حق » أي أنّ القيامة تقع ، وأخرى نقول القيامة يوم الحق أي وعاء ظهور الحق المحض ، إذن ليس فقط أنّ القيامة واقعة بل أنّ ذلك اليوم هو يوم ظهور الحق .

يقول : القيامة الوقت الذي يظهر فيه الحق ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾ فذلك اليوم حق أي لا مكان للباطل في وجود القيامة وساحة المعاد ، ولهذا ينتهي كل اختلاف في ذلك اليوم . والمنافق الذي كان يعيش الإثنينية بين باطنه وظاهره سيفضح في ذلك اليوم . والمرائي الذي يفترق ظاهره عن باطنه يُفضح في ذلك اليوم ، وطالبي الشهرة ومريدي السمعة الذي يختلف ظاهرهم عن باطنهم يتندمون في ذلك اليوم عند ظهور الحقيقة ولا مكان للكتمان هنالك مطلقاً ﴿ **ذلك اليوم الحق فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآباً** ﴾[1] وكل من يريد الحركة إلى جهة الحق سيكون ذلك التوفيق من نصيبه وهو أن لا يريد شيئاً سوى الحق ، وتكون تلك الموهبة أيضاً من نصيبه وهو أن لا يفعل شيئاً غير الحق . فلا يخدع نفسه ولا يخدع الآخرين ﴿ **ذلك اليوم الحق فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآبا** ﴾ ويقول رسول الله أيضاً : ﴿ **إليه أدعو وإليه مآبِ** ﴾[2] فأنا أدعو إلى الله ومآبي أيضاً إلى الله . إلا أنّه قال في سورة النحل : لقد جاء الأنبياء بكتب سماوية لأجل أن تنتهي الاختلافات ، ولكن كما تبيّن فإنّ استمرار طريق الأنبياء له أثر محدود في تحديد الاختلاف لا في رفع أصل الاختلاف يقول : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبيّن لهم الذي**

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٦.

اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[1] فنحن لم نرسل هذا الكتاب إلاّ لوضع خاتمة للاختلافات وهداية ورحمة للعالمين ، ولكن لم يوفّق الرسل إلاّ بنسبة واحد بالمائة ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾[2] والفئة الممتازة هي فقط التي تقبل الحق ، فلا يثيرون الاختلاف ، فلا يوجدون الاختلاف بين باطنهم وظاهرهم ، ولا يخادعون أنفسهم ، ولا يرون تحمّل ذلك للآخرين جائزاً . ويوم القيامة يوم ظهور الحق حيث يظهر كل مكتوم ، يقول : ﴿ **إنّه على رجعه لقادر** ﴾[3] الرجع يعني الإعادة ، والرجوع يعني العودة ، والرجع متعدّي بخلاف رجوع . والله يرجع ويعيد ثانية . متى ؟ اليوم الذي تظهر فيه السرائر والأسرار والمخفيات والبواطن ، كما يظهر ما في باطن الأرض إلى ظاهرها ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾[4] .

ويظهر كل ما في بواطن البشر ﴿ **يوم تبلى السرائر** ﴾[5] وتلك الأسرار المختفية في إحدى زوايا القلب ستظهر في ذلك اليوم ، وتخرج تلك المخفيات في ذلك اليوم . ويظهر كل إنسان في ذلك اليوم كل ما يخزنه في القلب ولا يبقى سرّ . وبعض تلك الأسرار المخفية حتى على نفس الإنسان ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السر وأخفى** ﴾[6] فلا يعلم الله فقط الظواهر ولا يعلم فقط الأسرار الآدمية ، بل يعلم ما هو أخفى من السرّ والتي هي محجوبة حتى على نفس الإنسان .

من الممكن أن لا يكون للإنسان علم بالعلم ، أو أنه مخزون في

---

(١) سورة النحل، الآية : ٦٤ .
(٢) سورة سبأ، الآية : ١٣ .
(٣) سورة الطارق، الآية : ٨ .
(٤) سورة الزلزلة، الآية : ٢ .
(٥) سورة الطارق، الآية : ٩ .
(٦) سورة طه، الآية : ٧ .

مطاوي القلب بشكل بحيث أن حب النفس لا يدع الإنسان يفهم ويطلع على ذلك السرّ ، وهذا هو الأخفى من السرّ والله مطلع أيضاً على هذا النوع من الأسرار . وفي ذلك اليوم تظهر كل ما تخفيه القلوب ﴿ **يوم تبلى السرائر** ﴾ . ويقول في سورة النساء : يتمنىٰ المذنبون في ذلك اليوم أن تسوّى بهم الأرض ﴿ **لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً** ﴾[1] ويظهر كل ما هو في الباطن ، وكل سر في القلب يصير علناً . في الدنيا جعلوا الحق جسراً يعبر من عليه للوصول إلى أهدافهم المادية وداسوا على الحقيقة بأقدامهم لكي ينالوا المطامع الدنيوية الفانية « أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع »[2] .

يقول مولى الموحدين : أكثر ضحايا العقل بسيف الحرص والطمع . والإنسان المجنون يذبح ملك العقل تحت قدم المطامع ، ويضحي بعقله من أجل وصوله إلى الحرص ، ويقطع رقبة العقل بسيف الطمع ، ويحطم رأس عقله بسيف الحرص . يقول الأنبياء : ﴿ **لم تلبسون الحق بالباطل** ﴾[3] لماذا تكتمون الحق ؟ لماذا تلبسون الباطل ثوب الحق ؟ لماذا تظهرون القبيح بصورة جميلة ؟ لماذا تصوّرون الذنب بصورة الصواب ؟ ﴿ **لم تلبسون الحق بالباطل** ﴾ وأولئك لا يسمعون ، ولكن سيظهر في القيامة كل ما كان خافياً في بواطنهم ولا يستطيعون كتمان شيء لأنّ ألسنتهم تحت تصرّف الحق لا تحت اختيارهم وتصرّفهم . فإذا ظهر الحق يقول الإنسان الحق . وتقول اليد والرجل الحق أيضاً . وعندما يعترض الإنسان على أعضائه لماذا شهدتم علينا ؟ تقول : الله الذي أنطق كل شيء قد أنطقنا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٢ .
(٢) نهج البلاغة فيض: ص ١١٨٤ .
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧١ .

﴿ **قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء** ﴾[1] وليس للباطل في ذلك اليوم طريق لأنّه ﴿ **فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال** ﴾[2] وفي المكان الذي يظهر فيه الحق ، فغير الحق يضيّع طريقه ومن غير الممكن أن تظهر الحقيقة بشكل كامل . ويكون مكان للباطل ولكتمان الحق أو أرضية للنفاق والرياء ، بل سينهي عمر جميع هذه الأمور ﴿ **ولا يكتمون الله حديثاً** ﴾ وإذا كان كذلك فيجب أن يظهر الحق ، والله حق ومن المستحيل أن لا تظهر الحقيقة . وبناءً على هذا تكون القيامة يوم اليقين . فأصل ظهور القيامة يقين ولا يقف شيء أيضاً في وجه ظهور القيامة ، لا من الداخل ولا من الخارج . والله الذي هو الحق يظهر بهذا الاسم الشريف ويجب أن توضع نهاية لهذه الاختلافات ، ولا يقف شيء أمام هذا الوجوب ، لأنّه مهما استطاع الباطل المقاومة وتثبيت موقعيته فإن الحق عند ظهوره يحطم الباطل ويستمر العالم بانتصار الحق على الباطل إلى أن يختفي الباطل دفعة واحدة ويتجلّى الحق دفعة واحدة ، ويتنحّى كل باطل إلى زوايا الإهمال ، إذ أن ذلك النقص في ظهور الحق يقال له الباطل . فإذا لم يكن نقص في ظهور الحقيقة وظهر الحق بصورة كاملة فلا يبقى حينئذٍ مجال ولا أرضية للباطل ، ولهذا يقول : إنّا نهيّىء طريق نفوذ الحق والطريق إلى النصر بالتدريج إلى أن يتحطم الباطل قليلاً قليلاً ويمحى من البين ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾[3] . فإذا كان قد قال أنّه إذا جاء الحق ذهب الباطل فطريق ذهاب الباطل من البين هو تثبيت الحق . يقول الله : إنّا نرجّح الحق على الباطل حتى ينتصر ، فالحق الظافر يحطم الباطل ويدفع رأسه فيتحطم الباطل ويذهب من البين ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢١ .

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٢ .

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٨ .

فالحق يحطم الباطل بصورة تدريجية ويظهر بغتة ودفعة واحدة . وهذا هو نفس الظهور الدفعي للقيامة ، فالله لا يعرّف القيامة على أنها تدريجية بل يقول أنّ القيامة تأتي بغتة ﴿ فتبهتهم ﴾[1] لأنّ الباطل ينتهي دفعة وبغتة . ويتحطم الباطل بواسطة الظهور الكامل للحق . ولهذا لا يعبّر عن القيامة بأنها شيء تدريجي بل قال أنّ القيامة تأتي بغتة ﴿ فإذا هو زاهق ﴾ . ويعبّر أحياناً عن القيامة هكذا : ﴿ وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب ﴾[2] فلا تطرح مسألة الزمان بعد ذلك لأنّ الزمان يرى في النور . والزمان نتاج الحركة ، والحركة وصلت إلى غايتها ، والزمان موافق لحركة هذا النظام ، وهذا النظام يبدّل إلى نظام آخر وهذا العالم إلى عالم آخر ويصل الزمان إلى غايته ، فيهدأ هذا المتزمن والمتحرّك أيضاً ، وتسير سفينة الطبيعة لتلقي مرساتها .

وقد بيّن في البحوث السابقة أن رسول الله ﷺ سُئل عن القيامة هكذا : ﴿ إيّان مرساها ﴾ أي متى تلقي هذه السفينة مرساتها ؟ والإرساء أي إلقاء المرساة وقال حول سفينة نوح : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾[3] أي أنّ جريان وثبات هذه السفينة باسم الله . وتعبير القرآن اللطيف عن القيامة هو أنهم قد سألوا عن سفينة طوفان الطبيعة متى تلقي مرساتها ؟ والمتحرك قبل أن يهدأ يكون في مرحلة القوة وعندما يصل إلى الفعلية يهدأ .

القيامة الآن في مرحلة القوة وتصير حادثة عندما تصل إلى مرحلة الفعل . والدنيا مرحلة القوة لذلك العالم والآخرة مرحلة الفعلية التي هي الآخر والنهاية ودار القرار وثبات العالم ومقرّه والحياة الكلية ﴿ وإنّ الدار

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٠ .
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧ .
(٣) سورة هود، الآية: ٤١ .

الآخرة لهي الحيوان ﴾[1] ساحتها يقظة وساهرة وفضاءها يقظ لأنّ الحق حي ويقظ وسيكون ذلك اليوم هو مرحلة الفعلية لهذه السفينة الطائفة . وستلقي هذه السفينة مرساتها عندما تصل إلى القيامة وتصل إلى مقصدها دفعة فليس وصولها إلى مقصدها تدريجاً ، بل السير إلى المقصد تدريجي ولهذا يقول : **﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾** وللقيامة سماء أخرى وأرض أخرى ونظام آخر يعيش فيه نفس أفراد الدنيا ، ويعيشون في ذلك النظام مع جميع حقائقهم الماضية والحاضرة من غير أن يفوت منها شيء ، وسيكون في ذلك النظام محكومين للعوامل الحقيقية لذلك النظام . وعلى هذا فلا يوجد أي مجال لكتمان الحق . وعندما يظهر الحق فلا مكان للباطل لأن الباطل قد تحطم **﴿ فإذا هو زاهق ﴾** وسيموت الباطل دفعة لأنّ شعاع الحق سيظهر دفعة . فإذا قذف النور أشعته دفعة فإنّ الظلام يتبدد دفعة ، وإن كان هناك فرق بين المثال والممثل له ، فهنا قد طرح الزمان ولو سريعاً ولكن هناك تصوّر الزمان صعب لأنّ الزمان يصل إلى غايته كما يصل المتزمن إلى مقصده أو تصل الحركة إلى مقصدها وكذلك يصل المتحرك إلى مقصده .

ولا يمكن لأي سبب أن يقف في وجه ظهور الحق لأنّه يقول : **﴿ وله من في السماوات والأرض ﴾** فإذا أراد شيء أن يمنع من ظهور الحق فذلك الشيء من مخلوقات البشر ، ومخلوق البشر تابع لإرادة الله التي لا تقبل الخلل . ولهذا يقول في ذيل هذه الآية : **﴿ وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾**[2] فلا يمكن لأي شيء أن يمنع من ظهور الحق لأنّ ما يقف في وجه الحق فهو باطل والباطل زاهق **﴿ فإذا هو زاهق ﴾** فلا مجال لعدم ظهور الحق وعندما تظهر الحقيقة في ذلك اليوم

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤ .

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٩ .

فلا يستطيع عامل من الداخل والخارج أن يقف في وجه ظهور الحق ولهذا يقول : ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾[1] عندما كنت في الدنيا أرخيت على نفسك الستارة فلم ترَ شيئاً ، والآن قد أزيحت الستارة ونظرت إلى الأسرار فتعرف نفسك بصورة أفضل ، وتعرف الآخرين أيضاً بصورة أفضل ، وتبدّل النظام أيضاً وتدكدكت قل الجبال ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربّي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفا * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً** ﴾[2] وساحة أرض القيامة ستكون صافية بلا تلال ولا جبال . وستزاح الستارة جانباً أيضاً وسيكون البصر أحدّ نظراً ﴿ **فبصرك اليوم حديد** ﴾[3] وسينظر في ذلك اليوم عين الظاهر والباطن بحدّة وشدّة يوم ظهور الحق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢

(٢) سورة طه، الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٧ .

(٣) سورة ق الآية: ٢٢

الدرس
الثامن
عشر

للخلقة هدف وإن كان الخالق غنياً عنه

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمّد وآله الطاهرين .

البحث الذي طرح حول المعاد من وجهة نظر القرآن الكريم يوضح بشكل جيد أهمية الاعتقاد بالقيامة في تهذيب النفس . أي أن تهذيب الروح الذي هو الهدف الأسمى لرسالة الأنبياء إنما يكون ميسراً عندما يعتقد الإنسان بالقيامة . فإذا كان معتقداً ومؤمناً بالمستقبل القطعي والأبدي ومعتقداً بالثواب والعقاب وأنّ العمل حي ولا ينفصل عن نفس الإنسان أبداً ، فسيكون لهذا الاعتقاد دور مؤثر وبنّاء ، كما أنّ نسيان المعاد أو عدم الاعتقاد بالقيامة يوفر الأرضية لكل أنواع المعاصي والذنوب . وقد طرح حول القيامة أبحاث عديدة . منها : التأثير البنّاء للاعتقاد بالقيامة في تربية وتهذيب النفس ، وقد تقدّم هذا البحث إلى حدّ ما . ومنها : أدلة وجود المعاد وقد تحدّثنا عن مقدار منها في الجلسات السابقة . والقسم الآخر يرجع إلى الإشكالات حول مسألة المعاد التي يجب أن تُطرح وقد تقدم بيان أجوبة القرآن الكريم عنها خلال نقل أدلة القيامة وأحقّية المعاد حيث أقام

القرآن الكريم عدة أدلة على ضرورة المعاد وقطعية القيامة . ومن جملتها برهان الحركة ، وبرهان الحقيقة ، وبرهان الحكمة ، وبرهان العدالة ، وبرهان تجرّد الروح ، وسلسلة البراهين الأخرى والتي سنشير إليها الواحدة تلو الأخرى إن شاء الله .

وقد قُرّر برهان الحركة هكذا : أنّه لا حركة بلا هدف لأنّ الحركة خروج من القوة إلى الفعل ، وهذا لا يتحقق دون وجود سحت وجهة . إذن وجود الهدف للحركة ضروري . وليس عالم الطبيعة إلا واحد سيّال يسعى إلى هدفه . وعلى هذا فلعالم الطبيعة السيّال والمتحرّك هدف والوصول إلى ذلك الهدف ضروري أيضاً . ومن الممكن أن لا يصل موجود متحرك إلى الهدف على أثر اصطدامه مع مزاحم . ومن الممكن أن لا يخرج شيء من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعلية بسبب إصابة مانع . ولكن ليس لكل عالم الطبيعة الذي هو واحد سيّال مانع من الداخل أو من الخارج يوصل إليه أذى . ليس له مانع داخلي لأنّه واحد سيّال وهذا الواحد السيّال في سعي حثيث منسجم نحو الهدف ، فلا يُفرض حينئذٍ بأنّ هذا الواحد الحقيقي يغلق الطريق على نفسه . إذ هذا الفرض له مجال في الحركات المتشتتة فمثلاً الحبة التي تسعى لتكون ثمرة في طريق وصولها إلى الثمرة ، من الممكن أن تصادف المطر أو البَرَد ، فيمنعها من أن تصير ثمرة ومن الممكن أن يكون هناك نبات في طريق النمو فيسحق بأقدام العابرين ويضمحل .

ومن الممكن أن يلقف السيل الغاضب حيوان في سيره التكاملي ويُلقي به في فم البحر . فأمثال هذه المصادفات توجد الضرر في الحركات الموضعية . ومن الممكن أن لا يصل متحرك معيّن إلى هدفه بسبب الأذى الذي يلحق به . ولكن إذا كان كل عالم الطبيعة واحد حقيقي ، وهذا الواحد في جهد وسعي للوصول إلى هدفه المعيّن فلا يُفترض حينئذ مانع يحول دون

بلوغه رشده . إذن الموانع الداخلية للعالم السيّال لا فرض لها . وأمّا الموانع الخارجية فبما أن كل ما يحصل خارج هذا العالم السيّال فهو بأمر الله المدبّر لهذا العالم السيّال فسيكون فيضها لأجل رشد نفس عالم الطبيعة . وتعمل إرشاداتها وتوجيهاتها لتربية نفس هذا الواحد الحقيقي ، وحينئذ فليس من الممكن أن تقف هذه التي هي في طول سلسلة العلل الفاعلية والتي هي مجاري الفيض الرباني في وجه رشد عالم الطبيعة . والخلاصة بما أنّ عالم الطبيعة واحد سيّال ، وسوف لن يكون السيلان والحركة بدون هدف . إذن وجود الهدف لعالم الطبيعة ضروري . وبما أنّه لا يتصوّر مانع من داخل العالم ولا يفرض مزاحم من خارجه فسيكون وصول هذا العالم السيّال والمتحرّك لذلك الهدف المعيّن ضروري . أي أن وجود الهدف للعالم المتحرك قطعي وكذلك وصول العالم إلى مقصده ضروري . ولهذا فإنّ القرآن الذي بيّن جميع هذه المعارف يقول : سيكون وصول هذا العالم المتلاطم عند وصوله إلى ذلك الموطن وذلك العالم الذي هو نهاية عالم الطبيعة واليوم الآخر ودار القرار والسكون سيكون هادئاً وثابتاً بشكل حتمي وضروري . ﴿ لا ريب فيه ﴾ لا شك في تحقّقه أي ضروري التحقق ووجود القيامة يقيني . ولمجموع نظام السماء والأرض مدة وأجل معين ، وهذا المتحرك عند إتمام أجله يصل إلى هدفه ، والتعبيرات التي هي نظير ﴿ إيان مرساها ﴾ متى تلقي سفينة الطبيعة مرساتها ؟ متى تهدأ سفينة العالم السيّال من صراخها ؟ تشير إلى أنّ القيامة بمنزلة ميناء سفينة الطبيعة . والمعاد مكان هدوء العالم السيّال . وقد مضى برهان الحركة هذا مع شواهده الحيّة بشكل مفصّل إلى حدّ ما .

وقد تقدّم في الجلسة السابقة برهان الحقيقة بالشكل الذي كان لازماً ، وهو أنّه لا بدّ من ظهور الحق لأنّ في عالم الطبيعة الحق والباطل موجودان

معاً . ولا يمكن أن تكون جميع هذه الاختلافات بين أصحاب النظر والعلماء وأصحاب المذاهب المتنوعة وهذه العقائد والآراء الباطلة لا يمكن أن تكون جميعها حق ، لأنّ أحدها يناقض الآخر أحدها حق والآخر باطل . إذن لا بدّ من وجود يوم وموطن تنتهي فيه هذه الاختلافات ، ويُعلم أي أمة من بين الاثنين وسبعين أمّة قد طوت طريق الحقيقة . ومن هم أولئك الذين لم يروا الحقيقة وساروا في طريق الضلال ، وأصحاب أي مذهب كانوا ؟ ومثل هذا اليوم في الانتظار إذ لا بد أن تنتهي هذه الاختلافات التي أثارها النفاق والتعددية والازدواجية بين الباطن والظاهر . هناك يوم آت يكون للإنسان فيه وجه واحد لا وجهين ظاهر وباطن وسيكون ذلك واضحاً وعلنياً . سيكون الظاهر والباطن شيء واحد ﴿ **يوم تُبلى السرائر** ﴾[1] ستظهر الأسرار التي كانت مختفية ، يقول : ﴿ **ولا يكتمون الله حديثاً** ﴾[2] وستنتهي الاختلافات بين باطن وظاهر الأفراد ، وكذلك سينتهي صراع النظريات والمذاهب ، وستنتهي كل أنواع الخصومات الباطلة يوم ظهور الحق ﴿ **ذلك اليوم الحق فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآباً** ﴾[3] وقد مضى هذا البحث أيضاً .

والبرهان الثالث كان هو برهان الحكمة وقد كان حدّه الأوسط هو هذا : بما أن الله حكيم والحكيم لا يصدر منه فعل باطل وبلا فائدة ، إذن الله سوف لن يفعل فعلاً باطلاً وبلا فائدة . وهذا العالم الذي هو فعل الله ليس بلا هدف ، فله مقصد وهو ساعٍ على أثر مقصده . وفي برهان الحكمة يجب أن يتميز هذان المطلبان عن بعضهما ، وهو أنّ الله غير المحتاج المحض لا يصدر منه فعل لهدف معيّن ، ولكن لأنّه حكيم والحكيم لا يصدر منه فعل

---

(١) سورة الطارق، الآية: ٩٦

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٢ .

(٣) سورة النبأ، الآية: ٣٩ .

عبثاً وبلا هدف . فهذان المعنيان يجب أن يتميز أحدهما عن الآخر في شرح برهان الحكمة . الأول : أنّ الله لا يصدر منه فعل لهدف ما . والثاني : أن الله لا يصدر منه عمل بلا هدف . أي أن الفاعل ليس له هدف ، مع أن الهدف بالنسبة للفعل ضروري ، أي أنّ الله ليس له مقصد مع أنّ وجود مقصد للعالم ضروري . فأمّا أنّ الله ليس له هدف ومقصد لأنّ معنى وجود هدف ومقصد له هو أن الفاعل فاقد للكمال وغير واجد لمطلوب ما فيسعى من خلال عمله للوصول إلى مقصده ونيل كماله . فالعمل رابط بين الفاعل والهدف ، والفاعل بواسطة فعله يصل إلى ذلك المقصد وينال ذلك الكمال والهدف . وهذا هو معنى وجود هدف للفاعل ، ولكن إذا كان الفاعل هو عين الكمال المحض والكمال اللامحدود فلا يفترض انفصال الكمال عن هذا الفاعل بحيث يكون هذا الفاعل فاقداً له ، ولا يمكن حينئذٍ أن يؤدّي الفاعل عملاً يريد به الوصول إلى الكمال وأن ينال بواسطة هذا العمل ذلك الهدف . ولهذا إذا كان الفاعل كمالاً محضاً فسوف لن ينفصل عن هدفه ولا يرتكب عملاً في سبيل الوصول إلى هدفه . وهذا أصل قرآني قد عبّر عنه الله تعالى هكذا : ﴿ إنّ الله لغني عن العالمين ﴾[1] فالله غني عن كل شيء في العالم فهو الغني المحض . وإذا كان الله غني محض فعدم الحاجة عين ذاته ، وليس فيه نقص ليتمم بعمله هذا النقص ويصل إلى هدفه . وأمّا أنّه حكيم فلا يصدر منه عمل بلا هدف فلأجل أنّ حكمته منشأ عمله . وإذا كانت الحكمة منشأً للعمل فإنّه يكون لذلك العمل نظام خاص وهدف مخصوص . ولا ينشأ العمل غير المنظم وغير الهادف من الحكمة . ولا يصدر من الحكيم عمل بلا مقصد . ولهذا يقول القرآن عن الأصل الثاني : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦.

ليعبدون ﴾[1] أي أنّه خلق الجن والإنس للعبادة ليصلون إلى كمالهم .

ويجب إثبات هذين المطلبين بالآيات القرآنية :

١ ـ الله غير محتاج محض ، ولا يعمل لهدف ما ليصل هو إلى ذلك الهدف ويكون ذلك الهدف فاعلاً .

٢ ـ بما أنّ الله حكيم فلا يصدر منه فعل بلا هدف ويكون العالم عبثاً .

ويجب أن نستنبط هذين الهدفين من القرآن الكريم : فأمّا أنّ الله حكيم ولا يصدر من الحكيم عملاً بلا فائدة فقوله : ﴿ **وما كنّا بينهما لاعبين** ﴾[2] لم نخلق هذا العالم للعب ، ولم نصنع هذا العالم بلا هدف ، أي أن عالماً بلا هدف سوف لا يصدر من الله وفي عدة مواضع من القرآن الكريم إشارة إلى هذا الأصل الديني أحدها قوله في سورة الأنبياء : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾[3] . لم نخلق السماء والأرض وما في هذه المنظومة الكونية للعب واللهو . أي أنّ العالم ليس ألعوبة ، ليس عالماً للهو واللعب ، وليس عالم الطبيعة ألعوبة وبلا هدف . وقال في تعبيرات أخرى : لم نخلق السماوات والأرضين باطلاً ولم نخلقها بلا هدف . ويقول أيضاً : لم نخلق السماء والأرض إلاّ بالحق . ويقول في سورة صاد : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً** ﴾[4] ليس هذا النظام بلا هدف ذلك ظن الذين كفروا حين قالوا : عالم الوجود هو الدنيا فقط ، وهذه الحياة والموت تقبل النهاية . فالإنسان يفنى بموته ، والعالم يسير بحركته نحو الفناء . وهذا الظن الباطل للذين لا يعتقدون بالمعاد : ﴿ **ذلك ظن الذين**

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦ .

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٦٠ .

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٦ .

(٤) سورة ص، الآية: ٢٧ .

كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾[1] وعلى هذا : بما أنّ الله حكيم ، لا يصدر من الحكيم عملٌ بلا هدف . وإذا كان الله تعالى قد عرّف الحياة الدنيا في القرآن الكريم بأنها لهو ولعب ، وأمثال ذلك : **﴿ اعلموا إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾**[2] حيث يقسم الدنيا إلى خمسة مراحل : الأولى : الألعوبة ، وبعدها : اللهو ، وبعدها : الأنس بالزينة ، وبعدها : التفاخر الباطل ، وبعدها : التكاثر في الثروة أو الأولاد . والإنسان بحسب اختلاف سنين عمره من الطفولة إلى الشيخوخة يطوي هذه المراحل الخمسة . وإذا كان قد قال بأن الدنيا لعب فلأجل أنّ الدنيا غير عالم الطبيعة . وإذا كان القرآن قد عرَّف الدنيا بأنها ألعوبة فلا يعني أنّ الأرض ومعادنها لهو ، ولا يعني أنّ البحر والحيوانات البحرية ألعوبة ، ولا يعني أنّ الإنسان وأفكاره المحقّقة ألعوبة ، ولا يعني أنّ الهواء والموجودات الفضائية ألعوبة ، فهذه ليست دنيا ، بل هي آيات إلهية وعلامة الأسرار الإلهية . والدنيا هي تلك العقود الاعتبارية الخاصة التي وضعت لتنظيم الأمور الحياتية ، مَن يكون رئيساً ، ومَنْ يكون عضواً ، ومَنْ يكون صاحب منصب . لمن يكون هذا المال ، كيف نصير ملاّكاً ، كيف ننقله ، كيف ننتفع منه ، فهذه من العناوين والمقررات الاعتبارية للدنيا . إذن الدنيا ليست كوكباً وبحراً ونباتاً فهذه آيات الله ومظهر جمال وجلال الحق ، وعلامة لطف الحق ، فالكل حكمته وتسبّح الحق ، الجميع مجرى فيض الحق ومرآة الحق ، وهذه ليست دنيا . الدنيا هي العقود الخاصة المجعولة لتنظيم الحياة . والإنسان مخدوع بهذه الأمور الاعتبارية ، من الافتخارات والملكيات وهذه الخيالات المنسوجة والتوهمات (فالإنسان

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

العاشق للدنيا بتعبير القرآن الدقيق مختال أي متأثر بالخيال) .

هذه الارتباطات الاعتبارية والعقود هي الدنيا . والإنسان يكون له أحياناً زرع جيد من هذه الارتباطات ، وأخرى ينحدر بها إلى الأسفل « الدنيا مزرعة الآخرة »[1] دنيا الألعوبة لا الأرض والسماء ، دنيا اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر لا الصحراء والبحر ليس لها عمل سوى الخداع . دار الغرور لا السماء والأرض ، السماء مجلاة الحق ، والأرض مرآة الحق ، والبحر والصحراء علامة جلال وجمال الحق ، والإنسان والملائكة والموجودات الأخرى آيات قدرة الحق . وبناءً على هذا فلا يصدر من الله الحكيم عمل بلا فائدة . فليس الإنسان عبثاً ، بل ظنونه الباطلة عبث . وليس الإنسان عبثاً بل افتخاراته دنيا ولعب وعبث . وفي سورة القيامة بيان لهدفية الإنسان يقول : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾[2] أيظن الإنسان أنّه طليق وبلا فائدة وهدف ، ليس هكذا أبداً . فالله الحكيم لا يفعل فعلاً عبثاً وبلا فائدة ، ولم يصدر منه منذ بدء الخلقة فعل بلا هدف . إذن إذا كان قد قال : ﴿ **وما خلقت الجن والأنس إلاّ ليعبدون** ﴾[3] أي أنّه ليس للإنسان هدف سوى العبادة لا أنَّ لي هدفاً وهو أن أصير معبوداً . فالأصل الأول هو أنّ لفعل الله هدف . وأما الأصل الآخر فهو أنّ الله لا يرتكب فعلاً لأجل هدف معيّن . ولا يفعل الله فعلاً من أجل الوصول إلى مقصد ما ، لأنّه مقصود الكل ، وهو الصمد ﴿ **الله الصمد** ﴾ فقد شدت قافلة الوجود رحالها نحوه فهو مصمود ومقصود الجميع ، وهو قاضي حاجات المحتاجين ، وهو لا مقصد له سوى نفسه وسوف لن يكون له مقصود غيره ليؤدّي فعلاً يصل فيه

---

(١) كنوز الحقائق : ج ١ ، ص ١٣٣ (حديث نبوي).

(٢) سورة القيامة، الآية : ٣٦.

(٣) سورة الذاريات، الآية : ٥٦ .

إلى مقصوده . ولهذا ينقل الله تعالى حديث موسى الكليم سلام الله عليه : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغني حميد ﴾[1] يقول : إذا كفرتم أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّه لا يصل الأذى إلى أي حدّ ، لأنّ الله غير محتاج ذاتاً . فإذا كفر البشر وتركوا العبادة فسوف لن يصلوا إلى الهدف لا أنّ الله لا ينال مقصوده ، لأنّ الله هو غير المحتاج المحض . وغير المحتاج المحض هو هدف بنفسه وليس في البين هدف آخر ، لأنّه مقصود الكل ولا مقصود سواه . وإذا كفرت جميع المجتمعات البشرية فهم الذين لم يصلوا إلى الهدف ، لا أنّ الله مقصود ولم يصل إليه ﴿ فإنّ الله لغني حميد ﴾ فجميع النعم هي من جهة الحق . إذن هو المحمود . وكل الثناء والحمد له . وكل كمال يوجب الحمد والثناء فهو من الله . فلا يوجد فرض أنّ الله لم يصل إلى هدفه ، لأنّ الهدف المحض سوف لن يكون له حينئذ هدف . ويقول في آية قرآنية أخرى : ﴿ إن الله لغني عن العالمين ﴾[2] فالله ليس غنياً فقط عن عبادات الإنسان بل هو غير محتاج ذاتاً إلى كل ما يُفترض في جميع عالم الخلقة .

فذلك المبدأ الذي هو الغنى المحض لا يوجد أي فرض في وجود حاجة بالنسبة له . وعلى هذا فبرهان الحكمة لإثبات المعاد هو أنّه : بالرغم من أن الله غير محتاج ولا مقصد له ولكن لا يصدر من الله الحكيم فعل بلا هدف . ولهذا العالم هدف يسكن عند وصوله إليه . والإنسان له مقصود يكون كاملاً عند وصوله إليه . وليس مقصد الإنسان في عالم الدنيا . فهذا العالم الذي يتكرر فيه الموت والحياة ويختلط فيه الحق والباطل ويتجاوز فيه الحسن والقبيح ويتساير فيه الحزن والفرح ويتصاحب فيه الصحة والمرض

(١) سورة إبراهيم، الآية : ٨ .
(٢) سورة العنكبوت، الآية : ٦ .

وتتآخى فيه الدمعة والابتسامة لا يمكن أن يكون له مقصود وهدف . بل هناك الحياة التي لا موت معها ، وهناك الفرح الذي لا حزن معه ، وهناك السلامة التي لا مرض معها ، وهناك السلم والصلح والصفاء الذي لا كدورة خاطر معه ولا عداوة ولا حقد معه ، وهناك الحسن المحض والجمال الصرف ، حيث ليس للقبح والسوء طريق ذلك هو المعاد وجنّة السعادة . وقد خلق الإنسان ليصل إلى مثل هذا الموطن . وخلق لينشد ذلك الموطن وذلك الموقف . ولا يختصّ برهان الحكمة هذا بالمجتمع الإنساني ، بل يثبت المعاد لكل عالم الخلقة ، كما أنّ برهان الحقيقة كان يقول بالهدفية لجميع العوالم وأثبت القيامة لكل عالم الخلقة ، ولكن برهان الحركة يثبت القيامة فقط للعالم المادي والمتحرك ، فإثبات المعاد للموجودات غير المادية كالملائكة الكمل والأرواح العالية ببرهان الحركة غير صحيح بل يحتاج إلى برهان آخر من البراهين المذكورة وأمثال ذلك ومن جهة أخرى لا يمكن إثبات المعاد إلى مرحلة لقاء الله ببرهان الحركة . ولكن يمكن إثبات الحشر بمعنى لقاء الله ببرهان الحقيقة أو برهان الحكمة أيضاً . وخلاصة برهان الحكمة يُفهم هذين المطلبين : أنّ الله غير محتاج ولا مقصود له ، ولكن وجود جهة وهدف للعالم أمر ضروري . وسيكون وجود هدف وقيامة للعالم أمر قطعي . وعلى هذا الأساس بما أنّ الله تعالى هو الغني المحض فهو لا يقوم بأي فعل في سبيل الوصول إلى هدف أبداً . سواء كان مقصده من هذا الخلق أن ينتفع هو به ، أو كان مقصوده هو إيصال النفع للآخرين . وكما أنّ الله لم يخلق العالم لينتفع به فكذلك لم يخلقه ليكون جوّاداً . ففعل الله لا يقبل لام التعليل . ولا يفترض وجود هدف للفاعل الذي هو غني بالذات . فالله لم يخلق العالم ليستفيد منه ، وكذلك لم يخلق العالم ليكون جوّاداً على عباده ، لأنّه إذا كانت لام التعليل هدف الفاعل ، أي أنّ الله فعل

هذا ليصل إلى الهدف الفلاني فإنّ هذا معناه أنّ الله إذا لم يجد على عباده فهو ناقص ، فهو يُريد أن يوصل الجود إلى عباده ليكون كاملاً عن طريق إيصال الخير لهم . ومثله كالإنسان المتمكّن الذي يبني داراً أو مستشفى لا لينتفع بها بنفسه بل ليسكن بها إنسان محتاج وينتفع منها الآخرون . فهذا الشخص المتمكّن لم يبنِ الدار ليحصل منها على نفع ولكن ليجود بهذا البناء على الآخرين . فإذا لم يكن هذا المتمكّن قد بنى هذه الدار ولم يصنع هذا الخير والجود للآخرين فهو ناقص فهو يريد أن يتخلّص بهذا العمل من نقص البخل ويصل إلى كمال الجود . ويريد أن يُرمّم بهذا العمل نقصه ويوصل يده القصيرة إلى الهدف ، فإنّه إن لم يكن جواداً كان ناقصاً ، فهو ينال كماله ويصل إلى هدفه بفعل الخير والجود والكرم . والله تعالى الذي هو غني محض ليس كذلك ، بشكل إذا لم يوصل الخير ولم يكن موضعاً للجود يكون ناقصاً ، ويصل إلى الكمال بإيصال هذا الخير وذلك الجود والكرم ، أبداً . إذن يجب أن يقول : أنا لم أخلق الخلق للفائدة والمنفعة لا لي ولا للعباد لأنّ ﴿ الله لغني عن العالمين ﴾[1] ولكن لأنّه حكيم فقد خلق العالم ليصل الخلق إلى مقصده . وكما أنّه قد اتّضح في برهان الحركة أنّ للعالم هدفاً وهذا العالم واحد حقيقي يوجد أي فرض للتزاحم والصراع في هذا الواحد وهذا العالم السيّال الذي له هدف يقيناً لا بدّ من وصوله إلى هدفه ، ولهذا فإنّه لا شك في وقوع القيامة وهو اليوم الذي ﴿ لا ريب فيه ﴾ . ففي برهان الحكمة يوجد هذين المطلبين أيضاً ، أي أنّ العالم صادر من الله الحكيم وليس بلا هدف ، بل له هدف يقيناً . وسواء قلنا بالحركة الجوهرية أو لا لأنّ الحد الأوسط في هذا البرهان هو الحكمة . ويجري البرهان أيضاً حيث لا توجد حركة . كما يجري برهان الحكمة لإثبات ضرورة المعاد

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦ .

للمجردات على خلاف برهان الحركة . وعلى أي حال بما أنّ العالم صادر من الله تعالى فإنّ له هدف يقيناً وهو ليس عبث . وبما أنّه لا يوجد أي فرض يمنع من وصول العالم الواحد المترابط إلى الهدف ، لا من الداخل ولا من الخارج . فليس له مانع من الداخل لأنّه واحد حقيقي له هدف . وليس له مانع من الخارج لأنّه ليس هناك شيء خارج عن هذا العالم سوى الله خالق العالم وصانعه ، وقد طرح بسبب حكمته عالم الخلقة طرحاً حكيماً ، وجعل لكل فعل هدف ، ولذلك الهدف هدف ، وهكذا إلى أن تنتهي سلسلة الأهداف إلى ذلك الهدف النهائي . ومثل هذا الهدف الواحد صادر من الله الحكيم ، ولا يوجد غير العالم موجود سوى الله ، إذن فلا يفترض وجود مانع ، وبناءً على هذا فليس للتزاحم والصراع طريق يمنع من وصول هذا العالم ـ الصادر من الحكيم والمنظّم على أساس الحكمة وله هدف يقيني ـ إلى هدفه . ومع الإلتفات إلى هذين الأمرين فإنّ تعبير القرآن الكريم هو أنّ يوم القيامة ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي ليس ممكناً فقط أنّ الله يُحيي الموتى ، وليس فقط أنّ للعالم معاد وليس فقط أنّه ممكن ، بل هو ضروري ، لأنّ الله قد وعد وهو لا يخلف معاد ، ولهذا فالمعاد يقيني : ﴿ لا ريب فيه ﴾ لا شك أبداً في أنّ المعاد حق ولا شكّ في أنّ القيامة ضرورية ، ولا شك مطلقاً في ضرورة قطعية القيامة ، ﴿ لا ريب فيه ﴾ . إذ قد أشير إلى هذه النقطة في برهان الحقيقة أيضاً من أنه كما أنّ يوم القيامة ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي أنّه غير متعلّق للشك ، ولا يمكن التردّد في أحقية القيامة وأصل وقوعها ، فكذلك لن يكون ذلك اليوم أيضاً ظرفاً للشك ﴿ لا ريب فيه ﴾ في ذلك اليوم لأنّ الحق ظاهر ولا مجال للشك والاشتباه ، لأنّ الاشتباه لا يكون إلاّ في صورة وجود شيء حق وآخر باطل ، فيشك في فرد ثالث هل هو من قسم الحق أو من قسم الباطل . فإذا لم يكن في مكان باطل فلا يوجد الشك أيضاً ، لأنّ

الاشتباه يقع عندما نظن بأنّ شبيه الحق حقّ . فإذا ظهر الحق ولم يكن للباطل موضع أبداً فسوف لن يكون هناك أرضية للشك والترديد . ولهذا فإنّ يوم القيامة ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أي لا يقبل الشك . والمهم بلحاظ تهذيب النفس هو ذكر القيامة ، يقول مولى الموحّدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب روحي وأرواح العالمين له الفداء : « ذهب المتذكّرون وبقي الناسون أو المتناسون »[1] .

يقول : ذهب أولئك الذاكرون لله والقيامة ـ أي ذهب أولئك الذين عُجن ذكر القيامة في أرواحهم مع ذكر المعاد ـ وبقي أولئك الناسون لذكر الله والقيامة أو أولئك المتناسون لذكر الله والقيامة عمداً . ولقد كان بين أصحاب رسول الله ﷺ من كانوا ذاكرين للقيامة قد ذهبوا من بين أيدينا وبقينا فعلاً بين أولئك الناسين لذكر القيامة . وعندما يمدح الله تعالى إبراهيم الخليل وسائر الأنبياء العظام يقول : ﴿ **إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾[2] لأنّ هؤلاء كانوا ذاكرين للقيامة فقد جعلناهم من عبادنا المخلصين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) نهج البلاغة فيض: ص ٥٧٣ .
(٢) سورة ص، الآية: ٤٦ .

الدرس
التاسع
عشر

ضرورة المعاد استناداً للعدالة الإلهية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمّد وآله الطاهرين .

كان البحث الذي طرح سابقاً حول ضرورة القيامة وبُيّن في مقدمته تأثير الاعتقاد بالقيامة في تهذيب النفس والدور المؤثّر للاعتقاد بالمعاد والإقرار بيوم الجزاء في تربية الروح ، وما هو الأثر السيّىء لنسيان القيامة والآخرة في فساد الروح . ولهذا يبيّن القرآن الكريم بأنّ خطر فساد الناس ناتج من نسيان القيامة يقول : ﴿ **بما نسوا يوم الحساب** ﴾[1] ثمّ ذكر بأنّ الله تعالى قد أوصل مجموعة من الأفراد الذين هم نموذج الإنسانية في ظل ذكر المعاد إلى مقام الإخلاص الشامخ ، ويقول : لقد وصلت هذه المجموعة الممتازة بذكر القيامة إلى درجة عُدّوا فيها من عباد الله المخلصين ﴿ **إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾[2] بما أنّ هؤلاء قد وصفوا بوصف خاص وخالص وهو ذكر القيامة فقد جعلناهم من عبادنا المخلصين . وقد طرحت

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٦ .

(٢) سورة ص، الآية: ٤٦ .

عدّة فصول من بحث المعاد . وبعد هذه المقدمة التي مضت بصورة مفصّلة في الجلسات السابقة « وهو الدور الفعّال لذكر المعاد في تربية النفس وتهذيبها » طرح فصل حول أدلة وجود وضرورة المعاد ، وفصل آخر في نقل الشبهات والإشكالات حول المعاد مع بيان الأجوبة المقنعة والقاطعة . وقد تكرر الحديث حول بعض مسائل الفصل الأول والذي كان حول أدلة المعاد ، وأقيمت عدّة أدلة على ضرورة المعاد : برهان الحركة وبرهان الحقيقة وبرهان الحكمة وبرهان الرحمة ، وقد طُرحت هذه البراهين الأربعة في طي الجلسات السابقة ، وقد كانت ثمرة ونتيجة كل دليل بمقدار حدّه الأوسط ، ففي البرهان الذي كان حدّه الأوسط أنّ لكل حركة هدف ، بما أنّ العالم متحرك وكل متحرك له هدف يستقر عند وصوله إلى ذلك الهدف ، ولهذا فسيكون لعالم الطبيعة المتلاطم دار قرار . لا يثبت برهان الحركة المعاد للموجودات الأعلى من عالم الحركة ، ويُحتاج إلى دليل آخر لإثبات المعاد والقيامة والحشر الأكبر لهذه الموجودات ، وقد أشير في الجلسات السابقة إلى هذا الدليل . وفي برهان الحقيقة أنّ الله حق ويجب أن يظهر الحق في موطن يُنهي فيه عمر كلا اختلاف وأصل كل نفاق وتخلّف ، والحد الأوسط لهذا البرهان كان هو ظهور الحق . وهذا سوف يشمل عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة أيضاً . وباصطلاح حكمة الإشراق فهو يشمل عالم الدنيا كما يشمل عالم الآخرة ويجعل المادي والمجرّد تحت سيطرته ، فالجميع محشورون إلى الله ، وحشرهم جميعاً إلى الله .

والبرهان الثالث كان هو برهان الحكمة وهو أن الله لا يرتكب فعلاً لهدف معيّن . لأنّه كمال محض وغني صرف ، ولكن حيث أنه حكيم ولا يصدر من الحكيم فعل بلا هدف (والفرق بين هدف الفاعل وهدف الفعل أن الفاعل بما أنّه غني محض فليس له مقصد ، ولكن الفعل بما أنّه من الحكيم

فهو حكيم وله مقصد) فسيكون جريان المعاد ووجود الهدف لعالم الخلقة ضروري . وقد تقدّم هذا البحث مفصلاً . وأمّا برهان الرحمة والذي حدّه الأوسط رحمة الله فمعناه أن رحمة الله ليست وصفاً عاطفياً وانفعالياً ﴿ **ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً** ﴾[1] . فليست رحمة الله عاطفية وانفعالية ، بل رحمته عبارة عن إعطاء كل كمال لكل مستعد ومتهيّىء ، فكل مستعد لقبول الكمال مقتضى رحمة الله هو إعطاؤه الكمال ، ولهذا يقول في سورة الأنعام عندما يطرح قضية المعاد : ﴿ **كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾[2] بما أنّه قد كتب على نفسه الرحمة فإنّه حتماً يتعامل مع البشر برحمة ، ومعنى رحمته هو أنّه يعطي كل كمال للمستعد والمتهيّىء له ، والروح الإنسانية مستعدة للكمال الأبدي وعال الخلود كمال البشرية . فالله سيعطي ذلك الكمال للبشر ، وقد تقدّم هذا البحث ظاهراً في الجلسات القديمة وقد كان الحد الأوسط لهذا البرهان هو رحمة الله . وأمّا ذاك الذي أشير إليه في حدود معيّنة ولكن يجب تفصيل البحث في مختلف جوانبه في هذه الجلسة فهو برهان العدالة . الله عادل وبما أن الله عادل فسوف لن يكون ظلم في خلقه ، وإذا قام أحد ما بظلم معين ولم يصل إليه جزاءه فهو ظلم ، وإذا قام أحد ما بخدمة ما ولم ينل ثوابه فقد ظلم . وإذا تساوى القبح والحسن فهو ظلم ، وإذا تساوى الجمال والرداءة فهو ظلم . وهذا لا يتلاءم مع عدالة الله . وبما أنّ الله عادل فإنّ له موطناً للحساب يصفّي فيه الحسابات . ويعطي في محكمة الحساب هذه الثواب في مقابل الأعمال الحسنة ، ويعاقب في مقابل الأعمال السيّئة . وهذا يجب أن يوضّح ، فالقرآن الكريم قد عرَّف الله بأنّه عادل وسلب الظلم عن الله باعتباره وصفاً

---

(١) سورة غافر، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

سلبياً : ﴿ ولا يظلم ربّك أحداً ﴾[1] و ﴿ وما ربّك بظلّام للعبيد ﴾[2] لا يظلم الله أحداً أبداً ، لأنّ الله إذا أراد أن يظلم بمقدار ذرّة فإنّ ذلك المقدار الصغير يكون كثيراً ، لأنّ ذرة غير منظّمة تقطّع أوصال نظام الخلقة المترابط ويتمزق ذلك الحبك وتتعدّى على حدود الجميع . ولهذا فلو صدر من الله ـ معاذ الله ـ ظلم في لحظة أو بمقدار ذرّة فإنّ الله يكون ظلّاماً .

وبتعبير الأستاذ العلّامة الطباطبائي رضوان الله عليه في تفسيره القيّم الميزان يقول : عندما يقول القرآن أن الله ليس بظلّام فليس هذا المعنى أنّ الله لا يظلم كثيراً ، لأنّه لا يظلم أصلاً ، سواء كان قليلاً أو كثيراً ، لأنّه إذا ظلم بمقدار ذرّة يكون ظلّاماً . لأنّ الظلم يعني التعدّي عن الحدّ . فإذا تعرّضت حدود بعض الموجودات إلى أذى في لحظة واحدة فإنّ هذا الأذى يسري إلى الجميع ، لأنّه إذا تعرّض ذلك النظام المنسجم وذلك النظام المترابط إلى صدمة في أحد جوانبه فإنّ جميع الجوانب ستتعرض إلى الأذى . والله لا يرتكب ظلماً أصلاً فهو عادل . وهو الله الذي يدعو إلى القسط والعدل ﴿ قل أمر ربّي بالقسط ﴾[3] يقول لنبيّه : قل إنّ ربّي يدعو إلى القسط والعدل . وهو الله الذي عرّف رسالة الأنبياء بأنها القسط والعدل بين الناس ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾[4] وهو لا يظلم أبداً . ولو نظرنا إلى العالم نرى الناس على نوعين : نوع ظالم ونوع عادل ، مع أن الأنبياء قد وفّقوا في سعيهم الحثيث أن يؤثّروا على البعض فكانوا صادقين ومتّقين ووصل بعض آخر إلى فضائل أخلاقية عالية ، وقد اتّضح في حياتهم العلم والعدل .

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩ .
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦ .
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٩ .
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٥ .

ولكن مع الأسف فلقد كانت هناك مجموعة قد عاندت الأنبياء وعموا وصمّوا في مقابل كلام الأنبياء ونهضوا لحربهم إلى أن وصلوا إلى مرحلة كانوا ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾[1] وامتدّت أيديهم إلى قتل الأنبياء ظلماً . إذن كان الناس في مقابل رسالة الأنبياء على فرقتين كما أنّ القرآن قد قسّم هؤلاء إلى مجموعتين . فإذا لم يكن حساب وثواب وعقاب ، وإذا لم يكن حساب وتحقيق ، وإذا كان الصالحون يفنون بالموت ويفنى الفاسقون بالموت أيضاً من غير حساب وكتاب وثواب وعقاب فلا شك أنّه يلزم الظلم لأنّه لا ينبغي أن يكون المصير واحداً لمن قُتِل في سبيل حفظ القسط والعدل ومن تلطّخت أيديهم بقتل الأنبياء وأنصارهم . إذن لا بدّ أن يكون فرق بين هؤلاء . وهذا هو الأصل الأول . والأصل الثاني هو أين هذا الفرق والامتياز بين المتقي والعاصي ؟ وأين هو ذلك العالم الذي يتميّز فيه الحسن عن القبيح ويصل فيه الجميع إلى حسابهم ؟ فهل هو في هذه الدنيا حيث يوجد الحق إلى جانب الباطل والقبح إلى جانب الحسن والتقوى في مقابل النفاق ؟ فليس هنا دار عمل ولا دار جزاء ، هنا دار الامتحان لا دار القضاء ، هنا موضع الامتحان لا موطن الجزاء . نشاهد أحياناً صوراً من الجزاء والثواب والعقاب في عالم الطبيعة ولكنَّ هذه النشأة ليست عالماً للجزاء . لأنّه من الممكن أن يوجد في هذه الدنيا العصيان والكتمان والتحريف وكل أنواع المخالفات ، لأنّ هذا العالم عالم الإمكان وعالم الحركة وعالم التكليف . إذن سوف لن تكون الدنيا دار الجزاء ، فدار الجزاء هي دار غير دار الدنيا . وعلى هذا الأصل فلا يمكن العلم بموطن الجزاء قبل الموت ولا يمكن العلم بموقف الجزاء بعد الموت في هذه الدنيا بصورة التناسخ ، ولا يمكن أن تكون الدنيا ظرفاً للجزاء ، لأنّ الدنيا ظرف

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١ .

الامتحان . ويستطيع الإنسان أن يقابل كل أذىً يصل إليه برد فعل مناسب . إذن لا يمكن أن تكون الدنيا دار جزاء . ووفقاً لهذه الأصول وهي وجوب التفرقة بين الصالحين والفاسقين ولزوم وصول الأخيار إلى ثوابهم والأشرار إلى عقابهم ، ومن جهة أخرى لا يمكن أن تكون الدنيا دار جزاء مع أنّ التناسخ مستحيل . إذن لا بدّ من وجود عالم يوصل فيه إلى حساب جميع الأعمال وإلى حساب جميع أعمال الناس ، ولا يُكتم شيء في ذلك اليوم ، وليس ذلك اليوم يوم نسيان ، بل يوم ظهور الحق والعدل ، ويوزن العمل فيه بالحق ليصل الأخيار إلى ثوابهم والأشرار إلى عقابهم . ويذكر الله هذا المعنى بعنوان أنّه أمر ضروري ، فالمعاد أمر ضروري بسبب العدل الإلهي ، بما أنّ الله عادل إذن القيامة ضرورية ، وأصل طرح القيامة في نظام الوجود الكلي أمر ضروري . ولا يمكن أن لا يتحقق يوم الحساب ويوم الثواب والعقاب وأن لا يوجد هذا المخطط ، لأنّه لا يوجد مانع من خارج العالم ولا مزاحم من داخله . وليس في عالم الخلقة شيء يقف في وجه أعمال العدل الإلهي ، لا المجتمعات الإنسانية التي يجب أن تحضر في محكمة العدل ، ولا مجال لفرض موجودات أخرى تقف في وجه ظهور العدل الإلهي . فإذا كان الله غنياً عن العالمين فلا يحتاج إلى أحد في إجراء العدالة . وإذا كان الله واحداً وقهّاراً فلا نفوذ لأحد في منطقة الإرادة الإلهية . فالله غير محتاج إلى أحد في إجراء العدالة ولا يستطيع الغير أن يزاحمه في عمله . ولا يوجد في العالم غير الله وأسماءه الحسنى وأفعاله . وآيات الله خاضعة وخاشعة أمام الله ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾[1] . وعلى أساس هذين المعنيين وهذين الأمرين فإنّ التعبير الرفيع للقرآن الكريم حول القيامة هو : ﴿ وأنّ الساعة آتية لا ريب

---

(١) سورة النمل، الآية : ٨٧ .

فيها ﴾[1] كما أنّه لا شك في وجود الله ولا تردّد في وحيه ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾[2] فإنّه لا شك أيضاً في أنّ القيامة حق وأنّ المعاد أمر حتمي .

هذا هو برهان العدالة وحده الأوسط العدل الإلهي ، وفي سورتي الزمر وصاد إشارة إلى ذلك يقول : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار ﴾[3] فهل من الممكن أن نجعل الذين يعتقدون بعقائد الحق وإلى جانب ذلك يعملون الصالحات كالمفسدين في الأرض على حدّ سواء ؟ أي أنّ المفسدين في الأرض يموتون فيفنون والصالحون والمؤمنون يموتون أيضاً ويفنون بلا حساب بعد الموت ومحكمة ؟ فهل أنّ الله العادل يدير العالم هكذا بحيث يفنى الصالحون والطالحون بالموت ثم لا حساب ولا كتاب على صلاحهم وفسادهم ﴿ أم نجعل المتقين كالفجّار ﴾ فهل أنّ الله يساوي بين أهل التقوى والفجور في الذهاب بلا حساب على تقواهم وفجورهم ؟ وهل أن الله الذي ألهم النفس الإنسانية التقوى والفجور معاً ﴿ ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾[4] وبيّن طريق العدل والظلم وألهم الإنسان الحسن والقبح ، فاحترم البعض هذا الإلهام وطوى طريق الحق ، وأغمض البعض عينيه عن هذا الإلهام وكان جوابه لنداء الأنبياء بالسخرية والاستهزاء ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلاَّ كانوا به يستهزؤون ﴾[5] . فيعاملهم على حدٍ سواء ؟ وهل من اتّبع نداء الأنبياء سواء مع مَنْ كان جوابه السخرية والاستهزاء ؟ ﴿ أم نجعل المتّقين كالفجار ﴾ وهل نساوي بين أهل التقوى

---

(١) سورة الحج، الآية : ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية : ٢.
(٣) سورة ص، الآية : ٢٨.
(٤) سورة الشمس، الآيتين : ٧ ـ ٨.
(٥) سورة يس، الآية : ٣٠.

وأهل الفجور ؟ لا يسمح العدل الإلهي أبداً أن يكون المتقون على حدّ سواء مع الفاسقين . وقد بيّنت سورة الجاثية أيضاً التفاوت بين الحق والباطل والفرق بين المتقين والفاسقين ، يقول : من غير الممكن أن يعيش هؤلاء سواسية ويكون كلاهما على حد واحد ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[1] .

أيظن المذنبون الذين يعملون السيّئات أن نجعلهم سواء مع المؤمنين ؟ فهل مَن قضى عمره يرتكب الذنب تلو الذنب سواء مع من كانت خلاصة حياتهم الإيمان والعمل الصالح ؟ أفلا توجد محكمة يُحاسبُ فيها هؤلاء ؟ وهلاّ يوجد يوم للتحاكم يصل فيه كل إلى ثوابه أو عقابه ؟ وهل موتهم وحياتهم سواء ؟ لقد كانت حياتهم في الدنيا سواء فهل يفنون بعد الموت على حد سواء ولا يوجد يوم للحساب ؟ ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ وإذا كان ظنّهم هكذا فهو ظن باطل ، ومثل هذا الحكم والقضاء غير صحيح ، فما هو حكم الحق ؟ حكم الحق والصواب هو : ﴿ **خلق الله السماوات والأرض بالحق** ﴾ خلق الله نظام الخلقة مصحوباً بالحق ، فالحق هو ملاك عالم الخلقة والعمود الفقري لعالم الخلقة الحق هو البناء الفوقي والبناء التحتي لعالم الخلق ، ولا يوجد في عالم الخلق غير الحق . فلا يوجد هناك في مكان التكوين والخلق موضعاً للباطل . ومكان الباطل هو العقود والاعتبارات الإنسانية والاجتماعية ، وإلا فلا يوجد في نظام الخلق باطل . ﴿ **ربّنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾[2] وليس هذا النظام سوى واحد . ولهذا

---

(١) سورة الجاثية، الآيتين: ٢١ ـ ٢٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

وردت الإشارة إليه بلفظ المفرد ، وهذا الفرد الواحد حق أيضاً . وعندما يمدح الله المتفكرين يقول : هؤلاء هم الذين يفكرون في السماوات والأرض ويقولون : ﴿ **ربّنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾ ربّنا هذا ليس باطلاً ، ولم يُعبّر بضمير الجمع عنها بدل « هذا » لأنّه لا كثرة في الفعل ، بل قال « هذا » أي أنّ العالم واحد ، وعلامة هذا الواحد هو الحق « انعكاس لضياء خد الساقي سقط في الكأس » فليس في البين كثرة وتعدّد . وإنما الإنسان العادي يرى العالم كثيراً وإلا فجميعها تشكل واحداً وصادرة من الله الواحد الأحد وهي تطلبه وتسبّح له . إذن ليس في عالم الخلقة بطلان ، وإذا كان هناك بطلان فهو في الاعتبارات الاجتماعية . هناك حيث يد الجعل والاعتبار ، وهناك حيث الدور المؤثر للتخيلات والأوهام ، هناك يجد البطلان طريقاً له أحياناً ، أي هناك حيث لا يرى الإنسان الحق ، فعدم رؤية الحق تلك تصير باطلاً . إذن نظام الخلقة مصاحب للحق وفي صحبة الحق ومع الحق ﴿ **وخلق الله السماوات والأرض بالحق** ﴾ وهذا الخلق حق لأجل عدّة نقاط : الأولى : هي ﴿ **ولتجزى كل نفس بما كسبت** ﴾[1] سيرى كل إنسان جزاء عمله ، وينال جزاءه في مقابل طريقه وطرز سلوكه ، ولا يعمل الإنسان من خير إلاّ ويجد جزاءه . ولا تسجل أعمال خير أحد بحساب آخر ، ولن يصل ظلم لأحد في يوم العدل ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ سوف لن يُظلم البشر . إذن يوجد يوم للعدل ، والقيامة هي يوم ظهور العدل التام ، أي أن كل فقرات ذلك اليوم عدل . وقد بيّن هذا المطلب بشكل مفصّل في برهان الحقيقة حيث كان حدّه الأوسط ظهور الحق والحقيقة . وإذا كان الله قد عرّف القيامة بأنّها يوم الحق : ﴿ **ذلك اليوم الحق فمن شاء اتّخذ إلى ربّه**

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٢ .

مآبا ﴾[1] فهو بهذا المعنى الذي تكون فيه جميع أقسام يوم القيامة حق . أي أن الميزان حق ويوزن العمل بالحق . فالعمل الذي كان حقاً يكون ثقيلاً ، والعمل الذي لا حقيقة له يكون خفيفاً . ويكون الإنسان المتلبّس بالحق ثقيلاً والإنسان المتلبس بالباطل خفيفاً ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾[2] قلوب البعض فارغة لأنّ قلوبهم مليئة بالأفكار الباطلة ، وليس في الآخرة مكان للباطل . وستحزم كل القِيم الباطلة حقائبها ، وكان يجب أن يرى هؤلاء الحق ولكنّهم لم يروه . فكما كان هذا مشهوداً في ذلك البرهان فكذلك سيكون مفصّلاً في هذا البرهان . فإذا كانت القيامة يوم ظهور العدل التام ، فكل أقسام ذلك اليوم عدل . والتحلّي بالعدالة أمر صعب ، والإلتزام بها في مسيرة الحياة عسير . وكما أن السير على طريق برقة الشعر وحدّة السيف أمر صعب فكذلك أن يكون الإنسان عادلاً صعب أيضاً ، وحتى يكون عادلاً فلا بدّ أن يريد للآخرين ما يريده لنفسه وأن يكره لهم ما يكره لنفسه وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، فينظر لنفسه وللآخرين بمنظار واحد ، ولا يترك حب النفس في قضاوته أثراً سيّئاً . فالعبور في الصراط هناك عسير . والميزان هناك هو الحق ، ولا يوجد هناك شيء اسمه الباطل . ولا يوجد هناك ظلم ، ولا يظلم في ذلك الموطن أحدٌ أحداً شيئاً لأنّه يوم ظهور العدل الإلهي . وسيظهر الله العادل في ذلك اليوم ظهوراً كاملاً ، والقيامة محل تجلّي عدل الله . ولا يوجد للظلم في ذلك اليوم طريق . ونار القيامة لا تحرق أحداً أكثر من الحد الذي تؤمر به . ولن تكون ضغوط يوم القيامة أكثر من المقدار اللازم . وستكون منطقة القيامة ساهرة ويقظة ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾[3] . وبما أنّ ذلك العالم عالم الحياة ﴿ وإنّ الدار الآخرة لهي

---

(1) سورة النبأ، الآية: ٣٩.

(2) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣.

(3) سورة النازعات، الآية: ١٤.

الحيوان ﴾[1] وليس عالم الدنيا سوى متعة ولذة عابرة ، إذن فإذا كان العالم حياً فسيكون هو عالم الآخرة ، وهذه الحياة هي الحق والعدل ، فلا تقبل الباطل ولا تتحمّل الظلم ﴿ **ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ ولا يفترض في القيامة وقوع ظلم على أحد أبداً . ويثبت برهان العدالة هذا المعاد على ضوء النقاط السابقة وضرورة القيامة . ولكنَّ منطقة نفوذ برهان العدالة محدودة . ولا يمكن إثبات حشر الملائكة وحشر الموجودات المجرّدة تجرّداً كاملاً ، لأنّ الحد الأوسط لهذا البرهان هو العقود في الأوامر والنواهي وفي التكاليف ومقررات الأعمال باسم الدين ، وبعض الأفراد مطيعون وبعضهم عاصون فيجب تصفية حسابهم .

إذن المكان الذي لا تكليف فيه والمكان الذي لا أمر ونهي تشريعي فيه ، والمكان الذي لا طاعة وعصيان اعتباري فيه ، وإنما يوجد فيه خضوع تكويني فلا تمرّد ولا عصيان فيه . والمكان الذي يوجد فيه حضور بلا غيبة ، وشهود بلا غفلة . والخلاصة المكان الذي يوجد فيه العدل فلا ظلم فيه أصلاً . لا يطرح فيه مسألة الحساب والفرق بين الحق والباطل والتمييز بين القبح والجمال وأمثال ذلك . بالنسبة للإنسان وأمثال الإنسان الذين لهم تكاليف ومقررات وضعية ولهم أمر ونهي وثواب وعقاب وترغيب وترهيب ومدح وقدح وبالنتيجة لهم عدل وظلم لا بدّ من وجود يوم يتميّز فيه كل واحد عن الآخر ، ولهذا عرّف الله يوم القيامة بأنه يوم الفصل . وهناك برهان آخر يثبت الحشر والمعاد للموجودات المجرّدة . ولكن الله قد عيّن للإنسان يوماً لظهور العدل يمتاز فيه المحسنون عن المسيئين وسمّى القرآن ذلك اليوم بيوم الفصل ، أي اليوم الذي ينفصل فيه المحسنون عن المسيئين . ينفصل عن عائلته وأقربائه وعشيرته والذين كان يعاشرهم ويأنس معهم فهذه العشيرة

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤ .

والمعاشرين يصيرون في القيامة فصيلة ﴿ **وفصيلته التي تؤيه** ﴾[1] لأنّ الحياة في القيامة حياة فردية لا إجتماعية . فينفصل أفراد العشيرة بعضهم عن البعض الآخر وهذا بحث مستقل . فبعد أن ثبتت ضرورة القيامة وأحقيّة المعاد تطرح كيفية حياة الأفراد في القيامة . فهل الحياة هناك كالحياة الدنيوية يكون التعاون والاجتماع فيها ضرورياً أم أن الحياة هناك فردية وكل شخص ضيف أفكاره وأخلاقه وأعماله الدنيوية ؟ وكل ما يريده ينفذه بالإرادة وكل ما عمله في الدنيا أيضاً تكون إرادته على طبقة وبناءً على هذا فلا حاجة إلى التعاون . وهذا يحتاج إلى بحث مستقل : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى** ﴾[2] . سيكون كل إنسان في القيامة فرداً ، ولا حياة جماعية هناك . وتصير العشيرة في ذلك اليوم فصيلة ، أي أن المعاشرات ستتغير . إلاّ أهل الجنة فهم في أنس ﴿ **في شغل فاكهون** ﴾[3] وهذا غير الحياة الجمعية والإجتماعية ، وغير التعاون والتعاضد ويختلف عن كل من يقوم بعمل ما يقوم شخص آخر بعمل آخر معادل له ، وبما أنّ القيامة يوم الفصل بين القبح والجمال ، ويوم فناء القبائح والاحتفاظ بالمحاسن يقول : ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾[4] يخاطب المذنبين قائلاً : كنتم مع المؤمنين في الدنيا في مكان واحد ولم تكن بواطنكم معروفة ، ولم تكن مساوئكم منفصلة عن محاسن الآخرين ، واليوم يوم الفصل ويوم العدل ، تتميز فيه الصفوف ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ وسيؤثر هذا النداء فيهم بحيث تمتاز صفوفهم عن صفوف المؤمنين . وهذا هو أصل برهان العدل وذلك أيضاً ضرورة تحقق القيامة . لأجل أنّ أحداً سوف لن يمنع من ظهور عدل الله

---

(١) سورة المعارج، الآية: ١٣ .
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٤ .
(٣) سورة يس، الآية: ٥٥ .
(٤) سورة يس، الآية: ٥٩ .

التام . وستكون النتيجة قطعاً كما بُيّن سابقاً في منطقة نفوذ برهان العدل ، والعدل من الأوصاف الإلهية كالرحمة والحكمة وأمثال ذلك والتي بواسطتها بُيّن ضرورة المعاد . ونحن في الحقيقة قد أثبتنا ضرورة القيامة بأوصاف الحق أي جللنا الأسماء الحسنى والصفات البارزة للحق ، وجعلنا كل واحد من هذه الأوصاف حدّاً وسطاً لبرهان المعاد . إذن فقد بيّنا ضرورة المعاد عن طريق معرفة الله . والطريق أيضاً كذلك ، أي إذا عرف الإنسان الله بالأوصاف الإلهية فإنّه سيعتقد يقيناً بالمعاد . وأولئك الذين ينكرون المعاد على فرقتين : فرقة لا تؤمن بالله أصلاً ، وأخرى تؤمن بالله ولكنهم لا يعرفونه بشكل صحيح . ويقول الإنسان المادي الذي لا يعلم الإنسانية سوى أنّها ما بين الولادة والوفاة : البشر هم هؤلاء الذين يأتون إلى الدنيا يوماً ويغادرونها في يوم آخر ولا شيء وراء ذلك . لا يؤمنون بمبدأ للعالم ولا يصدّقون بنهاية للعالم ويقولون : **﴿ ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾**[1] ولا قيامة ، وهذا إنكار للمعاد **﴿ وما يهلكنا إلاّ الدهر ﴾**[2] تمزقنا الطبيعة والدهر بصورة تدريجية وتفنينا من الوجود . وهذا إنكار للمبدأ وينقل القرآن منطق مثل هؤلاء الماديّين بهذا التعبير **﴿ ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾** فيموت بعض ويولد بعض ولا قيامة وراء هذا ، ولا مبدأ وخالق . وهذه هي عقيدة الماركسية . وهكذا يظن الإنسان المادي ويقول : **﴿ وما يهلكنا إلاّ الدهر ﴾** الدهر هو الذي يمزق أوصالنا فنفنى من الوجود . فهم ينكرون المبدأ والمعاد معاً . أما الآخرون كعبدة الأصنام الذين يقبلون بوجود المبدأ ، فهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعرفونه ولم يصلوا لأوصاف الله حتى يعتقدوا بمسألة المعاد ، وبالنتيجة فهم ينكرون المعاد

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

ويقولون : ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾[1] فالقرآن ينقل منطق مفكّري المعاد بهذا التعبير فهم يقولون : إنّ نهاية حياة كل فرد بموته ولا شيء وراء الموت . إذن إذا فكّر الإنسان المفكر بالله بشكل صحيح وآمن به وعرف أوصافه فإنّه يقيناً سيؤمن بالمعاد . وإنّما يكون إنكار المعاد بسبب الجهل بالمبدأ كما أنّ إنكار الوحي والنبوة أيضاً بسبب الجهل بالمبدأ . ويطرح القرآن هذه المسائل الثلاث في ثلاث أقسام ويقول : أولئك الذين ينكرون المعاد ﴿ وما قدَّروا الله حق قدره ﴾[2] وأولئك لم يعرفوا الله كما يجب أولئك الذين أنكروا الوحي والنبوّة ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾[3] أي أنّ هؤلاء إذا كانوا قد عرفوا الله حق معرفته لآمنوا بالوحي والنبوّة . وكذلك الذين ينكرون وحدانية الحق . قد قبلوا أصل المبدأ ولكنهم لم يقبلوا التوحيد ولم يصدّقوا به ، يقول عن هؤلاء أيضاً : ﴿ وما قدّروا الله حق قدره ﴾ ويجب تحليل هذه الأقسام الثلاثة وأنه إذا عرف أحد الله كيف ستكون معرفته هكذا والاعتقاد بوحدانيته هكذا . وإذا عرف أحد الله بشكل صحيح كيف سيعتقد بالوحي والنبوّة . وإذا عرف الله بصورة صحيحة كيف سيؤمن بالقيامة وضرورة المعاد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

الدرس
العشرون

ضرورة المعاد عن طريق الحركة التكاملية للعالم

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

يعتبر القرآن الكريم معرفة القيامة ومسألة المعاد أمراً ضرورياً ولازماً من أجل تحقيق هدف الرسالة التي هي تهذيب النفس البشرية . ويعتبر نسيان القيامة من أهم عوامل ارتكاب الذنوب كما أن ذكر المعاد من أفضل عوامل الوصول للكمال والسعادة . وبما أنّ لذكر القيامة دور فعّال في تهذيب النفس ولنسيان المعاد دور مؤثّر في فساد الروح ، لهذا فإنّ القرآن يعرض براهين كثيرة لإثبات القيامة وضرورة المعاد . وبما أنّ للقيامة درجات وللمعاد مراتب لهذا فإنّ الأدلة التي أقامها القرآن لإثبات المعاد ليست متساوية . وكل برهان يعطي نتيجته بمقدار حدّه الأوسط . والحد الأوسط لكل برهان يتناسب مع درجة من درجات المعاد ، وكذلك ستكون نتيجة كل استدلال مطابقة لمرتبة من مراتب القيامة ، ولهذا فإن أدلة المعاد ليست متساوية كما أن مراتب القيامة ليست متساوية . إذ أن درجات الإنسان ليست متساوية فالقرآن يقول بوجود مراتب للإنسانية ، وليس للناس فقط درجات

زائدة على أرواحهم ﴿ لهم درجات ﴾[1] بل هم بأنفسهم عين الدرجات والتي ستكون متن أرواحهم ﴿ هم درجات ﴾[2] أي أنّه ليس فقط للناس في القيامة درجات ، بل أنّ كل فرد من أفراد البشر يكون بدوره درجة من الدرجات الوجودية للعالم . وعندما يتحد الإنسان مع ذلك الكمال ومع تلك السعادة يصير عين تلك الدرجة . قبل أن يتحد ذلك الكمال مع الإنسان يكون له درجة ﴿ لهم درجات ﴾ وعندما يتّحد هذا الكمال مع روح الإنسان يصير نفس الإنسان درجة ﴿ هم درجات ﴾ ولهذا فإنّ في القرآن ﴿ لهم درجات ﴾ وفيه أيضاً ﴿ وهم درجات ﴾ . وبعد بيان هذين المطلبين في تهذيب النفس وتكميل الروح وبيان أنّ البراهين التي أقامها القرآن الكريم على ضرورة المعاد ليست متساوية . وأصل عدم التساوي هذا أيضاً هو أن الإنسانية درجات متعددة تقوم ببيان أدلة المعاد في القرآن الكريم ، لأنّ مقداراً من هذه الأدلة قد طرح في البحوث السابقة ونشير إليها إشارة عابرة وتتوفر بيان الأدلة التي لم تُذكر أو لم نكمل طرحها . أولاً : إذا عرف أحد الله بشكل صحيح فلا يشك حينئذ في تحقّق المعاد . أصل كل المعارف الدينية هو معرفة الله . فإذا عرف مبدأ العالم وإله العالم بشكل جيد فلا يشك حينئذ في التوحيد ولا يتردد في القيامة والمعاد وهو الرجوع إليه تعالى . ولا يشك في ضرورة الوحي ورسالة الأنبياء . أن الأصول الثلاثة : التوحيد والمعاد والنبوّة تحلّ بمعرفة الله . وإذا كان هناك شك في أحد هذه الأصول أو وجد فيه إبهام وغموض فإنما ذلك بسبب عدم المعرفة الجيّدة لمبدأ عالم الوجود . ولا يمكن لأحد أن يعرف الله معرفة كاملة ويكون عنده شك في التوحيد أو المعاد أو الوحي والنبوّة والرسالة . ولذلك فإنّ القرآن الكريم

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.

يقول حول أولئك الذين يترددون في أمر الرسالة والوحي أو يشكّون في القيامة وضرورة المعاد : أنّهم لم يعرفوا الله بشكل صحيح ، لم يدركوا ﴿ رب العالمين ﴾ بشكل صحيح . فلو عرف ﴿ رب العالمين ﴾ بصورة صحيحة فلا يشك ويتردّد أبداً في هذه الأصول والمعارف . وقبل الشروع في بيان الأدلة التفصيلية للمعاد وبيان موضوع المعاد من وجهة نظر القرآن الكريم نتعرف على هذا الأصل الجامع ، فمعرفة الله أصل جميع المعارف . وإذا كان حصل شك في إحدى هذه المعارف المذكورة فهو راجع إلى عدم معرفة الله بشكل كامل وصحيح . ويطرح القرآن الكريم الشرك في سورة الحج بهذا المنظار فيقول بأنّ الشرك لا يتلاءم مع معرفة الله . وأولئك الذين تلوثوا بالشرك فلأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته . ولو أنهم كانوا قد عرفوا الله بشكل جيّد لما ابتلوا بالشرك أبداً ولما حُرِموا من نعمة التوحيد ، ويقول في نهاية سورة الحج لإبطال الشرك : ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾[1] وأولئك الذين يجعلون مع الله شريكاً وينسبون بعض أعمال العالم لغير الله ويخضعون لغير الله ، ويسلّمون للأصنام ويعظّمونها ويعبدون غير الله ويروون غير الله مؤثّراً هؤلاء لم يعرفوا الله بشكل صحيح ، لأنهم إذا كانوا قد عرفوا الله بأنّه حقيقة محضة فنفس الوجود المحض مبدأ جميع الكمالات وآثار الخير والكمال . وإذا كان هذا الوجود المحض مظهراً للعالم وربّاً له وخالقاً له أيضاً و ﴿ رب العالمين ﴾ أيضاً فلا مجال حينئذٍ لتدبير غير الله وتأثيره لتكون لغير الله صفة الربوبية ، وفي النتيجة يستتبع التأثير الربوبي الشرك العبادي ويكون عابداً لغير الله .

إذن كل من يطلب شيئاً من غير الله ويعتبر غير الله سبباً مؤثّراً ومستقلاً في أمر من الأمور فهو لم يعرف الله بشكل صحيح ﴿ وما قدّروا الله حق

---

(١) سورة الحج، الآية : ٧٤ .

قدره ﴾ لأنّ ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾[1] وبناءً على هذا فلا مجال للشرك . فإذا عرف الله أحداً معرفة صحيحة فإنّ ذلك هو الاعتقاد بوحدانية الله باسم التوحيد . ولهذا يقول مولى الموحّدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب روحي وأرواح العالمين له الفداء في أول خطبة في نهج البلاغة : « كمال معرفته تصديقه ، وكمال تصديقه توحيده » . فإذا كانت معرفة الله كاملة فإنّها ستصل إلى مرحلة التوحيد . وذلك الذي يعتبر غير الله مؤثراً فهو لم يعرف الله سواء كان اسمه وثنياً أو ثنوياً أو مرائياً . فالرياء أيضاً الذي هو الشرك الخفي يكون بسبب عدم معرفة الله . فمن عرف الله حقاً فلا يُرائي ولا يتظاهر ، لا ينقل خطوة وراء الرياء ولا يسعى خلف السمعة ، فلا يؤدي عملاً ليراه الآخرون ولا يرتكب عملاً ليسمعه الآخرون . فهو موحّد ويؤدي عمله لله فقط لأنّ الله بصير ، ويؤدي عمله ليسمعه الله فقط لأنّ الله سميع . ولا يمكن أن يكون المرائي قد عرف الله جيداً ومع ذلك فهو يرائي ، فإنّ الرياء لا يتلاءم مع معرفة الله ، كما أنّ الشرك الظاهري لا يتلاءم مع معرفة الله .

ويقول أيضاً حول ضرورة الوحي ورسالة الأنبياء : أولئك الذين ينكرون النبوّة والرسالة عموماً أو ينكرون نبوّة ورسالة خاصة لم يعرفوا الله بشكل جيّد . فلو كانوا قد عرفوا الله لما قالوا ما أنزل وحياً على بشر : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾[2] وأولئك الذين لا يؤمنون بالنبوّة ، وأولئك القائلين بأنّ القوانين الوضعية هي التي تؤمّن حياة البشر ، وأولئك القائلين بأن الحياة البشرية يؤمّنها علماء البشر ، لا

(١) سورة الحج، الآية : ٧٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية : ٩١.

يعرفون الله . فإذا كان إله العالم قد خلق البشر فيجب أن يكون ربّاً لهم أيضاً . وتربية البشر لا يؤمّنها الفكر البشري ، بل هي مصاحبة لسرّ خلقته . فالعالم بأسرار خلقه عالم بأسرار تربيته والخالق لهم هو الذي يجب أن يربيهم ويكون الله مربّياً للبشر عندما يرسل أنبياء ويبلغ الناس قوانين السماء عن طريق الوحي لتصل البشرية في ظل الوحي إلى سعادتها . إذن منكر النبوّة ومنكر الوحي لم يعرف الله حق معرفته ﴿ **وما قدّروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء** ﴾ ومعرفة الله لها تأثير بنّاء في الاعتقاد بالقيامة وضرورة المعاد .

وتعبير القرآن في هذا القسم كأمثالها في أقسام التوحيد والنبوّة هو : إذا كان هؤلاء يعرفون الله بشكل صحيح فسيكونون موحّدين ومعتقدين بالقيامة أيضاً .

ثانياً : إنّ ذلك الوجود المحض يوصل كل موجود إلى كماله حتماً . وكمال الإنسان وتربية الإنسان في وصوله إلى مقامات ما بعد الموت ، ولهذا يقول : ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾[1] اعبد الله فقط وكن له شاكراً ، لأنّ العبادة من أثر التدبير والربوبية . و ﴿ **رب العالمين** ﴾ هو الله والشكر في مقابل نعمته ، والمنعم الحقيقي هو الله ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾[2] ويجب أن يعلم الإنسان بأنّ جميع هذه العلل الوسطية هي مجرى فيض الحق ، فلا ينكر نظام العلّية ولا يعتبر هذه العلل الوسطية عللاً مستقلّة . وإذا كان قد قيل : « من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق »[3] أي من لم يعبر من خلال هذه العلل الوسطية لا يصل إلى المبدأ . فإذا كان

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٣) الجامع الصغير: ج ٢، ص ١٨١.

شاكراً لهذه المبادىء الوسطية فهو في الحقيقة شاكر للمبدأ الواهب لهذه النعمة . وإذا احترم الإنسان المنعم الظاهري فهو في الحقيقة شاكر للمنعم الحقيقي ، وهذا المنعم الظاهري هو مجرى فيض المنعم الحقيقي ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ وفي كلام لثامن الحجج عليه السلام يقول فيه : « إلهي ما أصابني من نعمة فمن إحسانك وما أصابني من سيّئة فمن نفسي لا صنع لي ولا لغيري في إحسانك ولا عذر لي في إساءتك » .

أي يا ربي جميع النِّعم التي وصلتني هي من إحسانك وتفضّلك من غير استحقاق منّي لهذه النعم ولا تأثير ولا سبب مني أو من غيري في حصولها ، وليس لأحد أي دور في حصول هذه النعم لي لأنّهم ليسوا إلاّ مجرى لفيضك ، وكل ما يصلني في أذى فهو بسبب إساءاتي وأخطائي ، ولا عذر لي في هذه الإساءة ، فكل النعم منك وجميع ما يصيبني من الأذى فهو بسبب إساءاتي ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين * وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون** ﴾[1] .

أولئك المشركون والذين ينكرون المعاد ينسبون الربوبية إلى غير الله ويظنون أيضاً بأنّ الإنسان يفنى ويزول بالموت ، فلا يعتقدون بمستقبل للبشر ولا يعتبرون التدبير العمومي والدائم للعالم منحصراً بالله . فلا يعتبرون الله ربّاً مطلقاً ورب الجميع ولا يعتقدون بقيامة ومعاد للبشر ، هؤلاء لم يعرفوا الله حقّاً ، لأنّه وكما تقدّمت الإشارة إليه أولاً : أنّ الله ذلك الوجود المحض الذي لا يقبل شريكاً . وثانياً : أنّه يرشد جميع الموجودات ويوصلها إلى كمالها ، وللإنسان معاد يصل الإنسان إلى كماله عند بلوغه . وبناءً على هذا إذا عرف أحد الله بالمقدار المتيسّر بصورة صحيحة فسوف لا

---

(١) سورة الزمر، الآيتين: ٦٦ ـ ٦٧ .

يشك في أي أصل من أصول الدين الثلاثة ، ولا يمكن معرفة الله بكنهه ، إلاّ أنّه وبتعبير صاحب بدائع الحكم رضوان الله عليه يحتمل قراءة كلمة «حق» في الجملة المعروفة التالية بالرفع بدل النصب : « ما عرفناك حق معرفتك »[1] أي إلهي لقد عرفناك حق معرفتك بما هو متيسّر للبشر ، وغير هذا ليس متيسّراً لهم ، لأنّ معرفة الله مع الاعتراف بالعجز متصاحبان ، وهذا الاعتراف بالعجز هو معرفة الله ، فلا نشك في توحيد الله أبداً فهو الذي ﴿ **لا شريك له** ﴾ ، ولا نشك في إرسال الأنبياء ولا في ضرورة المعاد والقيامة . وأولئك الذين يشكّون في هذه الأمور لأنّهم لم يعرفوا مبدأ العالم بشكل صحيح . ولهذا فإنّ أحد الأدلة التي يذكرها القرآن الكريم على المعاد هو توحيد الله . بما أنّ الله واحد فإنّ القيامة موجودة يقيناً : ﴿ **الله لا إله إلاّ هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾[2] .

ويعتمد القرآن الكريم في بعض آياته على التوحيد لإثبات المعاد ، أي أنّ الله واحد وقد عيّن يوماً للبشر باسم يوم الحساب . ومن غير الممكن أن يكون الله واحداً ولم يجعل يوماً يصفّي فيه حسابات أعمال البشر . ومن المستحيل أن يكون الله واحداً ويترك البشر طلقاء لأنّ توحيدَ الله دليل على المعاد كما أنّ أصل وجود الله دليل على التوحيد .

إذن أصل وجود الله دليل على المعاد ودليل على التوحيد ، وقد جاء هذا المعنى في سورة آل عمران : ﴿ **شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط** ﴾[3] أي أن الألوهية شاهدة على الوحدانية ، والله لا ينسجم مع الشرك . لا يتلاءم وجود الله مع وجود شريك له .

---

(١) ينبوع الأسرار في نصائح الأبرار : ص ٣٧.
(٢) سورة النساء، الآية : ٨٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية : ١٨.

والحقيقة اللامحدودة لله لا تدع مجالاً لغيره أن يكون شريكاً له . والثنائية لا تنسجم مع الحقيقة اللامحدودة ، وبالتعبير الرفيع للحكيم الإلهي الإسلامي الفارابي : « صرف الشيء لا يتثنّىٰ ولا يتكرّر » وقد أُخذ برهان صرف الشيء الذي هو الحكيم الإلهي الكبير والحكماء الآخرون من أهل بيت العصمة والطهارة . وربما نقلنا هذا الكلام في البحوث التوحيدية عن هشام .

ينقل المرحوم ابن بابويه القمي قدّس سرّه في كتابه القيّم التوحيد أنّ هشام بن سالم الذي كان من تلاميذ الإمام الصادق سلام الله عليه الخاصّين قد تشرّف بالحضور بين يديه ، فسأله الإمام عن الأوصاف والأسماء الحسنى لله قائلاً : هل تصف الله ؟ فقال هشام : نعم ، فقال الإمام : قل . فأجاب هشام . فنقض الإمام جوابه ، ففهم هشام أنّه يجب أن يسمع الجواب من معلّمه الذي هو حجّة الله ، ولهذا سأل الإمام الصادق : كيف تصف الله ؟ فأجاب الإمام : « هو نور لا ظلمة فيه ، وحياة لا موت فيه ، وعلم لا جهل فيه »[1] أي أنّ الله نور صرف ومحض حياة ، محض العلم ومحض القدرة . وصرف العلم وصرف النور وصرف الحياة لا يقبل الشريك قطعاً ، والعلم المحض لا يقبل الشريك وأمثال ذلك . وهذا البحث الرفيع الذي ألقاه الإمام الصادق سلام الله عليه إلى تلميذه الخاص هذا جعل هشام يقول : « خرجت من عنده وأنا أعلم الناس بالتوحيد » . ومن الممكن أن يكون شخص أعلم في قسم الحكمة العملية ولكنّه لا يكون الأعلم في قسم الحكمة النظرية ، وبالعكس . يقول هشام : أنا من بين تلاميذ الإمام السادس أعلم من الآخرين في الحكمة النظرية والاعتقاد بوحدانية الله . ومنشأ هذه الرؤية التوحيدية هو برهان الصرافة هذا ، فصرف النور لا يتكرر ، وصرف الحياة لا تقبل التكثّر ، وصرف العلم لا تقبل الشركة ، وصرف الوجود لا يقبل

---

(١) كتاب التوحيد : ص ١٤٦ .

التعدد . وما قاله الله تعالى في سورة آل عمران : ألوهية الله شاهد على وحدانيته ليس من باب اتّحاد الشاهد والمدّعي بحيث أنّ الله يدّعي الوحدانية وهو يشهد على ذلك . بل أنّ هذا النور الصرف شاهد على عدم التعدّد لأنّه محض . والألوهية شاهد على الوحدانية كما أن لازم الشرك هو عدم الدليل والبرهان . ولهذا يقول القرآن : ﴿ **ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنّما حسابه عند ربّه** ﴾[1] كل من يقول بوجود مبدأ آخر غير الله لازمه عدم الدليل وحسابه على الله . إذن المعرفة الكاملة لله تصاحب التوحيد ، ووحدانية الله تصاحب الاعتقاد بالقيامة ، ولهذا يقول : ﴿ **شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو** ﴾[2] أي أنّ ألوهية الله شاهد على وحدانيته . ويقول في آية أخرى : ﴿ **الله لا إله إلاّ هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾[3] . وحدانية الله تستلزم المعاد والقيامة . وإذا كان القرآن الكريم قد طرح براهين أخرى على ضرورة المعاد فهي في تلو هذا البرهان القائل بأنّ معرفة المبدأ دليل قطعي على وجود المعاد كما أنّه دليل قطعي على وجود الوحي والرسالة والنبوّة . وأما الطرق الأخرى التي طرحها القرآن لإثبات ضرورة القيامة والمعاد فهي برهان الحركة وبرهان الحكمة وبرهان الحقيقة وبرهان العدالة وبرهان تجرّد الروح وبرهان حب البقاء الأبدي والتي قد استفيدت جميعاً من الآيات المختلفة . وقد كان خلاصة برهان الحركة أنّ العالَم بجميع أجزائه المتفرّقة واحد مترابط ومنسجم . وكما تقدم في أبحاث التوحيد بأن عالم الحركة بسبب الانسجام والترابط ليس أكثر من واحد لأنّه في حركته وسيلانه وتحولاته محكوم بالقوانين العامة للحركة . ومن أهم أصول الحركة الخروج من القوّة إلى الفعلية ومن النقص إلى الكمال ومن الضعف إلى

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٧ .
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨ .
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٧ .

الشدّة . الحركة أمر وجودي . وإذا شوهد أحياناً أن موجوداً ما فقد كماله وتحرك إلى جهة النقص كالتفاحة التي تتعفن ، أو يتحرك من كمال إلى جهة كمال معادل له ويترك كماله السابق ، فهذه ليست حركة ذاتية وحقيقية . لأنّ الفقدان ليس كمالاً ، والتحرك نحو النقص ليس كمالاً وليس له وجود ، والحركة أمر وجودي . وهذا الذي نراه من تعفّن التفاحة لا أنّه شيء كامل يتحرك نحو النقص ويقوم بحركة بالذات . بل أن تعفن التفاحة ويبوسة الشجرة حركة بالتبع وحركة بالعرض .

ذلك العامل الخارجي كالآفة مثلاً يتحرك إلى رشده أصالة ، وهذه التفاحة تتعفن بالعرض . التعفن يعني فقدان الكمال وترك الفضيلة أمر عدمي ، مع أن الحركة أمر وجودي . وعلى هذا فهذه ليست حركات حقيقية . ولا يمكن لكامل أبداً أن يتحرك بالذات إلى جهة النقص وتكون حركته حقيقية . بل أن ذلك العامل المضاد والمزاحم يسير إلى رشده وكماله وهذا بالعرض يتعفّن . وهذا نظير الشر بالعرض حيث جميع الأمور تكون في حالة وصول إلى خيرها وهذا الموجود في حال فقدان لكماله . وسنبين إن شاء الله هذه المسائل في بحث الحركة بشكل وافٍ . الحركة خروج من القوة إلى الفعلية . وهذان الأمران ضروريان للحركة ، الأول القوّة والآخر الفعلية ، وتترك الحركة نقص القوة لتصل إلى كمال الفعلية . وعلى حد التعبير الرفيع للحكيم الإلهي صدر المتألهين رضوان الله عليه إنّما يكون للحركة طريق حيث أولاً : يكون لذلك المسير شدة وضعف ، وثانياً : يكون الاشتداد ميسّراً لها ، أي تشكيك الوجود إلى جانب الحركة في مسير التشكيك أيضاً . وإذا كان المسير متساوياً ، وإذا كان جميع وجود العالم وعالم الوجود متساوياً ، وإذا لم يكن للوجودات شدة وضعف ، فلا مجال للحركة . وأما إذا قبلنا التشكيك وكان للوجود درجات ولكن لم نقبل

الاشتداد فإذا كان السير من الشديد إلى الأشد والسير من الضعيف إلى الشديد غير متيسراً فلا حركة أيضاً . الحركة تأخذ صورتها من القوة إلى الفعلية . وهذا المسير يجب أن يكون شديداً وضعيفاً .

وهذان هما الحدّان للحركة أحدهما القوّة والآخر الفعل . وما قيل من أن الحركة لها مبدأ ومنتهى لا يعني أنّ لها بداية ونهاية ، لأنّ الحركة لا أول لها ولا آخر ولأنّ الحركة التي هي واحد متصل لا جزء أوّل لها ولا جزء آخر ، وذلك الذي ظنّناه جزءاً أول فهو قابل للتجزيء وما حسبناه جزءاً آخر قابل للتجزيء أيضاً لأن الجزء الذي لا يتجزّأ محال . إذن الحركة لا جزء أول لها ولا جزء آخر . وأمّا ما قيل بأنّ للحركة مبدأ ومنتهى فهو ليس بمعنى أن لها بداية ونهاية ، بل بمعنى القوّة والفعل . وعلى هذا إذا كانت الحركة هي الوصول من حد القوة إلى حد الفعلية ، والعالم مترابط في حركته يشرع من القوة ويجب أن يصل إلى الفعلية . وسوف لن يكون بلا فعلية أيضاً . لأنّ الحركة تريد جهة ولا بدّ لها من فعلية وهدف لكي تصل هذه القافلة المتحركة بطي هذا الطريق إلى ذلك الهدف . والوصول إلى الهدف هو هذا ، والثبوت هو هنا لا السكون إذ لا سكون في العالم فالجميع في سعي ومثابرة . وعندما يصلون إلى مقصدهم يصيرون هادئين وثابتين ، لا ساكنين وهذا هو دار القرار حيث يثبت القرآن دار القرار لعالم الوجود . أي أنّه يوجد عالم حيث الهدوء ، وذلك منزل لا مسير . الدار التي يحكمها الاستقرار والهدوء . ويقول في سورة غافر : ﴿ **وقال الذي آمن يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد * يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإنّ الآخرة هي دار القرار** ﴾[1] .

يقول هذا الموحّد الإلهي : يا قومي اعلموا أنّ الدنيا ليست أكثر من

---

(١) سورة غافر، الآيتين: ٣٨ و ٣٩.

لذّة عابرة والدنيا ليست داراً ﴿ وإنّ الآخرة هي دار القرار ﴾ الدنيا طريق والطريق يحتاج إلى نهاية ، الدنيا جارية ومتغيرة تطلب القرار والهدوء والثبات ، والدنيا التي هي بنفسها طريق تتحرك إلى جهة الدار التي هي الهدف لتستقر وتفتّش عن جهة موطن لتثبت . وهذا النظر إنما هو إلى جهة الثبات ، وهذا السعي إنما هو إلى جهة القرار . لتكون هي الآخرة . الحياة هي حياة التمتع والانتفاع ﴿ إنّما هذه الحياة الدنيا متاع وإنّ الآخرة هي دار القرار ﴾ وليس في الطبيعة استقرار . وسمّى القرآن في سورة الأعراف القيامة بمرساة سفينة عالم الطبيعة المتلاطم ، يقول ﴿ يسألونك عن الساعة إيّان مرساها ﴾[1] يسألونك عن الساعة والقيامة متى ظهورها ؟ متى تلقي سفينة عالم الطبيعة المتلاطم مرساتها ؟ والمرسىٰ هو محل رسو السفينة . ويقول عن سفينة نوح : ﴿ بسم الله مرساها ومجراها ﴾[2] . وهذه السفينة تتحرّك باسم الله ، وتلقي مرساتها باسم الله . جريانها وسكونها باسم الله . هذه السفينة تتحرك بتلك القدرة الغيبية إذ أنّ أولياء الله يوجدون كل ما هو خير ومصلحة للعالم باسم الله . وهنا يسألون رسول الله : متى تلقي سفينة عالم الطبيعة المتلاطم مرساتها لينزل منها ركّابها ؟ متى تصل هذه القافلة إلى مقصدها ؟ متى تصل هذه القافلة إلى دارها ؟ متى يحصل الفراغ من هذا الطريق ؟ ﴿ إيّان مرساها ﴾ تعبير دقيق وعميق جداً وهو متى تستقر هذه الطبيعة ؟ ونقرأ في كلمات علي بن أبي طالب التي هي القرآن المتحرك : الدنيا دار مجاز وممر والآخرة دار القرار . ويقال للممر مجاز لأنّه مكان العبور والمضيّ ، والآخرة هي دار الثبات ودار الحق . إذن النتيجة التي نحصل عليها من برهان الحركة هي أنّ المتحرك يجب أن يصل إلى هدفه .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧ .

(٢) سورة هود، الآية: ٤١ .

وبما أنّ جميع أجزاء عالم الطبيعة في حالة حركة ولا يوجد أي مانع من وصول هذا الواحد المترابط والمنسجم إلى هدفه . ولهذا فإنّ القيامة أمر ضروري . وهذا هو نفس التعبير الرفيع للقرآن الكريم حين يقول : يوم القيامة ﴿ لا ريب فيه ﴾ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته





ضرورة المعاد من جهة الحكمة النظرية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

كان الموضوع الذي طرح في الجلسة السابقة هو ضرورة المعاد من وجهة نظر القرآن الكريم . وقد مضى بحث ضرورة المعاد من جهة الحكمة النظرية وأقيم البرهان على ذلك . وتفتح العقل النظري من جهة الحكمة العملية له نتائج كثيرة أيضاً ، إذ هو ينمي العقل العملي أيضاً لأنّ القرآن الكريم يعتبر ذكر القيامة من أهم عوامل تهذيب النفس وتزكية الروح ، كما أنّه يعتبر نسيان القيامة من أهم عوامل فساد الروح وإجرام المجرمين .

وبما أنّ القيامة درجات وللمعاد مراتب (لأنّ للإنسانية درجات ومراتب كما أنّ للمراحل الابتدائية أي قوس النزول كان لها درجات ومراتب أيضاً) فالأدلة التي أقامها القرآن الكريم على ضرورة المعاد ليست على حدٍ سواء . فكل دليل يعطي نتيجته على مقدار حدّه الأوسط ، وسيكون الحد الأوسط لكل دليل متناسب مع درجة من درجات المعاد . والدليل الذي

طُرح في الجلسة السابقة هو برهان الحركة القائل بأنّ لعالم الحركة وعالم الطبيعة الذي هو واحد مترابط ومنسجم وجارٍ ومتحرك هدف حيث يصل بالسعي الحثيث من القوة إلى الفعل ، ويصير هادئاً مع وصوله إلى ذلك الهدف ويجد الثبات لا السكون . ولا يمكن أن توجد حركة بلا هدف ، ولا يمكن أن لا يصل هذا العالم المترابط والمنسجم إلى هدفه ، لأنّه وإن أمكن عدم وصول الموجود المتحرك في عالم التزاحم إلى مقصده ويكون ضائعاً في حدود السعي والجهد . ولكن هذا التزاحم فرض غير صحيح بالنسبة إلى كل العالم . ولا يوجد من الخارج أي مانع يقف في وجه رُشد العالم ، لأنّ ربّ العالمين يهديه إلى جهة هدفه ، ولا شيء يمنع تدبير الله سبحانه استناداً إلى هذه النقطة وهي أن المعاد لعالم الطبيعة والحركة ـ والتي يكون الإنسان فيها جزءاً من هذه الموجودات ـ ضروري . أي لا بدّ من وجود هدف ومن الوصول إليه . والمعاد في نظر القرآن الكريم ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أي أنّه لا شك في ضرورته فبالتعبير الفلسفي « ضروري الوجود » وبالتعبير السماوي الرفيع والعميق ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ . غاية الأمر أنّ برهان الحركة يثبت المعاد بمقدار حده الأوسط . ولا يكفي برهان الحركة لإثبات المعاد للموجودات الخارجة عن منطقة الحركة والأعلى من منطقة الحركة فإنّ لها حشر ولكن لا يمكن إثبات حشرها ببرهان الحركة ، كما أنّه لا يمكن أن نثبت المعاد ببرهان الحركة للناس الممتازين مثل أولياء الله والأرواح الطاهرة حيث يصلون بالحشر إلى مرحلة لقاء الله ، والمرحلة العالية لمعاد هؤلاء هو لقاء الله . لأنّ برهان الحركة يقول : أنّ المتحرك يبدأ من القوة إلى الفعلية ليصل إلى تجرّده وثباته ، وإذا وصل إلى مرحلة ثباته فلا حركة حينئذٍ . ولمرحلة التجرّد والثبات درجات ، فإذا وصل المتحرّك إلى مرحلة الثبات فلا حركة له بعدها ليكون في أثر الهدف . ولا يمكن إثبات المرحلة العالية للثبات

والتجرّد ـ التي هي الحشر الخاص للنفوس المطمئنة وسمّيت باسم لقاء الله وجنّة اللقاء ـ ببرهان الحركة .

ورغم أنّ برهان الحركة قد أقيم لإثبات المبدأ الفاعلي لكن منطقة برهان الحركة في إثبات المبدأ محدودة . أي إذا أردنا أن نثبت مبدأ لعالم الخلقة عن طريق برهان الحركة فيمكننا أن نثبته للموجودات المتحركة لأنّ لها حركة ، فالمحرّك لازم لها ، ولكن إثبات المبدأ لموجود فوق الحركة ومنزّه عن السعي والجهد غير ميسّر عن طريق مبنى برهان الحركة . والنتيجة أنّ برهان الحركة يجري في منطقة الطبيعة والمادة ، ويثبت مبدأ ثابتاً ومجرّداً لعالم المادة إذ أنه يثبت لعالم المادة والطبيعة هدفاً ثابتاً ومجرّداً من الحركة . ولا يمكن له أن يرشدنا في قوس الصعود إلى مقام لقاء الله ، ولا هو يستطيع إثبات واجب أزلي من خلاله إثبات المبدأ الفاعلي . فبرهان الحركة وإن كان مفيداً في إثبات المعاد وفي إثبات المبدأ أيضاً ، ولكنه نافع في حدود محرك مجرّد ثابت وهدف مجرّد ثابت ، فلا في إثبات مبدأ فاعلي يستطيع إثبات الواجب الأزلي . ولا في بحث المعاد يستطيع إثبات جنة اللقاء . والخصوصية التي يمتلكها برهان الحركة نسبة إلى برهان الحدوث هي أنّ القرآن الكريم يبيّن برهان الحدوث بالنسبة لوجود المبدأ ، أي أنّه يثبت المبدأ القديم الثابت عن طريق حدوث العالم ، لا الواجب الأزلي لأنّ الحادث محتاج للقديم ولا يثبت أكثر من هذا المقدار . ولكن برهان الحدوث غير كاف لإثبات المعاد . وأمّا برهان الحركة فهو مفيد لإثبات المعاد ونافع أيضاً لإثبات المبدأ ، غاية الأمر لا يكون هذا الإثبات في الحد الأعلى وإثباتاً لذلك الكامل حرف الوجود المحض والضرورة الأزلية . هذه خلاصة برهان الحركة التي طرحت في الجلسة السابقة .

ومن البراهين التي يعتمد عليها القرآن الكريم ـ وقد تقدّمت بعض

مطالب هذا البرهان في الجلسات الماضية ـ هو برهان الحكمة . يقول برهان الحكمة : بما أنّ الله حكيم فلا يصدر منه عمل بلا هدف . وإن لم يكن لله هدف لأنّه غير المحتاج المحض ولكن بما أنّه حكيم فلا يصدر من الحكيم عمل بلا هدف . ويفرّق القرآن بين هاتين المسألتين بشكل عميق : الأولى : أنّ الله ليس له هدف ومقصد لأنّه غني محض وغير محتاج محض ، لا يزاول فعلاً من أجل شيء معيّن بحيث ينال ذلك الهدف بواسطة فعله ، وبشكل إذا لم يزاول ذلك العمل لا يصل إلى هدفه ، وإذا لم يحصل على ذلك الهدف يكون ناقصاً ، لأنّ هذا يتنافىْ مع الغنى المحض . فالله الغني عن جميع العوالم لا يرتكب فعلاً من أجل الوصول إلى هدف . فليس للفاعل هدف . ولكن بما أنّه حكيم فلا يصدر من الحكيم فعل بلا هدف . أي أنّ للفعل هدف ولكن بما أنّ الفاعل بنفسه هدف فسوف لن يفرض له هدف غير ذاته وليس له هدف كذلك فهو لأنّه هدف فلا هدف آخر له وهو نظير الفاعل فلأنه فاعل فلا فاعل آخر له .

إذن يوجد مطلبان : الأول : أنّ الله لا هدف له ، والآخر أنّ للعالم هدف ولكن ليس لله هدف لأنّه ﴿ **لغني عن العالمين** ﴾[1] غير محتاج إلى جميع العوالم . ولا يرتكب فعلاً من أجل الوصول إلى شيء معيّن ، فلم يخلق العالم لينتفع منه ، ولم يخلق العالم ليكون جواداً لأنّه كما لا يمكن أن يكون جلب النفع هدفاً لأنّه نقص ، فكذلك لا يمكن أن يكون الجود هدفاً للفاعل لأنّه نقص . فإذا كان هدف الفاعل هو الجود والعطاء ، فهو يعمل عملاً من أجل أن يكون جواداً ، وإذا لم ينجز ذلك العمل فلن يكون جواداً ولا يصل إلى كمال الجود ، فإذا لم يؤدِ ذلك العمل يصير ناقصاً ، ومثل هذا الفاعل سوف لن يكون الغني المحض . إذن لم يخلق الله العالم لينتفع منه ،

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٦ .

ولم يخلق العالم أيضاً ليكون جواداً ، ففعل الله لا يقبل « اللام » و « حتى » لأنّ ﴿ إنّ الله لغني عن العالمين ﴾ . ولكن بما أنّ الله حكيم فيصنع كل شيء في محلّه . وجعل كل موجود في مكانه الخاص بنظام معيّن من مبدأ خاص إلى جهة هدف مخصوص يثبت أنّ للفعل هدف ، أي أنّ للعالم هدف . بالرغم من أنّ خالق العالم لا مقصد له . وهاتان المسألتان الأولى حول غنى واجب الوجود والثانية حول حكمته لكل منهما نتيجة خاصّة ، ولهذا فإنّ القرآن قائل بوجود الفرق بين المسألتين وكلتاهما مستقلة عن الأخرى .

فيقول في موضع : ما خلقت الإنس إلاّ ليعبدون ، ويقول في موضع آخر : إن يكفر جميع من في الأرض فإنّ الله غني عن العالمين ولا يصل إليه أي أذى فقوله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدونِ ﴾[1] وإن كان يبيّن هدف خلق الجن والإنس فهو من أجل بيان هدف الفعل ، أي أنّ هدف خلق الجن والإنس هو العبادة حيث يجب أن يصلوا إلى مقام العبادة والمعرفة . وهذا هو هدف الجن والإنس لا هدف الله . فإذا لم يكن الإنسان عابداً لا يصل إلى هدفه . وإذا لم يصل إلى مقام المعرفة لم ينل هدفه ، لا أنّ الله لم يصل إلى هدفه ، ولهذا يعلن بصورة صريحة على لسان موسى الكليم سلام الله عليه : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغني حميد ﴾[2] إذا كفرتم أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنه لن يصل أي أذى إلى أحد أبداً لأنّ ﴿ الله لغني حميد ﴾ الله محمود ذاتاً والله غير محتاج ذاتاً ، فهو لم يخلقكم ليكون معبوداً بل خلقكم لتعبدوه . وهو لم يخلق ليصير معبوداً ، بل خلقكم لتصيروا عابدين . فالمعرفة والعبادة هدف الفعل لا هدف الفاعل .

---

(١) سورة الذاريات، الآية : ٥٦ .

(٢) سورة إبراهيم، الآية : ٨ .

يقول : إذا كفر الجميع فلأنّ الله ذاتاً غير محتاج فهو لا متضرر من ذلك ﴿ **فإن الله لغني حميد** ﴾ وقد صرّح القرآن الكريم في كثير من آياته بأنّ الله غير محتاج ، ويقول في آيات أخرى : ﴿ **لغني عن العالمين** ﴾[1] هو غني عن كل عالم الوجود والخلقة ، وهو يعتمد على عين ذاته التي هي عين الوجود المحض ، وكل موجود معتمد عليه أيضاً . إذن بما أنّ الله حكيم فلا يصدر من الحكيم فعل بلا فائدة . وبناءً على هذا فإنّ لهذا العالم هدف ، وبما أنّ الله غني محض فهو لا يعمل من أجل هدف لأنّه هدف بنفسه . وبالتعبير الرفيع لابن سينا الحكيم الإلهي المشهور يقول : كل فاعل يعمل من أجل الوصول إلى الكمال . فإذا أراد نفس الكمال أن يؤدّي عملاً فهل يؤدّي عمله هذا ليصل إلى الكمال ؟ الله الذي هو الكمال المحض هل يعمل عملاً من أجل الوصول إلى شيء ؟ كلا بل لأنّه كمال لا محدود فالاختيار والإرادة منه ، والعلم والقدرة منه . وقد صدر العالم الذي له هدف من هذا الكمال اللامحدود الذي هو عين العلم والقدرة وعين المشيئة ، من هذه المشيئة الذاتية ، ومن هذه القدرة والعلم والحياة المحضة . ويقول لتوضيح هدف الفعل : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا** ﴾[2] . ويظن الكافر الذي ينكر المعاد بأنّ العالم بلا مقصد ، عدّة من الناس يأتون ويذهب آخرون وتغيرات بلا هدف وحركات بلا مقصد وسعي بلا غرض . هذا ظن الذين كفروا القائلين بأنّه لا قيامة . بل العالم يتحرك إلى جهة هدف ﴿ **فويل للذين كفروا من النار** ﴾[3] فبعضهم يكون في القيامة حطباً لجهنم . وقد بيّن القرآن الكريم هذا المعنى ، وأوضحه أيضاً

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٧.

القرآن الناطق علي بن أبي طالب سلام الله عليه . يقول القرآن الكريم : ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً** ﴾[1] ، أولئك الذين هم أهل القسط والظلم والجور حطب جهنّم . وفي نهج البلاغة في تعداد علم الغيب للواجب تعالى يقول : إنّ الله عالم بجميع الغيوب وحتى يعلم « من يكون في النار حطباً »[2] مَن سيكون غداً في القيامة حطباً لجهنّم . والله يعلم أنّ عدّة من الناس سيكونون حطباً لجهنّم . وأشار في سورة الجاثية أيضاً إلى الحكمة الإلهية وقال : إنّ العالم ليس باطلاً ولم يخلق الله العالم باطلاً ﴿ **وخلق الله السماوات والأرض بالحق** ﴾[3] فالسماوات والأرض في صحبة ومصاحبة الحق ومع الحقيقة . والشيء الذي هو حق ومع الحقيقة ليس بلا فائدة ولا مقصد . وليس كما يظن الماديون ويقولون : ﴿ **ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر** ﴾[4] ويبيّن الله كلام الماديين قائلاً : يزعم الماديون أنّ عدّة من الناس يحيون وآخرون يموتون ولا وجود للقيامة ولا لله أيضاً ، ويمزّقنا الدهر ، فبعض يصير تراباً وبعض ينهض من التراب ، فلا مبدأ ولا قيامة . هذا هو كلام الماديين .

يقول القرآن : ليس لهؤلاء معرفة بأنفسهم وبالعالم وبمبدأ العالم . ويقول : خلق نظام العالم بالحق والشيء الذي هو باطل ولا هدف له ليس حقاً . فالعالم حق وسوف لن يكون بلا فائدة . وكذلك قال في أقسام أخرى : لم نخلق السماوات والأرض لاعبين ﴿ **وما بينهما لاعبين** ﴾[5] الله ليس لاعباً . وقد اتضح الفرق بين الدنيا وعالم الطبيعة في الجلسات السابقة

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٥ .
(٢) نهج البلاغة : صبحي الصالح، ص ١٨٦ .
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٢ .
(٤) سورة الجاثية، الآية: ٢٤ .
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٦ .

بأنّ الدنيا ما هي والسماء والأرض ما هي ، فهل الدنيا هي السماء والأرض والنباتات والمعادن والفضاء والبحر والصحراء ؟ أم الدنيا هي المقررات الخاصة التي يضعها الإنسان لتنظيم الحياة ؟ إذن الله يقول في مثل هذه الآيات : بما أنّ العالم قد وجد من مبدأ الحكمة فله هدف ، ولن يكون عالماً بلا هدف . وبما أنّ الله غني فإنّ الهدف يرجع إلى الفعل لا إلى الفاعل ، لأنّ العالم سائر إلى جهة الله ، والله بنفسه هدف ، وإن كان الله هو المبدأ فنفس الله الذي هو المبدأ والأول هو نفسه الهدف والآخر ﴿ **هو الأول والآخر** ﴾[1] بما أنّ العالم في حركة إلى جهة الله ، إذن الله هدف وليس صاحب هدف ، كما أنّ العالم قد صدر عن الله ، فإذن الله مبدأ ولا يوجد مبدأ لله . فهو الغني المحض لا يحتاج إلى فاعل وغير محتاج إلى الهدف . فالعالم صادر من الغنى المحض ويتحرك إلى جهة الغنى المحض . وعندما يعرّف القرآن أصحاب العقول يمدحهم بأنهم أهل اللبّ والفكر والعقل . يقول : عندما ينظر هؤلاء إلى السماوات والأرض ﴿ **ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض** ﴾[2] يقولون : ﴿ **ربّنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾[3] ﴿ **إنَّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾[4] أولئك ذوو الألباب والعقول ، وهكذا يعرّف القرآن اللبيب والمفكر : ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ﴾[5] أولئك الذين هم يذكر الله دائماً وفي جميع الأحوال : الوقوف والقعود وعلى جنوبهم ، أولئك الذين إذا لم يستطيعوا الصلاة وقوفاً يصلّون جالسين ، وإذا

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

لـم يستطيعـوا الصـلاة جلـوسـاً يصلّـون علـى سرير المـرض مستلقيـن علـى ظهـورهـم أو علـى جنـوبهـم ﴿ **ويتفكّـرون فـي خلـق السمـاوات والأرض** ﴾ ويتفكّـرون فـي نظـام الخلقـة المحسـوس ويقـولـون : ﴿ **ربنا ما خلقت هـذا باطلاً** ﴾[1] ربّنا ليس هذا الخلق بلا هدف ، وليس خلقه بلا مقصد ليولد الإنسان ويعيش عدّة أيام ثم يموت ولا شيء وراء ذلك .

فالموت في ثقافة القرآن الكريم ليس مثل تيبّس الشجرة . والإنسان حين الموت ليس مثل تلك الشجرة التي تتيبّس وتتفسّخ . الموت مثل طيران الطير من قفص الطبيعة والانتقال من الدنيا إلى العالم الآخر . الموت مثل نضوج الثمرة حين تسقط في يد المزارع لا مثل تيبّس الشجرة وتعفّن الثمرة . يظن الإنسان المادي أنّ البشر حينما يموت مثله كمثل الثمرة التي تتعفّن وتتيبّس وتسقط إلى الأرض وتصير تراباً . ولكن الأمر ليس هكذا في ثقافة القرآن ، بل الموت مثل تلك الثمرة الناضجة لشجرة الطبيعة مملوءة بالماء والحلاوة ، ويقتطف الفلاّح تلك الثمرة الناضجة من الغصن بدقة كاملة بحيث تسقط تلك الثمرة الناضجة بيد الفلاح لا على الأرض . وعندما قال وثنيو الحجاز لرسول الله بأنّ الموت ضياع في الأرض ، أفإذا ضعنا في الأرض أنحيا مرة أخرى : ﴿ **أإذا ضللنا في الأرض أإنّا لفي خلق جديد** ﴾[2] فهل إذا متنا وذهبنا إلى الأرض ، وُضعنا في الأرض وخلطنا مع ذرات التراب ولم يبق لنا أثر نُبعث مرة أخرى ؟ وعلى ضوء ما بيّنه الأستاذ العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه يقول الله : إنكم لا تضيعون بل ستتوفون ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم** ﴾[3] أولئك فلاحو العالم الذين

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١ .

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٠ .

(٣) سورة السجدة، الآية: ١١ .

ينتظرون نضوج ثمار الأعمار ، فالنضوج هو نهاية دورة الحياة الإنسانية ، وكل إنسان عندما يصل إلى كماله اللائق به وفي كل مسير يوصله إلى كماله فهو ما يصير مثل التفاح والكمثري فاكهة مليئة بالماء والحلاوة أو مثل الحنظل في فساد الثمر مليئاً بالماء والمرورة . وفي كلتا الحالتين فإنّ فلاّحو عالم الخلقة يقتطفون هذه الثمار المليئة بالماء ويحتفظون بها بيدهم . يقول : لا يضيع أحد بالموت ولا يذهب في باطن الأرض ، بل تتوفاكم ملائكة الموت ، تتوفاكم لا تفنيكم ، تصيرون متوفَين لا فانين ، نحن نُتوفى وتتوفانا الملائكة ﴿ **توفته رسلنا** ﴾[1] وملك الموت بستاني يقتطف هذه الثمار الناضجة ويحتفظ بها في يده لتصل كل ثمرة إلى مكانها ويضعها في محلّها ﴿ **ربّنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾[2] فهذا ليس باطلاً ، وله هدف . من الممكن في عالم الحركة حيث أن جميع أجزائه في جهد وسعي أن يحصل حادث ولا يصل شيء له هدف إلى هدفه مرحلياً . ويحرم من هدفه مؤقتاً ، ولكن هل لهذا الغرض مجال في النظام الكلي ؟ فهل من الممكن أن يقول أحد أن العالم له هدف لكن من الممكن ألا يصل إليه ؟ وهل من الممكن أن يقول أحد : وإن كان الله حكيماً ولا يصدر من الحكيم عمل بلا هدف فالعمل له هدف لكن من الممكن ألا يصل هذا العمل إلى هدفه ؟ وبالرغم من أن القيامة هدف العالم ولكن من الممكن أن لا يصل عالم الطبيعة إلى هدفه . إذن فلا يكون المعاد ضروري الوقوع . وهذا باطل أيضاً في نظر القرآن الكريم لأنّ العالم كيان واحد يتحرّك نحو هدفه ، ولا يوجد مانع أمامه لا يدع عالم الخلقة من الوصول إلى مقصده . وليس الحديث في موضوع شخصي ، بل يجب أن يصل هذا الواحد المنسجم الذي يكون لجميع أجزائه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦١ .
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١ .

هدف واحد إلى هدفه ، فلا يفترض وجود مانع داخل عالم الخلقة ولا مانع خارج عالم الخلقة يمنع المبدأ من خلق العالم وتدبيره ﴿رب العالمين﴾ . وعلى أساس برهان التوحيد لا يؤثر موجود آخر في العالم سوى ﴿ رب العالمين﴾ الذي سيكون ﴿مالك يوم الدين﴾ . ونقرأ في سورة الفاتحة المباركة ﴿الحمد لله رب العالمين*الرحمٰن الرحيم*مالك يوم الدين ﴾[1] مالك يوم الجزاء فهو ﴿رب العالمين﴾ وجميع العوالم تحت ربوبية الله . وبما أنه ﴿أرحم الراحمين﴾ فهو يوصل كل كمال إلى مَنْ له الاستعداد ويوصل كل فيض إلى اللائق له . وعلى أساس برهان الرحمة الذي سيأتي إن شاء الله بما أنّ الله هو المالك الوحيد لذلك اليوم وليس لأحد أي نفوذ على ذلك اليوم . إذن لا يستطيع أحد أن يمنع من تحقّق ذلك اليوم. فالعالم في حالة حركة نحو هدفه والله أيضاً يوصل ذلك الموجود إلى هدفه ويعطي ذلك الهدف إلى عالم الخلقة ، ولا يوجد مانع داخلي لأنّه مترابط ومنسجم ولا مانع خارجي لأنّه لا يملك القيامة أحد سوى الله . بناءً على هذا فإن القيامة ليست فقط ممكنة الوقوع بل واجبة، وليست فقط ممكنة بل ضرورية، وبتعبير القرآن الكريم الراقي القيامة هي اليوم الذي ﴿لا ريب فيه﴾ لا طريق للشك فيه، فلا شك في وجوده ولا تردّد في وقوعه ، وسيكون وقوعه قطعياً ومائة بالمائة . ويقول القرآن المتحرك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه وعلى آله آلاف التحية والثناء : لا تجعلوا يقينكم شكّاً فليس في القيامة شك، وتيقنوا بوجود القيامة ولا تجعلوا يقينكم هذا شكاً وكذلك لا تجعلوا علمكم جهلاً : «لا تجعلوا علمكم جهلاً ولا يقينكم شكّاً إذا علمتم فاعملوا»[2] والعلم الذي لا يعمل به سيكون حجاباً، وسيكون العلم الذي لا عطاء عملي له ستار

(١) سورة الحمد، الآيات: ١ ـ ٣.
(٢) نهج البلاغة، فيض: ص ١٢٢.

مُرخى وإلا فليس هناك حجاب في العالم .

ترجمة شعر :

جمال المعشوق ليس له ستار ولا نقاب لكن أرفع غبار الطريق لتتمكن من رؤيته .

العلم بلا عمل دوران حول الطريق وحجاب مرخى . يقول : إذا كان عندكم يقين فلا تجعلوا يقينكم شكّاً . وقد بيّن القرآن الكريم دور المعاد في الثورة الإسلامية ودور الاعتقاد بالقيامة في مسألة الجهاد ، ويقول في أكثر منعطفات الثورة حساسية : ذكر القيامة هو الذي يدفع الإنسان إلى الجبهة ، والذي يعبىء الإنسان للقتال هو ذكر المعاد فقط ، والاشتياق إلى ذلك العالم هو وحده الذي يرغّب الإنسان بالدفاع عن الحقّ لأنّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنّهم بنيان مرصوص . وقد اعتذر البعض عن القتال في الصيف حيث حرارة الجو ، وقال آخرون لهم لا تذهبوا إلى جبهات القتال في جو الصيف المحرق لأن ذلك شاق ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر** ﴾[1] وقال أعداء الثورة والمعارضين للجهاد والأعمال الفدائية وحراسة حدود الإسلام وأهل المكر والخداع : لا تنفروا إلى الجبهات في الجو الحار والحرارة المحرقة . فقال الله لرسوله : ﴿ **قل نار جهنّم أشدّ حرّاً** ﴾[2] فإذا كنتم تخشون حرارة الصيف العابرة فاعلموا بأنّ جهنّم أشدّ حراً . وقد بيّن هذا المطلب في سورة التوبة بشكل كامل . فالذي يستطيع أن يعبىء المقاتلين إلى الجبهات هو مسألة الاعتقاد بالمعاد وذكر القيامة وأحداث حساب ذلك اليوم . يقول : وإن قال هؤلاء : ﴿ **لا تنفروا في الحر** ﴾ لكن قل لهم : إنّ كلامكم هذا بسبب نسيان القيامة . والشخص

(١) سورة التوبة، الآية: ٨١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨١.

الذي ينسىٰ جهنّم قد ينشغل بالتفكير في صيف الدنيا . وذلك الذي ينسىٰ القيامة يفكر في مداراة بدنه ، ولكن لا يمكن أبداً أن ينطق بمثل هذا الكلام مَن كان ذاكراً للمعاد ﴿ **قل نار جهنّم أشدّ حراً لو كانوا يفقهون** ﴾[1] .

والنتيجة أن برهان الحكمة يقول : العالم فعل الحكيم ، وفعل الحكيم ليس بلا هدف . ويقول برهان الغنى : بما أنّ الله غير المحتاج المحض وهو بنفسه هدف ، إذن لا هدف له لأنّه بنفسه كمال ، والكمال اللامحدود هدف ، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يكون له هدف . إذن ليس للفاعل هدف . مع أنّه لا يوجد فعل بلا هدف ووصول الفعل إلى ذلك الهدف ضروري ، لأنّه لا يفترض وجود مانع داخلي ولا سبب خارجي يقف أمامه ، وسيكون المعاد في النتيجة ضرورياً ، ولهذا يقول القرآن يوم القيامة ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ ووجدنا دور المعاد في الحياة وتهذيب النفس حيث يقول : إنّ هؤلاء بسبب نسيان الآخرة غير مستعدين للتضحية في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . ولو أنهم لم ينسوا الآخرة لما تفوّهوا بمثل هذا الحديث . وكل التضحيات المالية والنفسية هي نتيجة لذكر القيامة ولهذا يثني القرآن على الذاكرين للقيامة ، ويقول علي بن أبي طالب سلام الله عليه : « ذهب المتذكّرون وبقي الناسون أو المتناسون »[2] قد رحل أولئك الذين كانوا بذكر الله والقيامة وهم أصحاب رسول الله الخاصّين ، وبقي الناسون لذكر القيامة أو المتناسون لذكر القيامة والغير مستعدين أن يكونوا في ذكر المعاد ، أي أنّ الموت طليعة القيامة والموت ممر الدخول إلى العالم الآخر .

وقد أعطى القرآن قيمة لمسألة القيامة من وجهة نظر الحكمة النظرية

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨١.

(٢) نهج البلاغة فيض: ص ٥٧٣.

وبيَّن أيضاً الدور الفعّال لمسألة القيامة من وجهة نظر الحكمة العملية . وعندما يعرّف القرآن عظماء المجتمعات البشرية يقول : لقد وصل هؤلاء إلى هذا المقام بسبب ذكر القيامة لأنّ ذكر ساحة الحساب تحفظ الإنسان من كل أنواع المعاصي والذنوب . ونسيان المعاد هو سبب لجميع المعاصي ولهذا يقول : إنّ هؤلاء سيعذّبون عذاباً شديداً ﴿ **بما نسوا يوم الحساب** ﴾[1] . وأفضل النعم هو ذكر القيامة . وقد ذُكر في الجلسة السابقة بأنّ ذكر المبدأ لا ينفصل عن ذكر القيامة فإذا كان أحد ذاكراً للمبدأ ويعرف المبدأ بشكل جيّد فسيكون بذكر المعاد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٦.

الدرس
الثاني
والعشرون

الأنبياء شهداء أعمال الأمم

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

جعل القرآن الكريم رسول الله ﷺ أسوة وقدوة ومورد اعتماد لتربية وهداية البشر . وكل ما قاله الوحي السماوي فهو متحقق في رسول الله ﷺ ، وكل أفعال رسول الله كانت مظاهر للوحي ، فكان صلوات الله عليه وحياً مجسّداً . ويجب أن يقتدي البشر بإنسان كامل ليصلوا إلى كمالهم النهائي . وإنما تتّضح خطوط الاقتداء عندما تكون خطوط الإنسان الكامل مبيّنة . وقد وصف الله تعالى رسوله بالخطوط الكلية للكمال . وكل واحد من خطوط الكمال هذه يمكن أن يكون سبباً لارتباط الناس بشخصه صلوات الله عليه . ويستطيع كل شخص أن يصل إلى حضرته ﷺ من أحد الطرق . وكل مَن يستطيع الوصول إلى حضرته ﷺ من جميع الطرق فسيكون أكمل من الآخرين . وسيكون من بين أولئك مَن يكون مثل نفس رسول الله ﷺ وذلك هو أمير المؤمنين عليه السلام ، وسيكون بالنتيجة باقي الأئمة عليهم السلام بمنزلة الروح الطاهرة لرسول الله ﷺ أيضاً .

لقد اعتبرت آية المباهلة أمير المؤمنين بمنزلة نفس رسول الله . وما نقله ثقة الإسلام الكليني رضوان الله عليه في الكتاب القيّم الكافي عن المعصوم عليه السلام : « ما كلّم رسول الله صلى الله عليه وآله العباد بكنه عقله قط » أي لم يكلّم خاتم الأنبياء أحداً أبداً بعمق فكره لأنه صلى الله عليه وآله كان مأموراً أن يكلّم المخاطب على قدر عقله لا بمقدار عمق فكره ، لأنّه عندما يتحدّث بمقدار عقله فلا يفهم المخاطَب كلامه لذا لم يتكلم بمقدار عمق عقله وإنما بمقدار المخاطب . وقد استثنى شرّاح أصول الكافي ـ نظير صدر المتألهين رضوان الله عليه والشرّاح الآخرين الذين يتمتعون بهذا الذوق ـ أهل البيت عليهم السلام وقالوا : أنّ رسول الله قد خاطب علياً وآل علي بعمق عقله وأمير المؤمنين عليه السلام كان يفهم ذلك أيضاً لأنّ علياً عليه السلام بمنزلة نفس رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنّه بمعرفة جميع خطوط الكمال واتّباع جميع هذه الطرق وصل إلى مرحلة يكون فيها بمنزلة نفس معلمه . ومن أبرز خطوط كمال الرسول الأكرم هو مقام شهادته السامي صلوات الله عليه ، هو كون الرسول صلى الله عليه وآله شاهد الأمّة ، شهيد على الأمم والأنبياء ، فهو ليس شاهداً على الناس الذين عاصروه ، وليس فقط شاهداً على أمّته إلى يوم القيامة ، وليس فقط شاهداً على الأمم الماضية ، بل شاهداً على الأنبياء والأولياء الإلهيين أيضاً . أي أن رسول الله الشاهد على جميع أفراد البشر سواء كانوا أمماً أو أنبياء .

فالجميع في حضور الرسول الأكرم ، ولرسول الله بإذن الله إحاطة علمية على أعمال الأولين والآخرين ، وله إحاطة على تصرفات جميع الأنبياء ، هو شاهد على أعمال جميع الأمم وجميع الأنبياء ، وشهيد على جميع ساحات التاريخ الذي مضى أو الذي سيأتي ، شاهد على جميع الأعمال التي قام بها البشر أو يقومون بها ، شاهد على جميع الأخلاق التي

قد تخلّق بها البشر أو التي سيتخلّقون بها ، شاهد على جميع العقائد التي كانت البشرية تعتقد بها فيما مضىٰ ، أو التي ستعتقد بها أجيال المستقبل .
أي أنّ جميع ما جرى على الأولين والآخرين تحت إشراف شهادة الرسول الأكرم ﷺ ، وسيكون رسول الله في يوم القيامة حيث يجتمع فيه الأولون والآخرون : ﴿ **قل إنَّ الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم** ﴾[1] شاهداً على جميع الناس وجميع الأحداث . فالشاهد الوحيد في المحكمة الإلهية والذي كان مطّلعاً على جميع هذه الساحات ولا يزال هو رسول الله ، وقد عدّ القرآن هذا المقام الرفيع أبرز خطوط الكمال لرسول الله ، لأنّه عندما يصل الإنسان الكامل إلى هذه المرحلة حيث لا يكون أي حجاب بينه وبين مبدأ الفيض ، لا حجاب ظلماني ولا حجاب نوراني ، لا يكون له أي حجاب حتى يحصّل مثل هذا الشهود حيث يرى جميع الأمور تحت هيمنة شهوده ، فلا يكون له أي ذنب حتى ذنب رؤية الوجود « وجودك ذنب لا يقاس به ذنب » فلا يرى نفسه حينئذٍ ليحجب بحجاب الأنانية . وهذا السير الذي هو جانب من جوانب الدرجات العالية لسدرة المنتهى إنما يكون مقدوراً لذلك الذي يتحرّك على أثر الشاهد والشهيد المطلق ويطوي هذا الطريق بمقدار حضوره ليتمتّع بالشهادة بمقدار حضوره . وقد طرح القرآن الكريم هذا الموضوع ـ وهو كون رسول الله شاهداً على أعمال الناس وأن الناس هم في حضور نبي الإسلام ـ في عدة مواضع فهو أولاً يطرح سؤال الجميع حيث أن القيامة يوم السؤال العمومي ولا يُصان أحد عن هذا السؤال ، فالجميع في القيامة مسؤولون ويجعلون محلاً للسؤال ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾[2]

---

(١) سورة الواقعة، الآيتين: ٤٩ ـ ٥٠ .
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦ .

فالجميع في القيامة مسؤولون فيُسأل الأنبياء عن أداء وظائفهم الرسالية ، ويسألون عن الأمم هل اتّبعتهم في خطاهم أم لا ، لأنّه « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته »[1] وفي يوم السؤال العمومي يجيب البعض ويعتذر آخرون وبعض لا يؤذن لهم في الاعتذار ﴿ **ولا يؤذن لهم فيعتذرون** ﴾[2] وسيكون رسول الله شاهداً على الجميع في القيامة يوم السؤال والاحتجاج والاستدلال ويوم ظهور حكم الحق ، من كان عارفاً بوظيفته ، ومن أدّى وظيفته ، ومَن لم يؤدِ وظيفته . وعرَّف الله رسوله في سورة النساء بعنوان الشاهد قال : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[3] كيف سيكون في ذلك اليوم الذي نحضر فيه شهيداً على كل أمّة يكون شاهداً وناظراً لعقائد وأخلاق وأعمال الأمّة ، وتحضر أنت بعنوان شهيد الشهداء ، فأنت شهيد بلا واسطة وشهيد مع الواسطة أيضاً ، تعرف ماذا فعل الناس وتعلم ماذا عمل قادتهم ، تعلم ماذا عملت الأمم وتعلم ماذا عمل الأنبياء ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد** ﴾ فيعطي شهادته في أحداث محاكمة الأمة ﴿ **وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ ونحضرك بعنوان الشاهد على الجميع ، فتكون شاهداً على الأنبياء وشاهداً على الأمم أيضاً ، فتؤدي شهادتك واطّلاعك على احترام الأنبياء لوظائفهم الرساليّة وعملهم بها وتؤدي أيضاً شهادتك واطّلاعك على موقف الأمم مقابل رسالات أنبياءها أيضاً . وقد عرَّف الله رسوله في سورة البقرة أيضاً بعنوان الشاهد على الجميع قال : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾[4] وقوله ﴿ **جعلناكم أمّة وسطاً** ﴾ لهدفين :

---

(1) نهج الفصاحة : ص ٤٥٧ .
(2) سورة المرسلات، الآية : ٣٦ .
(3) سورة النساء، الآية : ٤١ .
(4) سورة البقرة، الآية : ١٤٣ .

الأول : شهادتكم على الناس ، والثاني : شهادة رسول الله عليكم ، من أجل أنّ المتوسط في الكمال ، والذي يكون في الحد الوسط من درجات الكمال يستطيع الحصول على الفيض من أعلى كما يكون له إشراف على ما دونه ويعطيه الكمال . وإنما تكون الأمة شاهدة على الآخرين عندما يكون لها إشرافاً وجودياً ، فإذا لم تكن أعلى من الآخرين لا يكون لها إشراف ولا يكون لها حضور ولا تكون شاهدة على أعمالهم ، وبالنتيجة لن تكون شهيداً في يوم القيامة . وإذا كانت أعلى من الآخرين فسيكون لها اطّلاع على عقائد وأخلاق وأعمال الآخرين . وتكون شاهدة على أعمالهم وأخلاقهم وعقائدهم في الدنيا وتستطيع في القيامة أن تؤدي الشهادة وتكون شهيداً عليهم . والمراد من كون الأمّة الإسلامية وسطاً ليس هو كونها وسطاً بين الإفراط والتفريط ، بل مرادهم هو الوسط بين النازل والعالي وبين الأعلى والأدنى . والنتيجة هو أنّ الأمّة المرحومة لها إشراف على أعمال الآخرين . والمقصود من الشهادة هو الإطّلاع على أخلاق وعقائد وأعمال الناس في الدنيا ، والشهادة على هذه الأمور في القيامة يصير إذ بهذا الإنسان شاهداً لأنّه حاضر ، وهذه مرحلة من مراحل الكمال العلمي . والشهادة على الأعمال تكون بنحو خاص من العلم وهو العلم الحضوري ، وهو على خلاف الشهادات في محاكم الدنيا الذي هو نحو من العلم الحسّي ونحو من العلم الحصولي . فالشيء الذي يراه الإنسان بالحواس ويدركه عن طريق الحواس سوف لن يكون أكثر من نافذة للعلم الحصولي . فإذا كانت استنتاجاته على أساس مشاهداته فتلك العمليات الفكرية والتحليلات الذهنية سوف لن تكون محسوسة بالرغم من مبادئها الحسّية . والشيء الذي يدركه الإنسان عن طريق الحواس ليس أكثر من مفردات . والتصديق ليس من الحس بل من الذهن . فيكون التصديق علماً حصولياً ، كما تكون

المفردات التي توجد في الذهن عن طريق الحواس تصورات وهي علم حصولي أيضاً . وحدود العلم الحصولي هو في الأعمال التصورية والظاهرية . ولا يطّلع الإنسان أبداً عن طريق العلم الحصولي على ما في نفس أحد ولا يمكن له أن يطّلع عن طريق العين والإذن والفكر على أسرار أحد الداخلية ، والإطّلاع على باطن الأفراد عن طريق المحاسبات الذهنية أمر صعب أو مستحيل . وشهادة أولئك ليس فقط على الأعمال ، بل على الأخلاق وعلى العقائد أيضاً ، فروح العمل الخلق وروح الخُلق العقيدة ، التي تصير مبدأ لظهور الخلق ، والأخلاق توجد أرضية تكوّن الأعمال . والعقيدة ذلك العلم الذي عجن مع الروح فهي ليست أمراً حصولياً ومفهومياً بل هي وجود خارجي خاص ، والأخلاق أيضاً التي عجنت بروح الإنسان المتخلّق ليست أمراً حصولياً ومفهومياً ، ولا يمكن أبداً فهم أخلاق أحد والتي هي سلسلة من الحقائق الخارجية بالعلم الحصولي . وسوف لن يكون من نصيب أحد أبداً العلم بعقائد الآخرين والتي هي نحو من الوجودات الخاصة ومرتبطة بأرواحهم عن طريق العلم الحصولي . إذن متى يستطيع الإنسان أن يكون مطّلعاً على أخلاق وعقائد الآخرين وشاهداً عليها ويعطي شهادته في القيامة ؟

ومتى يستطيع أن يجد الطريق إلى باطن الآخرين ويكون مطّلعاً على عقائد الآخرين ؟ ومتى يستطيع أن يكون مطلعاً على أرواح الآخرين ومستحضراً لملكاتهم النفسية ؟ والخلاصة متى يستطيع أن يعلم الغيب ؟ لأن جميع هذه الأمور علم غيب ، وليس لأحد منها طريق فكري وحصولي ، لأنّ تلك الأمور متن الوجود الخارجي وهي غائبة عن مظاهر إدراك الناس . متى يمكن للإنسان أن يطل على نفوس الآخرين ويطلع على أخلاقهم واعتقادهم الباطني ؟ إنما يستطيع ذلك عندما يكون نفس الإنسان

متمتعاً بسعة وجودية بحيث يصير في طول وجود الآخرين ، فيكون وجوده أعلى من وجودهم ، وروحه بمنزلة أرواحهم وقلبه بمنزلة قلوب الآخرين إلى الحد الذي يجعل فيه روح الآخرين وقلب الآخرين تحت إحاطته الوجودية لتكون مشهودة له ويكون هو شاهداً عليهم ، لأنّ الشهادة لا تنسجم مع الغيب ولا يتلاءم العلم مع الغيب لأنّ العلم ظهور ولا يتعلّق بالغيب أبداً . والمراد بعلم الغيب هو الشيء الغائب عن الآخرين فهو ليس محجوباً على الإنسان المطّلع ، وما كان مخفياً عن الآخرين لا يكون مخفياً عن هذا المطّلع ، وما كان غائباً عن الآخرين لا يكون غائباً عن هذا المطّلع . وعلى هذا فالإنسان إنما يستطيع أن يكون شاهداً وحاضراً حينما يكون من نظر سعة الوجود أعلى من وجود الآخرين وروحه أعلى من أرواحهم ونفسه أعلى من نفوسهم حتى يستطيع أن يكون مطلعاً عن نفوس الآخرين وأن يكون مستحضراً لأرواحهم وأن يكون مطّلعاً على بواطنهم وقلوبهم وضمائرهم . وهذا هو معنى الشهادة . وما قاله الله لرسوله في كونه شاهداً عاماً أو قوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** ﴾[1] أي تصلون من ناحية الإحاطة الوجودية إلى حد بحيث يكون لكم إحاطة بأرواح وعقائد وأخلاق وأعمال الآخرين ، وحينئذٍ يكون الرسول عليكم شاهداً ﴿ **ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾[2] لرسول الله إحاطة وحضور عليكم وأنتم على الآخرين . فإذا كان رسول الله شاهداً على الأمّة ، والأمّة شاهدة على الآخرين ، فإنّ رسول الله سيكون شاهداً على الآخرين ، لأنّ هذا من مقاييس المساواة والتي تكون مقدمته الخارجية صادقة لأنّ « شاهد الشاهد شاهد » في العلوم الحصولية شاهد الشاهد ليس شاهداً . فمثلاً إذا رأى أحد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣ .

حدثاً وواقعة واحتفظ بها في ذهنه وأعطى شهادته في المحكمة ، وكان آخر شاهداً لهذه الشهادة ولم يكن مشاهداً لتلك الواقعة . فهو شاهد على شهادة الشاهد ولكنه ليس شاهداً على الواقعة . وأما في العلوم الحضورية فيمكن أن يكون الشاهد على شاهد الواقعة شاهداً على الواقعة ، أي إذا جُعل أحد في الحد الوسط وكان حاضراً في الحادثة ووجدت عنده الإحاطة الوجودية حول الموضوع ، فمن كان أعلى منه فسيكون شاهداً عليه وشاهداً على أصل الحادثة أيضاً . لأنّ إحاطته الوجودية على الشاهد والمشهود ، أي أنّه شاهد عليه وشاهد على أصل الحادثة أيضاً ، ولهذا فإنّ رسول الله شاهد على الأمّة وشاهد على الأنبياء أيضاً . فهو يعلم ما عمله الناس وما سيعملونه ويعلم أيضاً ما عمله الأنبياء وما قالوه . وهذا المعنى للأمّة الوسط ينسجم مع آيات أخرى ، وإن كان قد بُيّن للأمّة الوسط معنى آخر ليس خالياً من الدّقة ، وذلك المعنى دقيق وصحيح أيضاً . وكما قال الأستاذ العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه : استفادة ذلك المعنى من الآية صعب ولا ينسجم مع الآيات الأخرى التي طرحت مسألة الشهادة . قال : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** ﴾[(١)] معنى قوله أنكم شهداء على الناس هو أنّ هذا الدين له قدرة تربية الشهداء ، له القدرة على تربية أفراد يكونون مطّلعين على الآخرين ومستحضرين لما في ضمير الآخرين . يربي أفراداً يكونون شهداء في الدنيا وشهداء في الآخرة أيضاً . وليس معنى ذلك أن يصل كل فرد من هذه الأمّة إلى هذا المقام . كلا وهذه في الحقيقة الصفة الكمالية لهذا الدين . فليس كل من كان له دين ظاهراً يصل إلى هذا المقام الرفيع . إذ نجد أحياناً شخصاً لا يملك من الإسلام إلاّ اسمه ، كما نجد أحياناً مسلماً قد انقاد جسماً وروحاً لهذا الدين وهذا المذهب ، وما قاله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣ .

﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ أي أنّ دينكم دين يربّي الشهداء . وعندما يقول الله عن بني إسرائيل : ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾[1] فليس بذلك المعنى الذي يكون فيه كل إسرائيلي له مزية على العالمين ، بل الدين الذي أعطي إلى بني إسرائيل بواسطة موسى الكليم عليه السلام دين يربّي الفضلاء ويكون مستتبعاً لمزية الرتبة وعلوها وتكامل الدرجة والتفضل على الآخرين ﴿ وفضّلناهم على العالمين ﴾ أي أنّ هذا المذهب يربّي الفضيلة ويصنع الفضلاء ، والأتباع الصادقين لهذا المذهب يتمتعون بالفضائل المعنوية . ويقول أيضاً في هذه الآية : أتباع الإسلام شهداء أعمال الناس ، الأئمة عليهم السلام شهداء أعمال الناس . وما يعمله الآخرون يطّلع الأئمة المعصومون ، وما يعمله الناس الآن يطّلع عليه ولي الله الأعظم إمام العصر روحي وأرواح العالمين له الفداء . هو النموذج الكامل ، هو مجرى فيض الخالقية ، هو شاهد أرواح الناس ، هو الشهيد على قلوب الناس ، هو المصداق الكامل ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾[2] وإن كان رسول الله شاهداً عليه أيضاً ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[3] وحينئذٍ يكون الإنسان شاهداً على الآخرين بنفسه وتحت إشراف النبي صلى الله عليه وآله أيضاً . فيرى ما يعمله الآخرون ، ويرى أيضاً أنّ رسول الله ينظر إليه . فيكون مراقباً لأعمال الناس ويكون أيضاً تحت إشراف رسول الله . يرى ما يعمله الآخرون ويكون هو أيضاً تحت حضور وإشراف النبي . فهذا المذهب يربّي الإنسان إلى هذا المستوى الرفيع . فإذا كان الإنسان عازماً بهذا المضمون فهل يأذن لنفسه بالمخالفة وارتكاب الذنوب ؟ وما جاء في جوامعنا الروائية بأنّ الشخص حين ارتكابه الذنب لا يكون مؤمناً أبداً ومَن كان مشغولاً بعمل

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٦ .
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣ .
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣ .

مخالف فهو في تلك اللحظة ليس مؤمناً لهذا السبب وهو أنّ الإيمان مصاحب للشهادة والحضور ، فهل من الممكن أن يرتكب الإنسان ذنباً بحضور رسول الله ومع ذلك يعلم بنفسه بأنّه مؤمن ؟ وهل من الممكن حينما يصل الإنسان إلى حد يكون فيه محيطاً بأعمال الآخرين أن تمتد يده إلى الأوساخ وتمتد رجله إلى القذارة ؟ ﴿ **ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ . وقد عرّف القرآن عيسى المسيح سلام الله عليه بعنوان شاهد الأمّة ﴿ **ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به** ﴾[١] لم أقل شيئاً للناس إلاّ ما كنت مأموراً به ، وقد وفيت الرسالة ، ولم أنطق إلاّ بما أمرني به الوحي ولم أقل شيئاً خارجاً عمّا أمرني به الوحي ﴿ **ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي** ﴾[٢] قلت لهم : اعبدوا الله ربّي وربّكم ، وكل ما كنت مأموراً به هو رسالة التوحيد ، وكل ما أبلغته هو دعوة التوحيد . توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية أيضاً ، وقد اعتمد القرآن كثيراً على درجات التوحيد ﴿ **أن اعبدوا الله ربّي وربّكم وكنت عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم** ﴾[٣] ما دمت بين الأمّة كنت شاهداً على أعمالهم ﴿ **فلمّا توفّيتني** ﴾[٤] وعندما أخذتني أخذاً تاماً وتوفّيتني ﴿ **كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾[٥] كنت أنت الرقيب الوحيد عليهم وما زلت مع أنّك كنت الرقيب عليهم سابقاً أيضاً ، لأنّ الله تعالى هو الرقيب دائماً ﴿ **إنّ ربّك لبالمرصاد** ﴾[٦] هو دائماً رقيب ودائماً مراقب ودائماً راصد لأنّه ﴿ **وأنت على كل شيء شهيد** ﴾[٧] فأنا شاهد عليهم ما دمت فيهم ، فكنت مطّلعاً

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٧ .
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٧ .
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧ .
(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٧ .
(٥) سورة المائدة، الآية: ١١٧ .
(٦) سورة الفجر، الآية: ١٤ .
(٧) سورة المائدة، الآية: ١١٧ .

على إيمانهم وكفرهم ، وكنت أعلم بواطنهم وشاهداً على عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم والآن فإنّك الرقيب الوحيد عليهم لأنك ﴿ على كل شيء شهيد ﴾ . كان عيسى المسيح عليه السلام شهيداً ، شاهداً على أعمال الناس ، شهيداً على أخلاق واعتقادات أمّته . وكان رسول الله شاهداً عليه أيضاً لأنّه وفقاً لهذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[1] إنّك شاهد على جميع هؤلاء وليس شاهداً على أُمّتك وليس شاهداً فقط على الأمم بل شاهداً على الأنبياء أيضاً . وسيحضر هؤلاء يوم القيامة بضعة شهداء في محكمة العدل الإلهي ويذكرهم القرآن باسم الشهداء ﴿ ويوم نبعث من كل أمّة شهيداً ﴾[2] يوم القيامة يكون مطّلعاً ويؤدي الشهادة . ويجب أن يطوي الشهيد مرحلتين : الأولى حين الحادثة ، والثانية حين حكم الشهادة . وللشهيد مقامان : الأول مقام التحمل ، والثاني مقام الأداء . وفي الشهادات الحصولية حيث يعطي الشاهد بعلومه الحصولية الشهادة في المحاكم العادية والشرعية يشترط أن يكون حاضراً أولاً في الحادثة ، وقد أدرك تلك الواقعة بحواسه مثلاً . وما قاله رسول الله : « ألا بمثل هذا فاشهد أو دع »[3] أي إذا رأيت حادثة في أثناء وقوعها كما ترى الشمس فاشهد في محكمة العدل حيث مقام الأداء ، وإذا لم يكن الشخص حاضراً في أثناء وقوع الحادثة ولم يتحمّل شيئاً عن طريق العلم الإحساسي فليس له حق الحضور في مقام أداء الشهادة .

وعندما يأتي إلى المحكمة فيشهد بما حصّل عليه وفهمه ويبيّنه بحضور الحاكم فيصير هذا أداء للشهادة ويصير الحضور في أثناء الحادثة تحمّل

---

(١) سورة النساء، الآية : ٤١ .

(٢) سورة النحل، الآية : ٨٤ .

(٣) كتاب الشرائع باب القضاء .

للشهادة . فهل الأمر هكذا في محكمة القيامة حيث تقام على أساس مسائل العلم الحصولي والشهود العاديين أو تقام على أساس العلم الحضوري والشهود العيني حيث تشهد اليد والرجل وأعضاء وجوارح الإنسان الأخرى ، فالساحة التي وقع فيها العمل شاهد وتؤدي الشهادة ، والمكان الذي كان ظرفاً لتحقّق تلك الحادثة شاهد ويؤدي الشهادة ، وما كان مصاحباً للحادثة شاهد ويؤدي الشهادة ، فهل محكمة القيامة من هذا القبيل بحيث يطلب الله الشهود ويؤدي البعض شهاداتهم بشهادات العلم الحصولي وبشهادات التصور والتصديق وبشهادات التقرير ؟ أو أن شهادات القيامة شهادات حضورية . وفي ذلك اليوم يحضر فيه الله الأنبياء والشهداء **﴿ وأشرقت الأرض بنور ربّها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾**[١] ذلك اليوم الذي لا يضيء الأرض أي كوكب لأنّه قد طوي بساط الكواكب والنجوم ، وبُدّل بساط الأرض والسماء وتضيء الأرض بنور ربّها ووضع كتاب أعمال الأولين والآخرين ويُحضر الأنبياء والشهداء ليُحكم بالحق . ما نوع الشهادة التي تُطرح في ذلك اليوم ؟ ذلك اليوم الذي **﴿ تشهد عليهم ألسنتهم ﴾**[٢] تشهد الألسنة مع أنّ الأفواه مُغلقة **﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾**[٣] ويقول في مكان آخر : يشهد اللسان لأن اللسان غير الفم ، اليوم الذي تشهد فيه الألسنة مع أنّ الأفواه مغلقة ، اليوم الذي تشهد فيه اليد ، اليوم الذي تشهد فيه الرجل ، اليوم الذي يعترض فيه الإنسان على يده ورجله لماذا شهدتم علينا ؟ ويقولون لجلودهم **﴿ لِمَ شهدتم علينا ﴾**[٤] فتقول لهم :

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٩ .
(٢) سورة النور، الآية: ٢٤ .
(٣) سورة يس، الآية: ٦٥ .
(٤) سورة فصلت، الآية: ٢١ .

﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾[1] فهل الشهادات في ذلك اليوم شهادات حصولية وعملها بالتصور والتصديق لتعطي الشهادة مع التصور والتصديق ؟ أم أنّها شهادات حضورية ، فهناك إحاطة حضورية ، وظهور العمل وإحضار له وإشراف على وقوع الحادثة وإحاطة على العمل والعامل ويصل الإنسان في ذلك اليوم إلى مرحلة يكون فيها ذلك الذي فهمه الآخرون في الدنيا مجسّداً له وظاهراً بحيث لا يستطيع إنكاره . وفي ذلك اليوم يعرّف الله رسوله بأنّه شاهد الأولين والآخرين . وهذا من أبرز الخطوط الكمالية لرسول الله بحيث يصل إلى درجة تكون جميع أعمال الأولين والآخرين تحت الإشراف والإحاطة الوجودية لتلك الذات المقدسة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(١) سورة فصلت، الآية: ٢١.

الدرس
الثالث
والعشرون

طريق الشهادة على الأعمال

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

جعل القرآن الكريم الرسول الأكرم أسوة وقدوة لتربية البشر بصورة صحيحة ، وبيّن خطوط الكمال لهذا المقتدى وطريق الوصول للكمال في ظل اتّباعه . وعرّف الباحثين عن هذا الطريق وحلّل نتائج اتباعه وتحدّث عن الأضرار الفادحة للتمرّد عليه . وأبرز خطوط الكمال لهذا الأسوة والمقتدى هو الشهادة ، أي الحضور على عقائد وأخلاق وأعمال الناس . أي أنّ رسول الله وصل إلى مقام بحيث يرى فيه بإذن الله جميع عقائد وأخلاق وأعمال الناس ويشهد عليها في يوم القيامة . والإنسان باتّباعه طريق الشهيد يصير شاهداً كما أنّه باتّباع طريق الحبيب يصير محبوباً . وإذا كان الله قد عرّف رسوله بأنّه حبيبه ومحبوبه فلأنّه قد جعل طريقه طريق المحبوب ، أي أنّه محبوب واتّباع المحبوب يجعل الإنسان محبوباً **﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ﴾**[1] إذا كنتم تحبّون الله فاتّبعوا رسوله لتكونوا

(١) سورة آل عمران، الآية : ٣١ .

محبوبين عند الله لأنّ طريقه طريق المحبة ، وإتّباع الإنسان لطريق المحبة يصيره محبوباً .

وإذا كان الله قد عرّف رسوله بأنّه شاهد الكل وقال : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[1] كيف سيكون ذلك اليوم الذي يحضر فيه جميع الأنبياء والأمم ونُحضر من كل أمّة شهيداً وتكون أنت الشاهد العمومي ﴿ **وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾[2] أي أنّ هذه الأمّة شاهدة بحقّ على أعمال الآخرين ورسول الله شاهد على الشهداء . إذن خط الرسول الأكرم هو صراط الشهادة ، وقد بيّنا الخطوط الكلية للشهادة في الجلسة السابقة . فالشاهد هو الذي يكون له إشراف بالعلم الحضوري على نفوس الآخرين وعقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم ويحضر يوم القيامة بإذن الله ويؤدّي الشهادة . وإذا كان الله قد عرّف رسوله بأنّه أسوة فإنّ ذلك يعني أنّ الأمّة موظفة بالاقتداء بنبيّها .

ومن أبرز خطوط هذه الأسوة الشهادة ، أي أنّ الرسول الأكرم ﷺ وصل إلى درجة يكون فيها ناظراً إلى بواطن الناس وظواهرهم . إذن يمكن أن تصل الأمّة باتّباع نبيّها إلى درجة تكون فيهابإذن الله ناظرة إلى بواطن وظواهر الآخرين . وهذا المقام الرفيع هو بانتظار أمّة الرسول الأكرم ﷺ فهذا الدين له القدرة على تربية أفراد بمستوى يكونون فيه مطّلعين فيه على بواطن الآخرين ، وقد تفتّحت أرواحهم إلى درجة أن لا تكون فيه الأمور العادية حجاباً لهم ، إذ أنه :

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣ .

ترجمة شعر :

جمال المعشوق ليس له حجاب ولا نقاب لكن أزل غبار الطريق لتتمكن من النظر .

فإذا لم تكن روح الإنسان مظلمة فهي مضيئة ، وإذا كانت مضيئة فهو ينظر إلى بواطن الآخرين ويطّلع عليها ، والذي يمنع التكامل هو هذا الظلام . «سأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام : إنّي قد حُرمت من صلاة الليل . فقال : إنّك رجل قد قيدتك ذنوبك ولست حراً»[1] . فذنب النهار حجاب مظلم في الليل . ومن تلوث بالذنوب نهاراً لا يوفّق لصلاة الليل . وقد نقل ابن بابويه القمي (قدّه) في كتابه القيّم التوحيد عن ثامن الحجج ٣ أنه : «لماذا احتجب الله؟ فقال : كثرة الذنوب تمنع الشهود»[2] إذن من كان باطنه طاهراً وروحه غير ملوثة فهو يطوي خط الشهادة ويكون شاهداً وشهيداً ويحشر أيضاً في القيامة مع الأنبياء ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء ﴾[3] ويلتحق بالشهداء يوم القيامة بحضور الله . وليس معنى الشهيد في هذا البحث هو مَن قُتِل في ساحات الحرب ، فتلك الشهادة الفقهية ، وهي واحدة من أبرز الكمالات وأحسن الفضائل الإنسانية . وقد نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله : أنّ الأوصاف الكمالية تحصل للإنسان الواحدة تلو الأخرى حتى يُقتل الرجل في سبيل الله فليس بعد ذلك كمال . وأمّا في مقابل ذلك الحصر الإضافي فإنّ هذا المعنى موجود وهو أنّ الإنسان باتّباع طريق الشهادة وطريق الحضور يستطيع أن يصل إلى درجة يكون فيها مطلعاً على بواطن الآخرين «اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله» .

فإذا كان الإنسان الكامل ينظر بنور الله ونور الله يضيء كل مكان فهو

---

(١) توحيد الصدوق : ص ٩٧ .

(٢) توحيد الصدوق : ص ٢٥٢ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٦٩ .

يستطيع بمقدار سعة وجوده أن يطّلع على كل مكان . ومسألة الشهادة والحضور في عقائد وأخلاق وأعمال الآخرين هي أن الإنسان بلحاظ العلوّ الوجودي يصل إلى درجة يكون فيها مشرفاً على وجود الآخرين ومسلّطاً على نفوس الآخرين ، أي أنّ له سلطة وجودية ويعلم ما يمرّ في نفوسهم وما يخطر في قلوبهم . لأنّ الأمر المهم هو إصلاح القلب ، وعمل الله مع القلب . ويجب أن يعرف الشاهد ما يمرّ في قلوب الآخرين ليؤدّي شهادته في القيامة على ما مضى في قلوبهم . ويجب أن يعلم الشاهد ما يحصل في نفوس الآخرين ليكون مطّلعاً في القيامة ويؤدّي الشهادة على ما يحدث في نفوس الآخرين . وما قاله الله بأنّ القلب هو معيار الصلاح والفساد ، فالمعيار هو ما يعطي له القلب مكاناً فيه ، وليس في ذلك شك . قال في سورة البقرة : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾[1] فذلك الذي كسبته قلوبكم كان زاد طريق قلوبكم تكون المؤاخذة به . إذن معيار كون العمل ذنباً هو النيّة ، وتوزن الأعمال بالنيّات . وقال في كتمان الشهادت الصورية والعلم الحصولي : ﴿ **ومَن يكتمها فإنّه آثم قلبه** ﴾[2] فمن كان يعلم بموضوع ولم يحضر في محكمة العدل الإسلامي لأداء الشهادة فقد أثم قلبه وكان مذنباً . والقلب هو الذي يعصي والجوارح إنما هي أدوات العمل ، روح الآدمي هي المجرم الواقعي واليد والرّجل أدوات الروح . المذنب الحقيقي حقيقة الإنسان وأعضاؤه وجوارحه أدوات الذنب . ولهذا عندما تتكلّم الأعضاء في يوم القيامة فقد عبّر عن كلامهم بالشهادة وتكون هي شاهدة . ويقول الإنسان لجوارحه وجلده : ﴿ **لم شهدتم علينا** ﴾[3] فعُلِمَ بأنّ حقيقة الإنسان هي المجرمة ،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣ .

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١ .

ويد الإنسان ورجله منفصلة عن حقيقة الإنسان . فمثلاً إذا كانت اليد مذنبة وتكلّمت في ذلك اليوم فإنّه سيكون إقرار واعتراف لا شهادة . والفرق بين الإقرار والشهادة هو أنه إذا تكلّم المتهم وقبل الحادثة وصدّقها فيكون هذا إقراراً . بينما إذا بيّن الحادثة شخص آخر فهذه شهادة . واليد والرجل لا تعترف وإنّما تؤدّي الشهادة . فعُلِمَ بأن المسؤول والمذنب والمجرم شخص آخر ، النفس هي المجرمة ، القلب هو المذنب ، والروح هي التي تعصي لا الأعضاء والجوارح ﴿ **ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه** ﴾[1] القلب هو الذي يذنب ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾[2] . فروح الإنسان هي التي تعصي واليد والرِّجل إنما هي أدوات العمل . وهذه الأدوات تشهد على المتّهم في القيامة بينما الروح تعترف في القيامة ﴿ **فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾[3] مع أنّه ورد في بعض التعبيرات الدقيقة بأن أرواحهم تشهد عليهم . ولكن المراد بشهادة الروح ظاهراً شهادتهم الحضورية ، تأتي أرواحهم بشكل تكون شاهدة نظير ﴿ **شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾[4] وبتعبير بعض الحكماء الإلهيين : إذا جاءت بواطن الأفراد في القيامة بصورة أخرى فهذا التمثّل بصورة الحيوان مثلاً شهادة . وهذا البحث مستقل عن بحثنا . وإذا كان معيار الفساد يتلخص في الروح ، وإذا كان الإمام عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله شاهدين للواقعة ، وإذا كان النبي في القيامة شهيد المحكمة ، إذن فهؤلاء مطّلعون على بواطن الأفراد في الدنيا ومستحضرون لنفوس الناس . فكل ما يمر على روح الإنسان فإمام العصر مطّلع عليه . وكل ما يخطر في زوايا ذهن أحد فيقيناً الله يراه ، فهو من شهداء الأعمال ﴿ وقل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.
(٣) سورة الملك، الآية: ١١.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٧.

اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾[1] فالأئمة يرون وكذلك المؤمنون الطاهرون والخالصون الذين طووا من مسير الشهادة على الأعمال بمقدار تنقية بواطنهم . ويجب على الإنسان إما الوصول إلى حدٌ يكون فيه يرى الباطن ، أو على الأقل الوصول إلى حدٌ بحيث يرى أنه في حضور الناظرين إلى البواطن ، فإما أن يصل إلى مقام لا يكون فيه مطّلعاً على نفسه فحسب بل يكون فيه مطّلعاً أيضاً على نفوس وبواطن الآخرين فيكون هو الشاهد ، أو على الأقل يكون قد طوى من خط الشهادة بمقدار وصل فيه إلى درجة يرى أنه في حضور الشهداء والشاهدين . يرى أنه في حضور إمام الزمان ، يرى جميع أحواله وحركاته وأخلاقه وعقائده في مشهد ولي الله . إذن الشاهد هو مَن كانت له الإحاطة على مركز فساد أو صلاح الأعمال والذي هو القلب . وإنما يصل الإنسان إلى هذا المقام الذي يكون فيه تحت ولاية مقلّب القلوب عندما تصل روحه إلى حدٌ تكون أرواح الآخرين تحت إشرافه الوجودي وتكون فيه قلوب الآخرين تحت إحاطته الحضورية . وقد وصل رسول الله والأئمة المعصومين عليهم السلام إلى هذا المقام . ووصل عيسى المسيح سلام الله عليه إلى هذا المقام أيضاً . كما قد بيّن قسم من هذا البحث في الجلسة السابقة .

يقول الله تعالى حول عيسى المسيح سلام الله عليه : يكون عيسى المسيح في يوم القيامة شاهداً على الآخرين : **﴿ وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾**[2] يكون عيسى المسيح سلام الله عليه في يوم القيامة شاهداً على أعمال أمّته . وما يمرّ في نفوس المسيحيين يكون روح الله مطّلعاً عليه ، وما مرّ منذ صدر المسيحية

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥ .
(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٩ .

فإنّ المسيح مطّلع عليه . فالمسيح سلام الله عليه ينظر إلى عقائد الرهبان وأخلاق النصارى وأعمالهم . يقول : يكون عيسى في القيامة شاهداً على هؤلاء . وما لم يكن يرى في حين تحمّل الشهادة فإنّه سوف لن يكون شاهد صدق في القيامة ظرف أداء الشهادة . وإنما تكون الشهادة واضحة حينما يكون لها مرحلة تحمّل ومرحلة أداء . فإذا لم يكن روح الله يرى في أثناء أداء العمل فكيف سيؤدّي الشهادة في المحكمة الإلهية ؟ ﴿ **ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً** ﴾[1] فهل تكون الشهادات هكذا مخلوطة بالباطل والمخالفة أو سوف لا تكون مشوبة بابباطل أبداً ؟

هناك طريق للخطأ والمخالفة في الشهادات الحصولية التي تؤمن من استنتاجات التصور والتصديق . إذ من الممكن أن لا يكون انتقال المفردات صحيحاً وألا يقع التصديق في محلّه ، وإن كان لا يقع الخطأ في التصور وإنّما يقع دائماً في التصديق ، ولكن للخطأ طريق في العلم الحصولي . ومهما كان الشاهد عادلاً ومحفوظاً من الخطأ العمدي ولكن احتمال السهو والمخالفة موجود في الشاهد العادل . ولكن إذا وصل شخص إلى الشهادة الحضورية ورأى العمل فإنّه لا يقع في الخطأ والذنب قهراً . أمّا أنّه لا طريق للخطأ إليه فلأن متن الحادثة حاضرة وإنما يكون الخطأ في المورد الذي لا تنطبق فيه الصورة الذهنية مع الصورة الخارجية ويحصل الاشتباه ولكن نفس الخارج هو متن وجود الشيء فلا مجال للخطأ « ثبوت الشيء لنفسه ضروري » يكون الاشتباه حينما لا تنطبق الصورة في ذهن الإنسان مع المتن الخارجي ، ولكن نفس متن الحادثة الخارجية لها انطباق ذاتي مع نفسه ، والتعبير بالانطباق مسامحة ومتن العمل هو الذي يكون حاضراً لشاهد الأعمال لا صورة ذلك العمل . إذن فلا مجال للخطأ فيه كما أنّ الذنب أيضاً

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩ .

لا طريق له في ذلك المقام ، لأنّ الذنب إنما يكون في القوانين والمقررات الاعتبارية . في مسألة ما يجب وما لا يجب لا في الإحاطة الوجودية . ولا مجال في الإحاطة الوجودية ليجب أو لا يجب ، وبالنتيجة لا مورد للعصيان . وشهادة كهذه ليس لها ذنب كهذا ، ولا يكون هناك مخالفة كهذه في شهادة كهذه . ولهذا فقد عرَّف الله هذه الشهادة بأنّها ما كانت في صحبة الحق وقال : الذي له حق الشفاعة في القيامة هو من يكون شاهداً بالحق ﴿ **ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلاَّ من شهد بالحق** ﴾[1] ما عرفه الآخرون بعنوان الشفيع وجعلوا له احتراماً عبادياً وقالوا بأنّ له قيمة عبادية ليس له حق الشفاعة ، بالرغم من أنّ المشركين قالوا عن أصنامهم : ﴿ **هؤلاء شفعاؤنا** ﴾[2] ومَن له حق الشفاعة في القيامة فقط هو الشاهد والحاضر بالحق . ولا تجد المخالفة في شهادته ولا الغيبة في حضوره . فهنا الشهادة في مقابل الغيبة لا الشهادة في مقابل القسم أو الشهادة في مقابل الإقرار أو الشهادة في مقابل باقي الأمارات القضائية . فهنا الشاهد في مقابل الغائب مع أن الشاهد هناك إلى جانب المدّعي . هنا شهادة وحضور ، وبما أنّ الحضور واقعي لهذا فسيكون مصاحباً للحق ﴿ **إلاَّ من شهد بالحق وهم يعلمون** ﴾[3] وقال الله عن المسيح سلام الله عليه : إنّه في القيامة شاهد ونحضر من كل أمة شهيد وسنحضر رسول الله بعنوان شهيد الشهداء ﴿ **وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[4] والآخرون حاضرون ولكنّ حضورهم بمحضر النبي . وأي مقام أعلى من ذلك الذي ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن**

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤١.

المرسلين﴾[1] أي أنّ جميع الأنبياء وجميع الأمم مسؤولة ، ويكون الرسول الأكرم في ذلك اليوم شاهد الكل ﴿**إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً*وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾[2] فهو شاهد الكل أي أنَّ رسول الله حاضر في ما مرَّ في عالم البشرية وما يمرّ ، وهذا أبرز خط للأسوة وأكمل خط للرسول الأكرم حيث عرَّفه الله بأنّه أسوة وقدوة ، والقرآن ليس كتاب مدح وثناء ، بل كتاب تربية وهداية . فإذا كان الله قد سمّى رسول الله أسوة في هذا الكتاب وعرَّفه بأنّه الشهيد المحض فمعناه اقتدوا بخط الشهيد لتكونوا شهداء ، وهو يقول للبشرية : إلى متى أنتم غائبون ؟ إلى متى أنتم مختفون ومحجوبون ؟ إلى متى تظلّون جاهلين بأنفسكم وبالآخرين ؟ إلى متى تبقون في حجاب أنفسكم « أنت بنفسك حجاب نفسك فانهض يا حافظ من هذا السبات » وحتى تكون شاهداً يجب أن تنهض من حجاب نفسك ، أزح ستار نفسك بنفسك لتكون حاضراً وشاهداً ، فليس على أسرار العالم ستار ، وإذا كان هناك حجاب فقد أسدل في مقابل وجوه المذنبين ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾[3] يُقال في القيامة : لقد أزحنا الستارة التي أرخيت عليك ، وهذا ليس بمعنى إنّا قد وضعنا ستاراً على أسرار العالم وقد أزحنا الستار الذي كان مرخياً عليك قال : ﴿ **أعينهم في غطاء** ﴾[4] أي أنّ عيونهم في حجاب وغلاف الذنوب وإلاّ فلو كانت آيات الله في العالم محجوبة وغير واضحة لما كانت آية ، وإذا كانت الممكنات مستورة لم تكن علامة ، والشيء المحجوب ليس علامة للشاهد ، والشيء المخفي ليس علامة على المستور . وإذا كان جميع العالم آية لله وإذا كان في العالم آيات كثيرة ، إذن

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦.
(٢) سورة الأحزاب، الآيتين: ٤٥ ـ ٤٦.
(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠١.

فلا يوجد ستار في العالم ، ولا يوجد غيب في العالم . وهذا الإنسان هو الغائب ، الإنسان هو البعيد ، الإنسان هو المحجوب . ويعتبر القرآن بعض الناس محجوبين ولكن هذا الحجاب غير مرئي ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً** ﴾[1] والحجاب والمانع على قسمين : الأول : حجاب مستور ، والآخر : حجاب ظاهر ومكشوف . فالستار الجسماني حجاب ظاهر ، أي أن جميعنا نعلم أنّ هذا الستار مادي ، أو أنّ ذلك الحائط الخارجي حاجب ولكنه حجاب واضح . ولكن الذنب حجاب والمخالفة حجاب ، وسوء المعاملة حجاب ولكنّه حجاب مستور ، والمستور في الآية لا بمعنى الساتر بل بمعنى أنّه بنفسه مستور . وهذا الحجاب لأجل أنّ الآخرين لا يعلمون بأنّ الغفلة والذنب حجاب ، الخيال السيىء ، خيانة العين ، خيانة القلب حجب ، وهي لا تدع الإنسان يخرج من الستار الخارجي ويرد الساحة ويكون شاهداً . وبناءً على هذا فكل من كان خلف الستار ليس في خط شهادة النبي أبداً . ومن كان محجوباً كيف يكون في طريق الرسول الأكرم ﷺ ؟ ﴿ **إلاّ من شهد بالحق وهم يعلمون** ﴾[2] إحدى أهم الطرق من أجل أن لا يحوك الإنسان ستارة ويضعها على عينه الباطنية هو أن يكون ملتفتاً لجلساته ، ولا يشترك في المكان الذي ليس فيه حديث حول الله والقيامة والمعاد والوحي والدين ، ولا يحضر في المكان الذي يُتّخذ فيه الدين لهواً ولعباً ، ولا ينطق بكلام ليس فيه رضا الله ، ولا يسمع الكلمات التي ليست في مسير الوحي الإلهي ولا يصغي لها . فليس للإنسان حق أن يقول كل ما يشتهي ولا هو مأذون في أن يذهب إلى أي مكان يشاء ويجلس فيه . يجب أن يسيطر على جلساته ،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٥ .

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٦ .

ويكون مشغولاً إما بإزالة الحجب والستائر أو بالدرس والبحث والتفكير والتعلّم ، أو بتهذيب النفس وتزكيتها والرؤية الباطنية والبحث الباطني والرياضات الصحيحة ومجاهدات جبهة الجهاد الأكبر . والتعبير الرفيع لصدر المتألهين رضوان الله عليه في شرح أصول الكافي هو : هناك ستارة مرخاة أمام عين الإنسان وقد صارت حجاباً لا يتّضح ما خلفها فما لم تزح هذه الستارة جانباً فلن ترى ما خلفها وهنالك طريقان لإزاحة الستار جانباً وإزالة هذا المانع ، ويمكن أيضاً الجمع بينهما ، فإمّا أن يسعى الإنسان للنهوض ويحرّك رجله ويده ويذهب باتّجاه الستارة ويزيحها بيده وينظر إلى ما خلفها ، أو أن يكون التوفيق الإلهي من نصيبه فيستنشق نسيماً ويزيح الستار دون أن يحرّك يداً أو يخطو قدماً ويتّضح له ما خلف الستار . أما عن طريق المدرسة أو طريق المعرفة أما الطريق الحصولي أو الطريق الحضوري فرغم أن قيل المدرسة ومآلها أثره قليل وطريق المعرفة ثقيل ، ولكن يجب على الإنسان أن لا ينصرف عن تحصيل العلوم الحصولية بحجّة الأثر القليل للمدرسة ، أو يُخلي عاتقه من مسؤولية تهذيب النفس بحجّة صعوبة طريق المعرفة . فإذا استطاع أن يتعلّم المعرفة في المدرسة ويمزج الحصول بالحضور ويخلط الشهود مع الكلام والسماع فما أسعدها ، لأنّ ما يستطيع نيله بالشهود يستطيع الحصول عليه بالعلم الحصولي . فإذا لم يمكن فأحد هذين الطريقين ، فإما يزيح ستار الغفلة جانباً بالجهد والسعي ويزيل الحجاب ويرى الأسرار العالمية التي هي جميع الآيات الإلهية . أو يسعى أن يجعل نفسه في معرض النسيم « ألا أنّ لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها ولا تعرضوا عنها » فإمّا أن يكون عالماً بالنسيم فيعلم من أين يهبّ النسيم ومتى يجيء ليجعل نفسه في معرض النسيم ، فيحبّ ذلك النسيم ويزيح الستار جانباً وينظر هو إلى ما خلف الستار . فيرى العالم كلّه مشغولاً بثنائه ،

ويسمع الكل مشغولين في توحيده وليس بني آدم فحسب ، ثم يسمع ﴿ وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ﴾[1] ويسمع : ﴿ يسبّح لله ما في السماوات وما في الأرض ﴾[2] فإذا أزيح الستار بنسيم السعادة الإلهية فلا حاجة حينئذٍ إلى حركة اليد والرجل .

ترجمة شعر :

لماذا أمدّ يدي وأتعب رجلي وعندي سيد يرضى بي دون القيام بعمل .

فإذا لم تكن تلك الهمّة العالية وتلك السعادة الكاملة ميسورة فلا أقل من اتّباع طريق التفكير وطريق الدرس والبحث وطريق العلم الحصولي ، حركة الرجل ومدّ اليد وفي نهاية المطاف الذهاب إلى الستار وإزاحته جانباً والنظر خلف الستار فيكون مطّلعاً على العالم ويتّحد صوته مع صوت العالم قائلاً : ﴿ ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[3] . وكان رسول الله ﷺ متّبعاً لهذا الطريق ، وكان يرى به جميع العالم ، وينظر فيه إلى جميع البشر أيضاً ، وكانت جميع أسرار العالم بالنسبة إليه علنية ، لم يكن له غيبة لأنّه كان حاضراً ، ولا غفلة لأنّه كان شاهداً ، ولم يكن له حجاب لأنّه كان ناظراً ، ولا ينسجم النظر مع الستار المرخي ، ولا الغفلة مع الحضور ، ولا الغيب مع الشهود ﴿ إنّا أرسلناك شاهداً ﴾ ليس فقط بعنوان الأنموذج بل إنّك شاهد على جميع الأنبياء والأمم ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[4] ومن أجل أن نطوي خط

---

(١) سورة بني إسرائيل، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الجمعة، الآية: ١ .
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤١ .

شهادته توجد عدّة طرق أحدها المواظبة على الجلسات . وقد أعطى الله أوامر من أجل الوصول إلى هذه الشهادة لكي يسير عليها سالكو طريق الشهادة . ولكي يطي هذا الطريق يروا على الأقل بواطنهم لكي يجدوا طريقاً شيئاً فشيئاً للإطّلاع على بواطن الآخرين وفهم ما يعمله الآخرون . قال الله تعالى رسوله ﷺ : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾[1] إذا رأيت مجموعة مشغولة في هتك آيات الله ولهم جلسات لا تنسجم مع المذهب السماوي ، ولهم حديث مخروج بالإهانة حول الوحي الإلهي ، ولا يعترفون بقوانين السماء ، ويهينون الأنظمة الإلهية ، فلا تجلس في ذلك الحفل ولا تشترك به ، واعرض عنهم حتى يغيّروا حديثهم ويتحدّثوا في موضوع آخر ، وإذا نسيت مرة واشتركت معهم فلا تجلس بعد الذكرى معهم لأنّهم قوم ظالمون ﴿ **مع القوم الظالمين** ﴾ والجلوس إلى الظالمين حجاب عظيم لأنّ ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[2] وحيث أن الظالم في حجاب ﴿ **قلوبنا في أكنّة** ﴾ فيوجد بينك وبين هؤلاء حجاب لا مرئي . ورغم أنّ الخطاب لرسول الله ﷺ ولكن الأمر راجع للأمّة ، لأنّ رسول الله لا يشترك أبداً في مثل هذه الجلسات ، يقول الله : ﴿ **فلا تقعد بعد الذكرى** ﴾ . وما قاله « قانون إسلامي » وهو عدم الاشتراك في مثل هذه الجلسات فأصله في سورة النساء والذي هو خطاب إلى الناس ، هكذا خاطبهم : لا تشتركوا في جلساتهم أبداً إذا كان أهل الجاهلية والآخرون يستخفّون بآيات الله فليس لكم حق الحضور في جلساتهم ﴿ **وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها**

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٦.

ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾[1] وقد قلنا لكم سابقاً أن لا تشتركوا في مثل هذه الجلسات ، وقد خاطب الله فيما سبق رسوله لا الناس . وللأستاذ العلاّمة الطباطبائي رضوان الله تعالى عليه بيان دقيق يقول : عندما نجعل هاتين الآيتين إلى جانب بعضهما فإنّهما يعطيان معنى : أنّ كلما كان الخطاب موجّهاً إلى رسول الله ﷺ فإنّ الأمة مرادة به لأنّ الله يقول في سورة النساء : لقد قلنا لكم سابقاً أن لا تشتركوا في مجالس الباطل ، في الوقت الذي لا توجد في القرآن آية غير الآية التي في سورة الأنعام والتي تمنع من الاشتراك في الجلسات التي يستهزأ بها بآيات الله . إذن آية سورة الأنعام والتي كانت خطاباً موجّهاً لرسول الله ﷺ في عدم الاشتراك في مجالس الباطل كانت ناظرة الأمّة ، لأنّه قد قال في سورة النساء : لقد قلنا لكم سابقاً أن لا تشتركوا في مجالس المعصية وقال : إذا حضرتم في مجلس الملوّثين وهم يخوضون في آيات الله بسخرية واستهزاء ويكفرون بها وينكرون الوحي السماوي فإذا اشتركتم معهم فـ **﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾**[2] والله يجمع الذين يشتركون في كلا المجلسين من أجل حفظ ظاهر منافق يجمعهم مع الكفار في مكان واحد **﴿ إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً ﴾**[3] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة النساء، الآية : ١٤٠ .

(٢) سورة النساء، الآية : ١٤٠ .

(٣) سورة النساء، الآية : ١٤٠ .

الدرس
الرابع
والعشرون

خصوصيات النبي الأكرم ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمّد وآله الطاهرين .

ميلاد خاتم الأنبياء ﷺ الذي هيّأ الأرضية لبعثته من أكبر النّعم الإلهية . ويجب أن يبيّن القرآن الكريم الذي هو كلام الله المقام الشامخ لرسول الله ﷺ أو يقوم ولي الله الذي هو بمنزلة نفس الرسول الأكرم بتوضيح مقام رسالته صلوات الله عليه . ولا يستطيع أحد غير القرآن وكلام المعصومين عليهم السلام أن يعبر عن مقام رسالته الكامل . وعندما يبيّن الله بعثة الرسول الأكرم يسمي ذلك المقام منّة ﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم** ﴾[1] نعمة عظيمة تحمّلها وهضمها عسير سماها منّة . ولا يطلق الله على النّعم المادية اسم المنّة ، ولكنه سمى بعثة النبي الأكرم ﷺ منّة على المؤمنين لأنَّ الرجال المؤمنون يقبلون رسالة الرسول الأكرم وبمقدار درجة إيمانهم ﴿ **لهم درجات** ﴾[2] ينتفعون من هذه النعمة

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٦٤ .
(٢) سورة الأنفال، الآية : ٤ .

اللامحدودة ، لأنّ كل إنسان بنفسه درجة . وبالرغم من أنّ القرآن الكريم قد نظّم درجات للمؤمنين ﴿ **لهم درجات عند ربّهم** ﴾ للذين آمنوا درجات عند ربّهم بحسب القرب . ولكنه يقول في سورة آل عمران : ﴿ **هم درجات عند الله** ﴾[1] أي أنّ كل مؤمن بنفسه درجة من درجات الكمال الوجودي ، فوصل المؤمنون بأنفسهم إلى منازل بحيث أصبح كل منهم عين الدرجة ، لا أنّ الدرجة هي مقام اعتباري تعطى للمؤمنين ، بل الدرجات الوجودية والكمال سلسلة من الحقائق وسيصل المؤمنون إلى تلك الحقائق التكوينية بطي تلك المراحل ، وبالنتيجة يصير هو عين الدرجة ، وفي مثل هذه الآيات لا حاجة إلى تقدير حذف حرف اللام . ونظائره فنقول أن المراد للمؤمن درجة ، بل نفس المؤمن هو مظهر لاسم من الأسماء المباركة لله حتى نصل إلى أعلى درجة ومقام الذي هو المقام الشامخ لخاتم الأنبياء ﷺ وإذا كان للآخرين درجات متوسطة فإنّ لرسول الله ﷺ أعلى درجات عالم الإمكان ، أي أنّه بنفسه مظهر الاسم الأعظم ، والاسم الأعظم ليس لفظاً حتى يستطيع شخص بأخذ ذلك اللفظ ومزج تلك الحروف والكلمات التأثير على نظام العالم ، وبتعبير الأستاذ العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه قد رتّب عالم الوجود على أساس نظام العلّة والمعلول فلا يمكنْ لأحد التأثير على نظام الخلقة بحرف أو كلمات أو بمعان اعتبارية أعطيت لهذه الكلمات، أي أن يأتي بمعجزة فيحيي الموتى ، ويُخبر عن الغيب ، ويطّلع على بواطن الأفراد . واصطلاحاً لا يقال للفظ والكلمة اسم سواء كان الاسم الأعظم أو الاسم غير الأعظم ، وإنما الألفاظ والكلمات اسم الاسم ، وهذه الأسماء وضعية وجعلية ولكن الأسماء الحسنى الإلهية تكوينية لا جعلية ، والاسم الأعظم هو أعلى مقامات عالم الإمكان حيث وصل رسول الله ﷺ بنفسه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣ .

إلى ذلك المقام ، لا أنّ الاسم الأعظم حرف أو كلمة أو كلمات يُستطاع بواسطة تلفظها وتنظيم حروفها وأدائها إيجاد عمل خارق للعادة في العالم أو خلق شيء ويكون علّة لأمر تكويني ، لأنّ نظام العلّة والمعلول أسمىٰ من أن يكون بحيث يؤثّر فيه مجرّد كلام وأن يؤثر على الحقيقة الخارجية بكلمات موضوعة ، بل الذي يؤثر ويكون سبباً في ظاهرة عينية هو موجود تكويني ، وتلك الروح السامية لولي الله والروح العالية للرسول الأكرم ﷺ الذي هو بنفسه درجة وجودية في عالم الخلقة ﴿ هم درجات ﴾ وهو اسم من الأسماء الحسنى للحق ، بل الاسم الأعظم للحق الذي هو مبدأ جميع هذه الفيوضات التكوينية للأوصاف الذاتية لله سبحانه ، لأنّ جميع الأسماء الفعلية لله سبحانه ستنتهي إلى تلك الأوصاف الذاتية . وعلى هذا يكون الرسول الأكرم ﷺ هو الاسم الأعظم ومقامه أعظم المقامات . وبما أن أعظم الأسماء التكوينية الإلهية هو ذلك المقام فتحمّل ذلك المقام غير مقدور للآخرين . ومن هذه الجهة ذكرت نعمة الوحي والرسالة بعنوان المنّة . وينتفع المؤمنون كل بمقدار درجته الوجودية من ذلك المقام ، ويحصلون بذلك المقام المعرفة والإيمان ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾[1] . وإذا كان الله قد عبّر عن الأنبياء الآخرين بتعبير الأخ وقال : أرسلنا إليكم أخاكم نبياً فقد عبّر عن الرسول الأكرم ﷺ بتعبير النفس وقال : ﴿من أنفُسهم﴾ إلاّ أن بعضهم قرأها : «مِن أنفَسِهم» أي لقد اخترنا رسولاً من أغلى الناس وأنفَسهم ، وعلى أي حال فالرسول الأكرم ﷺ من أنفُس الناس حيث أنّ تعبير ﴿ أنفسهم ﴾ أسمىٰ من تعبير ﴿ أخاهم ﴾ الذي ورد عن الأنبياء الآخرين ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾[2] وعمل

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٦٤ .

(٢) سورة آل عمران، الآية : ١٦٤ .

الرسول الأكرم ﷺ هو تلاوة آيات الله على الناس وعلى المؤمنين، ويزكيهم في ظل تلك الآيات ﴿ ويزكيهم ﴾[1] ويمنحهم نموّهم ورشدهم فينفتحون على عالم الطبيعة ويحررهم من كل ألوان عبادة الأوثان ويوقظهم فيصيرون أرفع من السماوات والأرضين ﴿ ويعلّمهم الكتاب والحكمة ﴾[2] ويعلّم الناس الكتاب الإلهي الذي هو مجموعة من القوانين السماوية وتلك القوانين محكمة والمستدل عليها في الحكمة التي تعلم الناس أن « رأس الحكمة مخافة الله »، سواء الحكمة العملية أو الحكمة النظرية سواء إحكام الفكر وإبداء النظر المتين أو إحكام العمل ﴿ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾[3]. إذن أولاً: عندما يُعبّر الله عن رسالة النبي بالمنّة فإنّ معنى ذلك أنّ تحمّل نعمة البعثة ليس في مقدور الآخرين. ثانياً: كل واحد من المؤمنين يتقدم إلى هذا المقام ويكون معتقداً به بمقدار درجة وجوده. ثالثاً: حمل حقيقة هذه الرسالة ليس في استطاعة أحد غير رسول الله ﷺ، والمعرفة الكاملة للرسالة تكون بعاتق مَن كان بمنزلة نفس رسول الله ﷺ. وقد فصّل القرآن الكريم الخطوط الكلية لرسالة خاتم الأنبياء ﷺ وقال: ﴿ يا أيها النبي ﴾[4] ويجب الإلتفات هنا إلى دقة الخطاب القرآني فإنّ الله تعالى لم يخاطب رسول الله باسمه أبداً بينما خاطب الأنبياء الآخرين بأسمائهم نظير يا داود ويا موسى ويا عيسىٰ وأمثال ذلك، ولكنّه خاطب الرسول الأكرم ﷺ بـ ﴿ يا أيها النبي ﴾ و ﴿ يا أيها الرسول ﴾ ﴿ يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً * وداعياً إلى الله

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] . يا أيها النبي لقد أرسلناك شاهداً لأنّه يقول : لقد أرسلناك إلى البشرية جميعاً ﴿ **وما أرسلناك إلاّ كافة للناس** ﴾[2] ، أو ﴿ **وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين** ﴾[3] وقد بيّنت عالمية رسالته صلوات الله عليه مع أصل بعثته قال : إنك مبعوث إلى جميع المجتمعات البشرية في مطاوي الأرض وفي صدر الزمان ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾[4] فليس هناك أي بشر بعيد عن منطقة رسالتك وحدود بعثتك وليس هناك أي عصر خارج ومستثنى من شمول رسالتك وبعثتك . أنت رسول إلى العالمين ، وأنت مبعوث إلى جميع المجتمعات البشرية على طول التاريخ ، وستكون الشاهد العام ، فالنبي انموذج وأسوة وهو أيضاً حاضر وناظر ويرى أيضاً جميع عقائد وأخلاق وأعمال البشر ويكون في القيامة شاهداً عليهم وسيؤدّي الشهادة التي تليق بهذه الموضوعات ، كيف يعلم رسول الله ﷺ بما يخطر في قلوب الناس ؟ وكيف يصل الإنسان إلى درجة يفهم معها ما يخطر في أذهان ونفوس الآخرين ؟ وكيف يطّلع ويدرك إنسان بواطن جميع الناس على طول التاريخ ليشهد في القيامة على الحوادث والضمائر ؟

وبتعبير علي بن أبي طالب سلام الله عليه الذي هو بمنزلة نفس الرسول الأكرم ﴿ **وأنفسنا وأنفسكم** ﴾ وكذلك بتعبير نفس النبي : رسول الله شاهد ساحة المحكمة في القيامة « شهيدك يوم الدين »[5] . فرسول الله يشهد في القيامة على أعمال جميع الناس . وإذا لم يكن يرى اليوم عقائد وأخلاق وأعمال جميع البشر ولم يتحمّل العلم بها فكيف يشهد غداً ؟ وإذا لم يكن

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتين: ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٨ .
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧ .
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٧ .
(٥) نهج البلاغة: صبحي الصالح، ص ١٥١ و ١٥٣ .

يرى اليوم فكيف سيكون شاهداً غداً في محكمة عدل الله ؟ فأداء الشهادة مسبوق بتحمّل تلك الحادثة ، ولم يعتبر الله رسوله أسوة وانموذجاً وقدوة وحاضراً في الساحة فقط بل أطلق عليه اسم الشاهد على جميع المجتمعات البشرية ﴿ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً ﴾[1] مبشراً لمجموعة يؤمنون برسالته ويتحركون مقتفين أثره ، ومنذراً مجموعة ينكرون رسالته ولا يتّبعون طريقه ، وداعياً الناس إلى الله ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾[2] وهذه هي البعثة . وذلك الذي يدعو الناس بإذن الله إلى الحق مبعوث . قال القرآن على لسان رسول الله : ﴿ ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومَن اتّبعني ﴾ أنا أدعو الناس إلى الله على بصيرة ووضوح ، وهذا هو الصراط المستقيم حيث الرسول الأكرم ﷺ في أريكة هذا الصراط ، أي صراط الدعوة إلى الله ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنّك لمن المرسلين * على صراط مستقيم ﴾[3] ذكر الله قسماً مؤكّداً فقال : إنّك يقيناً على الصراط المستقيم مع أنّ الصراط المستقيم أدق من الشعر والقليل من العابرين يستطيعون العبور من ذلك الطريق ، وأحدّ من السيف وقليل من الشجعان والأبطال يستطيعون تحمّل ذلك . ومن يطوي ذلك الطريق بشكل صحيح ويتحمّل أيضاً حدّته ومصاعبه فهو من أشجع الناس ، وأشجع الرجال من استطاع أن يغلب هواه في الجهاد الأكبر ، فهو يستطيع المرور على شفرة سيف الصراط المستقيم . ويستطيع العاقل العميق التفكير وصاحب الرؤية الدقيقة أن يشتق الموضوعات كما تشق الشعرة الرفيعة . ويستطيع أن يفهم أهل الشعور والفكر والذكاء بدقة الشعر ما هو الصراط المستقيم . والعقل النظري ضروري ليستطيع الإنسان في ضوئه أن يفكر بدقة الشعر ، والعقل العملي ضروري ليصل الإنسان في

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥ .
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦ .
(٣) سورة يس، الآيات: ١ ـ ٤ .

ضوء ذلك إلى درجة من الشجاعة بحيث لا يخشى معها شفرة السيف الحادة . ولا توجد فيه تلك الحدية والقاطعية أي خوف حتى يطوي ذلك الصراط ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾[1] رسول الله ﷺ بنفسه صراط مستقيم . وإذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام قد عبّر عن رسول الله ﷺ بالصراط الواضح فلأجل أن النبي ﷺ كان على الصراط المستقيم وهو الصراط المستقيم . وهذا الطريق ليس مكانياً ليكون العابر غير الطريق ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾[2] هذا الطريق ليس طريقاً سماوياً أو أرضاً ليكون السالك غير المسلوك ، وهذا الطريق ليس طريقاً أرضياً ليكون أهل الأرض غير الأرض ، بل هذا الطريق داخلي وهو ليس شيئاً غير النفس . السالك هو الطريق ، وصاحب الدرجة هو الدرجة ﴿ هم درجات ﴾[3] وإذا اتّبع الإنسان تعاليم الله سيكون بنفسه صراطاً مستقيماً ، وبنفسه ميزان الأعمال ، وهكذا هم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ﴿ إنّك لمنَ المرسلين * على صراط مستقيم ﴾[4] ولهذا قال الله : لقد أرسلنا رسول الله داعياً إلى الله . وإذا كان القرآن قد رغّب البشرية وأمرها أن تستمع إلى أقوال المذاهب المختلفة ورسالات الرسل واتّباع أفضلها فقد أطلق أحسن الرسالات قال : ﴿ فبشّر عباد * الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ﴾[5] وأحسن الأقوال هو قول من دعا الناس إلى الله ﴿ ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين ﴾[6] أفضل الأقوال قول من دعا الناس إلى الله وهو مؤمن بهذه الدعوة ويطبق تلك الأقوال في مقام العمل ، وذلك

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦ .
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٥ .
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣ .
(٤) سورة يس، الآيتين: ٣ ـ ٤ .
(٥) سورة الزمر، الآيتين: ١٧ ـ ١٨ .
(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٣ .

الإنسان الكامل هو رسول الله ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] يقول الله : لقد أرسلناك سراجاً وهّاجاً لتهب النور إلى المجتمع ، وتضيء قلوب الآخرين ، وتُنجي البشرية من الظلمات ، إنّك سراج منير تهب النور لنفوس الناس لأنك مبشّر ﴿ وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾[2] وإذا كان رسول الله هو الصراط المستقيم ويدعو الناس إلى الله ، وإذا كان رسول الله شاهداً ومبشّراً ونذيراً وسراجاً منيراً فإنّ تحمّل هذه النِّعم ليس ميسوراً للمؤمنين العاديين فتحمّل هذه النعمة يحتاج إلى قدرة عظيمة ، ولهذا عبّر القرآن عنها بالمنّة قال : ﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنين ﴾[3] فهل يستطيع الإنسان الوقوف في مقابل ضياء كل مصباح إلاّ إذا كان قادراً على رؤية كل نور ؟ وهل تستطيع كل أذن سماع كل صوت وحديث ؟ وهل كل روح وعاء لكل موضوع « أنّ هذه القلوب أوعية فخيّرها أوعاها » وقد وصل رسول الله ﷺ إلى منزلة رفيعة بحيث عندما يريد الله أن يُرسل سلاماً له يذكر سلام جميع الملائكة إلى جنب سلامه ويراهم شركاء في ذلك السلام المرسل . وعندما يريد الله أن يعظّم منزلة رسوله يقول : لستُ أنا فقط أرسل صلواتي ورحمتي لرسولي بل جميع الملائكة يفعلون ذلك أيضاً ﴿ إنَّ الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً ﴾[4] وقد عرَّف الله لنا رسوله بهذه العظمة بحيث اعتبر نفسه وجميع ملائكته وعباده المخلصين شركاء في هذه الصلوات والرحمة . قال : إنَّ الله وملائكته جميعاً يسلّمون على الروح الطاهرة للرسول الأكرم وأنتم أيها الناس راعوا هذه الآداب وسلّموا عليه . ونحن أيضاً نهدي أفضل الصلوات

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦ .

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٧ .

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤ .

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦ .

للروح الطاهرة لخاتم الأنبياء وأهل بيته الكرام . وعندما يريد الله أن يعرّف رسوله الأكرم يقول عنه إنه ليس شخصاً ذهب إلى المكتب وتعلّم عند بشر . لم يعلّم أحد رسول الله ﷺ بل علّمه الله فقط . وما علّمه الله لرسوله لم يكن عن طريق العين والأذن بل كان عن طريق الروح والقلب . ففي العلوم الحصولية التي هي زاد طريق المذاهب البشرية تسمع الأذن أولاً وبعد ذلك يفهم الفكر ذلك المفهوم ، أو تنظر العين أولاً إلى صفحة الكتاب وحينئذٍ يفهم الفكر ذلك المفهوم ، ولكن الذي يحصل لرسول الله ﷺ هو أن تشاهد روحه أولاً ثم ترى عينه وتسمع أذنه ﴿ **نزل به الروح الأمين * على قلبك** ﴾[1] إذا أنزل ملك الوحي والرسالة الإلهية القرآن على القلب المطهر للرسول الأكرم ﷺ فإنّ رسول الله ﷺ يرى حقائق القرآن بروحه أولاً ثم يسمع بأذنه الشريفة ألفاظ القرآن الكريم التي هي بنفسها معجزة وكلمات وسور وآيات القرآن الكريم التي هي عين المعجزة الإلهية . فألفاظ القرآن غيبية لا من صنع عالم الشهادة ومحتواه أيضاً غيبي لا من صنع عالم الملك . ويلهم النبي ﷺ محتوى القرآن ثم يسمع ألفاظه ويرى الوحي ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾[2] فأول اللقاء رؤية القلب ثم الرؤية بالعين والسماع بالأذن ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾[3] . وفي سورة النجم تفصيل لكيفية الوحي للرسول الأكرم ﷺ وفيها بيان لقسم من المعراج ﴿**فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾[4] أنه أي قرب قد وصل إليه رسول الله ﷺ ؟

---

(١) سورة الشعراء، الآيتين: ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٢) سورة النجم، الآية: ١١ .

(٣) سورة النجم، الآية: ١٧ .

(٤) سورة النجم، الآية: ٩ .

ترجمة شعر :

لقد ذهب بشكل وعاد أيضاً بنحو مما لا يتصور في ذهن أحد

كيف ذهب وكيف أتى ؟ هو الذي يعلم ، ومَن كان بمنزلة نفس رسول الله ﷺ أي علي بن أبي طالب عليه السلام يعلم ، وقد فصّل القرآن جوانب من هذه السفرة يقول : ﴿ **ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى** ﴾[1] أي أرسلنا وحياً على الروح المطهرة للرسول الأكرم ﷺ غير قابل للوصف ، فلا مكان هناك للوضع . وإذا لم يكن ذلك المقام مكاناً للوضع فعلمه لدني ، وليس العلم اللدني في رديف العلوم الأخرى ليكون لها محمول وموضوع . فعندما يكون العلم مأخوذاً من لدن ومن عند الله يكون لدنياً ، ولا مجال هناك للحديث عن الألفاظ ، وليس هناك قماش للكلمة ولا قميص للمقالة والكلمات والعقود والعربية والفارسية ، فمكان كسوة اللفظ مكان أدنى من اللدن ، ومكان العربية أنزل منه وإلاّ فذلك المقام ليس مقاماً للفظ ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ فما رآه القلب ليس كذباً ولم يقل كذباً ، بل رأى صدقاً . ويعتبر القرآن ذلك الإدراك الحضوري وذلك الشهود رؤية ، يقول عن إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ **وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض** ﴾[2] لقد أرينا إبراهيم روح العالم وصلة العالم بالمبدأ الذي يطلق عليه اسم الملكوت . وحينئذ حصل إبراهيم الخليل على تلك المعارف الغيبية بالشهود الباطني ، وتعتبر ثقافة القرآن ذلك الإدراك الحضوري وذلك

---

(١) سورة النجم، الآيات: ٨ ـ ١٧ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥ .

الإدراك الخاص رؤية . وقد رأى رسول الله ﷺ هناك حقيقة الوحي ، وشاهد إبراهيم الخليل سلام الله عليه ملكوت السماوات والأرض ، ومَن لم يكن له بصيرة باطنية ولا يرى مثل هذه المسائل ولم يحصل عليها فهو أعمى . ويسمى القرآن عدداً من الناس بالعميان فيقول : ﴿ **فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[1] عيونهم الظاهرية غير مصابة بالعمى بل قلوبهم هي المصابة بالعمى ، فتنظر العين إلى ما يجب أن تنظر إليه ظاهراً ، ولكن عين القلب التي كان يجب أن تغلي منطفئة ، وعين القلب التي كان يجب أن تكون فائرة مغلقة ، لأنّه ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾[2] فالعين المختومة والمسدودة لا تغلي ، والتنور المسدود الفوهة لا نار فيه ، والنبات المدفون تحت الأرض لا يعرش ﴿ **وقد خاب من دسّاها** ﴾[3] أي قد خسر من دفن نفسه ولم يدعها تتفتح وتنمو . وقد رأى رسول الله ﷺ بعين قلبه ذلك الوحي الذي لا يجري به اللسان ، وتلك الحقيقة التي لا يمكن أن يجري بها قلم ، والبنان والبيان عاجز عن شرحه ، وتعجز الأقوال والكتابات والفكر عن توضيحه ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾[4] وكل ما رآه فقد رآه صحيحاً ، رأى بشكل صحيح ورأى الأشياء الصحيحة أيضاً ، لأنّه بنفسه كان صحيحاً فيرى صحيحاً . ورسول الله ﷺ هو الصراط المستقيم . وليس في الصراط المستقيم اعوجاج وانحراف . وهذا هو طي الصراط وهذا هو الوصول إلى الهدف . فعين الارتباط مع الهدف اسمه الصراط ، وعين الارتباط بالله هو بنفسه ملكوت . ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ وحينئذٍ قال بعد عدة آيات ﴿ ما

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦ .
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٣) سورة الشمس، الآية: ١٠ .
(٤) سورة النجم، الآيتين: ١٠ ـ ١١ .

زاغ البصر وما طغى ﴾[1] وما رأته العين بعد رؤيته ببصيرة القلب لم يكن باطلاً ولا منحرفاً . فالناظر إذا لم يكن سالماً وكاملاً ربما ابتلي بالزيغ وربما ابتلي بالطغيان . وبما يرى الإنسان غير سالم العين الشيء أثناء الرؤية نصف وجهه أو فاتح اللون أو منحرف ، وربما لا يرى ذلك الشيء أصلاً بل ينظر إلى شيء آخر ، وبدل أن ينظر إليه ينظر إلى شيء آخر . الأول الزيغ والثاني الطغيان . وربما كانت عينا الإنسان سالمة بدرجة أنّه ينظر بشكل جيد ويعرف الهدف أيضاً بصورة جيدة بحيث يعرف إلى أي شيء ينظر وإلى أين ينظر فيرى ما يجب أن يراه ويراه بشكل صحيح أيضاً ، فهنا لم يتعد المرئي كما لم يقع زيغ وانحراف في الرؤية . وربما ترى العين المرئي ولكن رؤيتها تكون مع انحراف بسبب عدم سلامة العين ، أي أنّ مقداراً من المرئي ذهب جانباً ولم تره بصورة كاملة بل رأته فاتح اللون أو مظلماً ، أو ترى زاوية منه ولم تره بشكل صحيح ، أو لا فقد طغت وتجاوزت ورأت شيئاً آخر وظن ظاهراً أنّه رأى الهدف ، وبتعبير الأستاذ العلاّمة الطباطبائي ـ حَشَر الله تعالى روحه الشريفة مع الرسول الأكرم ﷺ والإمام الصادق عليه السلام فهذه أيام ميلاد الرسول الأكرم ﷺ وسادس الكواكب المضيئة في سماء الإمامة والعصمة عليه السلام ـ يقول : الزيغ هو أن يرى الإنسان الشيء على غير الوضع الذي له ، والطغيان أن يرى الإنسان شيئاً لا حقيقة له .

والخلاصة أنّه لا زيغ ولا طغيان في رؤية الرسول الأكرم ﷺ . فإنّه سيرى نفس الهدف لأنّه بنفسه صراط مستقيم ، ولأنّه بنفسة نهج قويم والزيغ والانحراف بعيد عن الصراط المستقيم ، ولا يتصور الطغيان في سبيل الله ﴿ ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربّه الكبرى ﴾[2] لماذا كان

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٧ .

(٢) سورة النجم، الآيتين: ١٧ ـ ١٨ .

النبي الأكرم ﷺ صراطاً مستقيماً ؟ لأنّه وصل من ناحية دقة الرؤية إلى مرحلة العقل الأول « ما كلّم رسول الله ﷺ العباد بكنه عقله » ، ووصل أيضاً من نظر الشجاعة إلى منزلة بحيث لا يوجد أي سبب للخوف والخشية في النفس الشجاعة للرسول الأكرم ﷺ ، لا أنّه يخاف ويصبر ، لا أنّه يخشى ويتحمّل ، بل ليس عنده أي شيء من الخوف ، وكما قال علي بن أبي طالب عليه السلام أيضاً : « لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها » . وعلى حد تعبير ابن مسكويه في كتابه المعروف طهارة الأعراق : لم يكن علي بن أبي طالب شجاعاً بل كان حقيقة الشجاعة . وقد تحققت حقيقة الشجاعة هذه من الرسول الأكرم ﷺ الذي هو عين الشجاعة . يقول أمير المؤمنين عليه السلام « كنّا إذا احمرّ البأس لذنا برسول الله ﷺ » فلا يوجد في القلب المطهّر للرسول الأكرم ﷺ أي خوف ولأنّه كان بنفسه صراطاً مرتبطاً بالله وقد قال الله له : ﴿ **فقاتل في سبيل الله لا تكلّف إلاّ نفسك** ﴾[1] إذا لم يكن أحد يعينك فقم في سبيل الله وحدك ، وإذا أصبح الجميع أعداءك فكن وحدك في الميدان ، وإذا تراصت القوات المسلحة عليك صفاً فقاوم وحدك ، وإذا لم يستجب أحد لصوتك فلا تترك الساحة ، وإذا لم يلبي نداءك أي مقاتل فلا تترك الميدان ﴿ **فقاتل في سبيل الله لا تكلّف إلاّ نفسك** ﴾[2] وهذه هي عين الشجاعة ، والشجاعة لا تقبل الخوف ، ومن الممكن أن يدخل الخوف إلى قلب الشجاع أحياناً ولكن لا تجتمع حقيقة الشجاعة مع الخوف . ومن الممكن أن يخاف الشجاع لأنّ الشجاعة لم تكن له إلى الآن درجة ولم يكن مظهراً للاسم الأعظم ومظهراً لله القدير . وإذا كان أحد مظهراً للاسم الأعظم ومظهراً لله القدير مثلما هو مظهر ﴿ **عليم بكل**

---

(١) سورة النساء، الآية : ٨٤ .

(٢) سورة النساء، الآية : ٨٤ .

شيء ﴾ فهو شهيد ، ويكون الشاهد العام على سطح الأرض ويكون مظهراً للقدير في صدر الزمان . ومظهر القدير لا يظهر الضعف ، ولا تحس القدرة بالعجز : ومن الممكن أن يخاف الشجاع العادي ولكن لا طريق للخوف إلى حريم وجود الرسول ﷺ الذي هو حقيقة الشجاعة وحينئذ قال : رغّب وحرّض المؤمنين من أجل تحقيق الأهداف الإسلامية ﴿ **وحرّض المؤمنين** ﴾[1] وحينئذٍ ﴿ **عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً** ﴾[2] على أمل أن يضع الله نهاية لحضور الأعداء وأن يُنهي ظلم الطواغيت ، واعتمد على هذا الأمل . وإذا وقف الغرب والشرق والروم وإيران في ذلك اليوم وباقي المشركين ووثني الحجاز والمنافقين يداً بيد وتآمروا عليك فقف أنت وحدك . . وهل يوجد علم لديكم عن وجود شخص واحد من وجهة نظر العقل العملي قد وصل إلى درجة من الشجاعة بحيث يحارب كل الدنيا ؟ كما أنّه من وجهة نظر العقل النظري أين يوجد خبر عن إنسان يكون شاهداً على باطن الأرض وصدر الزمان ؟ ﴿ **إنّا أرسلناك شاهداً** ﴾[3] ﴿ **وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين** ﴾[4] وقد كان ذو شجاعة قوية بحيث ﴿ **لا تكلّف إلاّ نفسك** ﴾ . وعندما كان رسول الله ﷺ يذهب إلى ميدان القتال كان جميع من يصحبه يحس بالأمان . وقد تعلّم علي بن أبي طالب عليه السلام هذا البيان من الرسول الأكرم ﷺ ، ولهذا يقول أمير المؤمنين عن الرسول الأكرم ﷺ : « الخاتم لما سبق ، الفاتح لما انغلق ، والمعلن الحق بالحق »[5] . ختم

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٤.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٥) نهج البلاغة: صبحي الصالح، ص ١٠١.

رسول الله ﷺ جميع ما مضى ، ختم النبوة وأوصل الرسالة إلى مرحلتها النهائية ، وارتقى الدرجات الإنسانية إلى ذروة الاسم الأعظم ، وفتح وسهّل كل موضوع مغلق وصعب ، ولا يوجد مقام أعظم من مقام رسول الله وإلاّ لجاء نبي آخر . ولا يوجد هدف أسمى من هدف خاتم الأنبياء ﴿ وأن إلى ربّك المنتهى ﴾[1] . وعلى حد تعبير صدر الدين القونوي في النصوص[2] في شرح آية ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ : يحشر الرسول الأكرم ﷺ بتلك المقامات العالية التي وصل إليها بنفسه ، وحشره يختلف عن حشر الآخرين أيضاً . وعلى أي حال فقد وضع نهاية لجميع الكمالات الماضية ، وفتح الطريق لحل جميع المشكلات والمسائل المستقبلية . ولا يوجد أي موضوع لم يحلّه الوحي السماوي النازل على الرسول الأكرم ﷺ . ولا توجد أي مشكلة نظرية لم تحل في ضوء عقل الرسول الأكرم ﷺ . ولا توجد أي مشكلة عملية لم تفتح في ظل حكمته العملية . أكمل عمل الماضين وفتح الطريق للآتين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة النجم، الآية: ٤٢ .

(٢) النصوص: ص ١٥ .

الدرس الخامس والعشرون

عصمة النبي الأكرم ﷺ في العقل النظري والعملي

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

هذه الأيام المباركة هي أيام ذكرى مولد الرسول الأكرم ﷺ والإمام السادس جعفر بن محمد الصادق عليهما آلاف التحية والثناء . وفي الحقيقة فلا توجد نعمة أعظم من نعمة الولاية فالولاية باطن النبوة والرسالة المصاحبة للإمامة والخلافة ، ومعرفة النبي والإمام تتضح بمعرفة الولاية ومَن كان تحت إشراف وإدارة الله المباشرة فهو يتمتع بمنزلة سيكون فيها شاهداً في الدنيا وشهيداً في الآخرة ومعصوماً عن كل خطأ فكري ومعصية عملية أيضاً ، وكما تقدم في البحث السابق سيكون هو الاسم الأعظم لله تعالى . وقد اعتبر الله تعالى رسوله في القرآن الكريم الولي الخاص .

يقول الرسول الأكرم في القرآن الكريم : ﴿ **إنّ وليي الله الذي نزّل**

الكتاب وهو يتولّى الصالحين﴾[1] أنا تحت ولاية الله تحقيقاً، ووليي المباشر هو الله الذي أنزل القرآن، وهو يتولّى الصالحين. فإذا وصل الإنسان إلى درجة يكون فيها تحت ولاية الله ، فإنّ الولي يدير جميع شؤون المولى عليه (فكل ما يراه الإنسان الكامل ويسمعه ويعمله فهو مع حضور الله وتحت إدارته) وبناءً على هذا فلا يفهم خطأً ولا يرتكب خطأً ، فهو مصون في العقل النظري ومصون في العقل العملي أيضاً . فلا تقبل المنطقة العلمية للمعصوم الخطأ ولا ترتكب منطقته العملية خطأ، لأنّ وليّه الله وهو ﴿بكل شيء عليم﴾. ورسول الله ﷺ تحت ولاية الله سبحانه المباشرة فكل ما يفهمه يفهمه صحيحاً، لأنّه تحت إدارة مبدأ عالم الوجود ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾[2] فالله مدبّر أمر رسول الله ﷺ علم محض ولا طريق للجهل والنسيان إلى علم الله . والله الذي هو عليم هكذا ولي ومدبّر أمر رسوله ، إذن سوف لن يبتلى رسوله بالجهل ولا بالنسيان . فكل ما يفهمه يفهمه صحيحاً ، وكل ما يفهمه يحفظه ويحافظ عليه بشكل صحيح . ولأنّ الله قدير محض فلا طريق للعجز إلى حريم قدرته . وبما أنّ الله عزّ وجلّ القدير مدبّر أمر رسوله إذن لا طريق للعجز في عمل الرسول الأكرم ﷺ ولا طريق للمخالفة العملية وارتكاب الحرام في مجال عمل الرسول الأكرم ﷺ . فكل ما يفهمه فهو يفهمه صحيحاً حتماً . وكل ما ينجزه سيكون حقاً وعلمه النموذج الكامل لعلم الله . فرسول الله ﷺ من الناحية العلمية أفضل آيات الله العلمية ، ومن الناحية العملية أفضل آيات الله العملية . وقد نقل عن علي بن أبي طالب أرواحنا فداه قوله : « ما لله آية أكبر منّ » لأنّه نفس الرسول الأكرم ﷺ وكل ما عنده فهو من ثروة القرآن ، لأنّه لا توجد آية أعظم من الرسول

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٤.

الأكرم ﷺ ولا يظهر الله أحداً على أنه أفضل من رسول الله ﷺ .

ثم قال : إنّ الله سيتولى الإنسان الصالح . والصالح غير ذلك الذي يعمل الأعمال الحسنة . وفي القرآن يجعل الوصف في مقابل الفعل . ويفرّق بين المؤمنين والذين آمنوا وبين المشركين والذين أشركوا ، وكذلك يفرّق بين الصالحين والذين عملوا الصالحات . الوصف غير الفعل . فكل من كان للإيمان في قلبه موضعاً وللإعتقاد بالمعارف الدينية في نفسه محلاً فهو مؤمن . وأحياناً يكون إيمانه حالة لم يصل إلى درجة الرسوخ والملكة فهو جزء من ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالعمل الصالح فتارة يكون الإنسان ممن يعمل عملاً صالحاً وأخرى ذاته تصير صالحة . فإذا كان عمله صالحاً يكون جزء من ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ ، وإذا وصلت ذاته إلى مرحلة الصلاح يكون من الصالحين . ويلحق بعض الأولياء في الآخرة مع الصالحين ﴿ **وإنّه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾[1] فليس له ذلك الشأن ليكون من الصالحين في الدنيا . يقول رسول الله ﷺ : إنّ وليي الله وهو يتولّى الصالحين ، فأنا تحت ولاية الله مباشرة . وكان رسول الله مباشرة تحت ولاية الله لأنّ جوهر ذاته وصل إلى مقام الصلاح وهذا أيضاً بالإصلاح الإلهي ﴿ **إنّ وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين** ﴾[2] وبناءً على هذا فهذا الكاتب الذي لم يذهب لمدرسة بإشارة واحدة قد صار معلّماً لمئات الأساتذة .

ترجمة شعر :

معشوقي (أو كاتبي) لم يذهب إلى مدرسة قط ولم يخط حرفاً وبإشارة واحدة صار معلماً لمئات الأساتذة .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٠ .
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦ .

لم يقرأ ، ولم يستفيد من فكر بشري ، ولم ينتفع من كتاب وكتابة ، ولم يأخذ عوناً من كاتب وقائل ، ووصل إلى منزلة بأن صار الشاهد المطلق من قبل الله والمطّلع على جميع معارف عالم الإمكان . هذا هو البيان الرفيع لصدر المتألهين في كتاب مفاتيح الغيب[1] الذي يفصل البحث فيه بشكل واسع في النبوة والرسالة والولاية والكرامة ، يبيّن الفرق بين النظر والعرفان ويميّز بين الولي والنبي والإمام ويفرّق بين الحكيم والعارف . ويعبر عما حصل عليه الرسول الأكرم ﷺ عن طريق الموهبة الإلهية بما يلي : قال لسان العرفاء وناظم جواهر الأولياء (المراد به حافظ) :

ترجمة شعر :

العز والجاه هو الذي يحصل دون بذل دم القلب وإلا فليست الجنة كلها بالسعي والعمل .

ثم ينقل الحديث المعروف للرسول الأكرم ﷺ : « أنا سيّد ولد آدم ولا فخر » لأنّ الفخر بالكسبيات لا بالمواهب غير الكسبية ، وهٰذا خارج عن محل بحثنا . وإذا كان رسول الله ﷺ تحت ولاية الله ، إذن فعلمه معصوم وعمله أيضاً مصون . وقد بيّن لنا القرآن الكريم شواهد كثيرة على عصمة رسول الله من جميع جهات النقص والخطأ والعصيان . يقول في سورة الجن : الوحي النازل من المبدأ على قلب الرسول الأكرم ليبلغه إلى الناس محفوظ ومصون من آفات الشيطان . وعندما يطرح أحداث القيامة ويقول : ﴿ **قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربّي أمداً** ﴾[2] فالقيامة من غير المعلوم متى ستأتي قال : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلاّ من**

---

(١) مفاتيح الغيب : ص ٤٧٠ .

(٢) سورة الجن، الآية : ٢٥ .

ارتضى من رسول﴾[1] أي إلاّ من يقبله الله من الأنبياء ورسول الله مرتضى من الله، وهذا دليل على أنّ رسول الله ﷺ مطّلع على ذلك الغيب ﴿فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾[2] إنّ الله تعالى قد وضع رصداً وحرساً خاصاً من الملائكة للحفاظ على طريق الوحي ومسير الوحي، فيحرسون الوحي من أمامه ومن خلفه لئلا يقع في حرم الوحي أي دخل وتصرّف، ولأن قلب رسول الله ﷺ الحرم الآمن لله ﴿نزل به الروح الأمين*على قلبك﴾[3] فرسول الله ﷺ حافظ الوحي، يأخذ الوحي بصورة صحيحة، ويبلغه أيضاً بشكل صحيح، ولا يبخل أيضاً في بيانه وتبليغه. فرسول الله ﷺ ليس بخيلاً ولا ضنيناً في العمل ولا يخطأ ويجهل في العلم، وقد جعل الله له رصداً ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم ﴾ وأوصلوها إلى الناس. أي أنّ وحي الله معصوم إلى أن يصل إلى سمع الناس ويصل إلى مرحلة الإبلاغ والحجية بالفعل. فالوحي الإلهي معصوم منذ البداية حتى مقام التبليغ التي هي أنزل درجة منه. ولكن عندما يصل إلى سمع الناس بما يأخذونه بشكل صحيح ويضبطونه ويعملون به، وربما يأخذونه بشكل غير صحيح ولا يضبطونه بصورة صحيحة ويعملون به بشكل مزيّف، وإلاّ فإنّ الوحي معصوم من نقطة الانطلاق إلى مرحلة الإبلاغ للناس ﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ وقد عرَّف الله تعالى مقام الرسالة في عدّة مراحل، وبتعبير الأستاذ العلاّمة الطباطبائي رضوان الله تعالى عليه: أنّ رسول الله ﷺ معصوم في رسالته في ثلاثة أبعاد:

---

(١) سورة الجن، الآيتين: ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) سورة الجن، الآيتين: ٢٧ ـ ٢٨.
(٣) سورة الشعراء، الآيتين: ١٩٣ ـ ١٩٤.

١ ـ في ذلك البُعد الذي يأخذ فيه الوحي حيث يأخذه بشكل صحيح .

٢ ـ في ذلك البعد الذي أخذ فيه الوحي فهو معصوم في حفظه وضبطه .

٣ ـ وهو معصوم في بعد إبلاغ وإملاء الوحي المأخوذ والمصون على الناس .

أما البُعد الأول فكل ما يأخذه بالحقّ يأخذه ، فلا طريق للخطأ في مقام أخذ الوحي . قال : ﴿ وإنّك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾[١] تصل روحك إلى لقاء الوحي وتتلقى العلم الإلهي بحضور الحكيم العليم . فإذا لم يدرك الإنسان الوحي بشكل صحيح فلا يصير لقاء للوحي وليس عند الله محل للوسوسة وإغواء الشيطان ، ولا طريق لاحتمال الخطأ والمخالفة في حرم لدن الله ، وكل ما هناك حق . واحتمال الخطأ إنما هو في الموضع الذي يوجد فيه خطأ وصواب . ولهذا يوجد شيء مشكوك باسم محتمل الخطأ . والموضع الذي يوجد فيه كذب وصدق يوجد فيه شيء مشكوك باسم محتمل الصدق والكذب . فإذا كان هنالك مكان لا خطأ فيه فلا مكان أيضاً لمحتمل الخطأ فيه . فالخطأ والانحراف والضلالة والضياع والغواية من وساوس الشيطان . وإذا لم يكن للشيطان طريق إلى حرم الوحي وقد اعترف بنفسه بأنّه لا طريق لي إلى حرم عبادك المخلصين ، وإذا كان الشيطان رجيماً وقد رُجِم وطُرد ، فلا يكون له طريق في مقام القرب إلى الله . وإذا لم يكن للشيطان طريق ﴿ عند مليك مقتدر ﴾[٢] وإذا لم يكن للوسوسة طريق عند الله ، وإذا لم يكن للإغواء طريق إلى حرم لدن حكيم

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦ .

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٥ .

عليم وإنما منطقة عمل الشيطان في عالم الطبيعة والمثال والشيطان الذي حدوده الوجودية مرحلة التخيّل والتوهّم لا طريق له إلى حرم أمن العقل المحض ، وإذا كانت اليد الممتدة ترتد إلى صدر غير المحرم في عالم اللدن وإذا كانت الشيطنة من غير المحارم في حرم أمن الحق فلن يكون هناك خطأ وإذا لم يكن هناك خطأ فلا احتمال للاشتباه أيضاً . إذ أن الطريق منحصر في الحق ، وإذا كان الطريق منحصر بالحق فلا طريق لوجود فرد مشكوك إذا كان أمير المؤمنين عليه السلام والذي هو بمنزلة نفس الرسول العزيز يقول في نهج البلاغة : « ما شككت في الحقّ مذ رأيته »[1] لأنّه في حرم الولاية فلا طريق للشيطنة ولا محل للخطأ ولا موضع للخطأ في منطقة النبوة والإمامة . وإذا لم يكن هناك مكان للضلالة والسفاهة والخطأ والخبط فعلى هذا لا شك أيضاً ، لأنّ الشك إنما يحصل لأنّ الإنسان لا يعلم أن هذا الفرد الثالث هل هو من قسم الحق أو من قسم الباطل . فإذا لم يكن قسم سوى الحق فسوف لن يكون هناك فرد ثالث مشكوك . وبناءً على هذا ففي مقام أخذ كلام الحق بما أنّ الوحي أمين ﴿ **نزل به الروح الأمين** ﴾[2] فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معصوم وهو يذهب إلى لقاء الوحي ويلتقي مع نفس الوحي ﴿ **وإنّك لتلقّى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾[3] وكل ما جاء به الروح الأمين يأخذه منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وأمّا البُعد الثاني وهو أنَّ كل ما فهمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو يحافظ عليه بشكل صحيح فدليله أنَّ مخزن علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعيد عن متناول الإغواء والشيطنة حتى يأتي الشيطان فيمحي موضوعاً أو يبدّل موضوعاً بآخر ، وليس

---

(١) نهج البلاغة : صبحي الصالح، ص ٥١ .
(٢) سورة الشعراء، الآية : ١٩٣ .
(٣) سورة النمل، الآية : ٦ .

للخيال طريق إلى حرم العقل ليأتي فيزيد وينقص من موضوع أو يبدّل موضوعاً بآخر ، وليس للوهم طريق إلى حرم الوحي ليأتي فيُنقص أو يضيف أو يبدّل . فالتحريف في الوحي غير متيسر لأنّه لا طريق للشيطان الباطني ولا طريق لإبليس الخارجي ليأتوا فيأخذوا ويُنقصوا ويضيفوا ويغيّروا. والتنقيص والإضافة والتغيير عمل الوهم من الداخل كسبب قريب وعمل إبليس من الخارج كسبب بعيد. وهذان العدوان الداخلي والخارجي سواء كانا من الخارج أو كان أحدهما من الخارج والآخر من الداخل فلا طريق لهما إلى حرم الوحي لكي يأتيا إلى مخزن علم الرسول الأكرم ﷺ ويفسدا ويغيّرا فيه. قال القرآن الكريم : ﴿**سنقرئك فلا تنسى**﴾[1] إنّك لست من أهل النسيان، وكلمة ﴿ **إلا ما شاء** ﴾ لتأكيد المستثنى منه لا أنّه استثناء نظير كلمة ﴿**إلاّ ما شاء ربّك**﴾ في آية ﴿**خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربك**﴾[2] وهذا النوع من الاستثناءات تأكيد للمستثنى منه. أي كل ما هو موجود فهو في مشيئة قدرة الحق ، ولم يصر تفويضاً ليخرج من اختيار الله .
واسم هذه المرحلة حفظ وحراسة الوحي الإلهي. أمير المؤمنين عليه السلام يمدح رسول الله ﷺ في نهج البلاغة بقوله : « خازن علمك المخزون » نعلمك المخزون عند الرسول الأكرم ﷺ . وإذا كانت ﴿**وعنده مفاتح الغيب**﴾[3] مفاتيح عالم الغيب عند الله، وإذا كان رسول الله عند الله وعند لقاء الوحي وعند مليك مقتدر وجزء الذين عند ربك ، إذن يقيناً مفاتح الغيب في حضور ولي الله، وهو بنفسه مفتاح الغيب، الغيب جزء من عالم الإمكان ومفاتح الغيب جزء من عالم الإمكان أيضاً والكون عنده جزء من عالم الإمكان. وإذا كان رسول الله ﷺ بنفسه عنده إذن فهو يعلم مفاتح الغيب وعالم بالعلل

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ٦.
(٢) سورة هود، الآية: ١٠٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

الغيبية لأنّ العلل مفاتيح المعاليل. والأسباب مفاتيح المسببات. والمبادىء الأولية مفاتيح المبادىء الثانوية، وهي جميعاً عند الله، والرسول الأكرم ﷺ عند الله أيضاً. وبناءً على هذا لا طريق للخطأ والنسيان والسهو إلى مخزن علم الرسول الأكرم ﷺ ﴿ **سنقرئك فلا تنسى** ﴾.

البُعد الثالث: مرحلة الإنشاء وإبلاغ الوحي مع الإملاء والتبليغ وأمثال ذلك. كل ما نطق به لسان الرسول الأكرم ﷺ وخرج من ذلك المجرى أي صدر من فمه المبارك فهو امتداد لقناة الوحي ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى** ﴾[1] وكل ما يقوله الرسول الأكرم ﷺ وحي، سواء كان بصورة القرآن أو بصورة الحديث أو بصورة الحديث القدسي. فإذا قال رسول الله ﷺ: صلاة الظهر والعصر أربع ركعات، وإذا كان فرض النبي في مقابل فرض الله، لا أنّ رسول الله قد زاد من عند نفسه ركعتين، بل الله أمره أن يفعل ذلك، وهو ينفذ كل ما قال له الله لأنه ﴿ **إنّ وليي الله الذي نزّل الكتاب** ﴾ وتعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلّية ﴿ **وهو يتولّى الصالحين** ﴾ فإدارة أمر الرسول الأكرم ﷺ بيد الله عن طريق تنزيل الوحي. ومن هذا الطريق يقول: افعل هكذا، ومن ذلك الطريق يقول: لا تفعل هكذا ﴿ **لا تحرّك به لسانك لتعجل به** ﴾[2]، لا تحرك شفتيك، ولا تعجل بالنطق به من قبل أن تنال ذلك من طريق الوحي، اترك الوحي الإلهي يمرّ من هذا المسير ويصل إليك. فروحك وحافظتك وناطقتك ممرّ الوحي، أي كن أنت ممثلاً للوحي، وإذا كنت ممثل الوحي فإنك تصير شاهداً وسراجاً ومنيراً ﴿ **ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله** ﴾[3]

---

(١) سورة النجم، الآيتين: ٣ ـ ٤.
(٢) سورة القيامة، الآية: ١٦.
(٣) سورة الأحزاب، الآيتين: ٤٥ ـ ٤٦.

تكون هذه المراحل الثلاثة والتي قد شهد الله بعصمة الرسول ﷺ فيها وقال : أفق شفتي الرسول الأكرم ﷺ أفق العصمة ومحل حفظ الرسول الأكرم ﷺ خزانة العصمة . وعقل تحصيل الرسول الأكرم ﷺ بالنسبة للوحي الذي هو أفضل النعم تحصيل معصوم وكل ما يحصل عليه العقل من نظر يحصل عليه بشكل صحيح ولكن العقل العملي هو الذي يجب أن يعلم أنه هل كل ما يحصل عليه يقوله أم لا ؟ وهل جميع ما يحصل عليه يقوله أو لا فقد ثبت إلى الآن بأنّ كل ما يقوله معصوم . فهل كل ما يحصل عليه يوصله أو لا ؟ قال في سورة التكوير : ليس رسول الله ضنيناً وبخيلاً حتى لا يقول بعض ما يُوحى إليه ، فكل أحد يحصل المقدار الذي يناسبه من رسول الله ﷺ « إنّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم »[1] فما كان يحدّث أحداً بعمق فكره وعقله سوى أهل بيت العصمة والطهارة « ما كلّم رسول الله العباد بكنه عقله قط »[2] وقد استثنى شرّاح أصول الكافي أمثال صدر المتألهين أهل البيت عليهم السلام ، وحيث أن أعظم النِّعم هي نعمة الوحي قال الله تعالى: ﴿ **وما هو على الغيب بضنين** ﴾ وهذه أغلى النِّعم والتي هي نعمة الوحي يوصلها إلى الناس ، قال رسول الله ﷺ : « أجود الأجواد الله جلّ جلاله وأنا أجود ولد آدم » الله أجود من كل جوّاد وليس في عالم الإمكان من هو أجود منّي ، فرسول الله ﷺ أسخى من كل الأسخياء . وقد عرضنا في الجلسة السابقة بأنّ رسول الله لم يكن شجاعاً فقط بل كان وعلى حد تعبير ابن مسكويه حقيقة الشجاعة ، وهنا يجب القول بأنّ رسول الله ﷺ لم يكن جوّاداً فقط بل جود مجسّد وحقيقة السخاء لا فقط سراجاً منيراً في العلم بل جود في

---

(١) أصول الكافي: كتاب العقل والجهل، ح ١٥ .

(٢) أصول الكافي: كتاب العقل والجهل، ح ١٥ .

العمل ، جود منزّه عن الإسراف ومبرأ عن التبذير ، فإذا كان العطاء في محلّه كان جوداً ، وبما أن جميع أعمال رسول الله ﷺ معصومة ومصونة فعطاؤه أيضاً جود . وإذا كان قد نثر بذور المعرفة في العالم ، وإذا كان قد أعطى الأمور المادية أيضاً فقد فعل ذلك في محله ، وإلاّ لم يكن جواداً ، فالإسراف والإمساك اللذين هما طرفي الجود إفراط وتفريط لا يتلاءمان مع الجود ، والإنسان الذي ينثر البذر في غير محلّه يقال له بذّر، وناثر البذور في غير محلها يقال له مبذّر . فتلك البذر لا تنمو ولا ترشد ولا تؤتي ثمراً ولا تثقل بالحمل ، لأنّه تبذير . أي أنّ نثر البذر كان في غير محلّه وفي غير موضعه . والجود هو ما كان في محلّه . قال : ليس في المجتمعات البشرية بل في عالم الخلقة والإمكان أحد له جود مثل جودي ، لأنّي قد أتيت بأفضل نعمة إلى المجتمعات البشرية « أجود الأجواد أنا » بالرغم أنّه بلحاظ الجود الظاهري والصوري قد وصل أيضاً إلى درجة أنّه قد ضحّى عن أمّته بعدّة جمال في مناسك مِنى ، وليس فقط كان صاحب جود علمي بل كان أيضاً ذا جود مادي . لم يقل أبداً كلمة «لا» ، وإذا لم يكن عند الإمام السجاد كلمة «لا» .

ما قال لا قط إلاّ في تشهّده لولا التشهّد كانت لائه نعم

وإذا كان المعصومون الآخرون سلام الله عليهم عندهم جود فإنما هو ينتهي إلى جود رسول الله ﷺ وإذا كان لهم علم وعصمة فهما يتصلان بذلك العلم وتلك العصمة ، لأنّ الولاية هي التي تستلزم هذه البركات ، وهي الولاية التي تظهر أحياناً في صورة النبوّة وأحياناً في صورة الخلافة ، وهذه الولاية هي الإمامة ، ولهذا فهو إمام المتقين ، لماذا ؟ لأنّه بنفسه قد تجسد في مسير التقوى ، وسيكون مقتدى المتقين لأنه هو الذي علّم التقوى ، وهو الذي ربّى المتقين ، وهو الذي يبين التقوى وأهل التقوى

ويترقى بهم ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾[1] فهو يفصّل الحديث عن مسائل ما وراء الطبيعة أيضاً . وقد اعتبر الله تعالى نعمة الرسالة شاملة لكل العالم ، ووعد أيضاً بأن يصل هذا الدين من ناحية الارتفاع إلى سدرة المنتهى ، ومن ناحية العرض أيضاً دوامه إلى يوم القيامة ، ومن ناحية الدرجات ﴿ دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ وصل إلى مقام لا يُفرض أعلى منه في عالم الإمكان ، وبنظر الامتداد الزماني أيضاً وصل إلى درجة كان فيه ديناً شمولياً شمل العالم . وقد بيّن القرآن الكريم في عدة مواضع شمول القرآن للعالم وشمولية وحي الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه ، قال : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[2] ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾[3] ومهما حاول الكفّار بأفكارهم المختلفة أن يتحصّنوا ضد الإسلام ومهما قاوم المشركون فلا يمكن لهم أن يطعنوا في شمولية الإسلام وعالمية الرسالة الإسلامية . لماذا ؟ لأنّ الشاهد على شموليته وعالميته هو الله ، يقول الله : رُسل الوحي إليك شهداء على رسالتك ، والوحي شاهد على صدق مدّعي الرسالة . ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ﴾[4] فيقول لهم رسول الله : أنا رسول إليكم من الله ، والشاهد على هذا المدّعى هو الله ، والله يشهد على صحّة دعوى رسالته ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ أي قل الله هو الشاهد ، لأنّ سند شهادة الله سبحانه هو وحيه . وهذا الكلام الذي بين يدي هو كلام الله فإذا كنتم تشكّون في أنّه كلام الله فأتوا بسورة صغيرة من مثله ، والله قد شهد بأنّي رسوله . لأنّه كلامه بين يديّ ، وهذا الكلام معجزة . وإذا

---

(١) سورة التكوير، الآية: ٢٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣، وسورة الصف، الآية: ٩.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٨.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

كانت معجزة الأنبياء الآخرين محدودة وموضعية فإنّ معجزة الرسول الأكرم جامعة وعالمية . ولقد كان التكلّم معجزة لبعض الأنبياء ، وكان التكليم معجزة بعضهم الآخر ، وللرسول الأكرم ﷺ معجزة باسم التكلّم وله معجزة أيضاً باسم التكليم وله معجزة أيضاً باسم الكلام . فقد تكلّم عيسى المسيح سلام الله عليه في عمر لا يتكلّم فيه من كان مثله في هذا العمر ﴿ **قالوا كيف نكلّم من كان في المهدِ صبيا** ﴾[1] لا يتلاءم الكلام مع الطفولة ، ولكن روح الله ، مسيح الله قد تكلم في الطفولة ، وهذا التكلّم معجزة ﴿ **قال إنّي عبد الله آتاني الكتابَ وجعلني نبيّاً** ﴾[2] . وموسى الكليم سلام الله عليه يسمع كلام الله ﴿ **وكلّم الله موسى تكليما** ﴾ وهذا التكليم واستماع كلام الله معجزة ، فيتكلّم معه الله وهو يستمع كلام الله ، ولا يستطيع الآخرون أن يستمعوا كلام الله ، وموسى الكليم قد سمع كلام الله . ولكن لرسول الله ﷺ معجزة باسم التكلّم ، لأنّ الأمي الذي لم يقرأ درساً حينما يتكلّم بالوحي فهو معجزة . وإذا تكلّم الإنسان في السن الذي يتحدّث به بكلام غير عادي فهو معجزة . وإذا تكلّم الإنسان في زمان لا ينطق به عادة فهو معجزة . وإذا قرأ الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب فهو معجزة . وتكلّم الأمّي بكلام خارق للعادة معجزة . ولم يحصل تكلّم الله مع رسوله في المعراج فقط بل تكلّم معه في غير المعراج أيضاً ، والذي هو بدوره معراجاً ومعجزة أخرى قطعاً . وقد حصل في المعراج شفاهاً على الآيتين في آخر سورة البقرة ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون كل آمن بالله** ﴾ واستمع إلى كلمات الله من غير واسطة ، هذا تكليم الله ، ولكن نفس القرآن الذي هو كلام الله معجزة ، لأنّ أحداً لا يستطيع أن يتكلّم بمثل هذا الكلام .

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٩ .

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٠ .

ولم تكن معجزة الرسول الأكرم فقط في الأجرام السماوية وأمثال ذلك .

ترجمة شعر :

أنت الذي أشرت بطرف إصبعك فألقى القمر قرطه من الثريا مشقوقاً .

بل كانت المعجزات العلمية التي هي أعظم المعجزات ثابتة للرسول الأكرم ﷺ ولهذا قال : ﴿ **وكفى بالله شهيداً** ﴾ وقد شهد الله بأنّ هذا القرآن كلامه . ومهما اتّخذ المشركون والكافرون والمنافقون مواضع لهم ضد الإسلام فإنّ الإسلام سينتصر عليهم ﴿ **وكفى بالله شهيداً** ﴾ وحين عرّف الله رسوله الأكرم بهذه الأوصاف العالية أمر فقال : واظبوا على حفظ حسن الأدب مع رسول الله . وذلك التمتع بالظرافة يُقال له أدب . وعندما سُئِل ابن عباس : أنت أكبر أم رسول الله ؟ قال : هو أكبر وأنا أسن . وهذه الظرافة في الحديث هي ثقافة الأدب . وبتعبير الأستاذ العلاّمة رضوان الله عليه : أدب المؤمن هو ظهور التوحيد في جميع عقائده وأخلاقه وأعماله . ويقال لتلك الرقة في الفعل والظرافة في الفعل أدباً . وقد كان رسول الله ﷺ مؤدّباً بالأدب الإلهي ، وقد قال لنا الله أيضاً : تعاملوا مع رسول الله بالأدب ، فلا تذكروا اسمه بشكل عادي ولا تنادوه أيضاً بصوت عادي ، لا تسبقوه بالقول ولا تجعلوا أصواتكم فوق صوت النبي الأكرم . والآن أيضاً عندما تذهبوا إلى زيارة حرم الرسول الأكرم ﷺ فلا تزوروا بصوت عال ، فهذا أدب القرآن . قال في سورة الحجرات : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ وكما أنه ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ ملائكة من الله لا يسبقونه بالقول ويتّبعون الأوامر الإلهية ، وأنتم ملائكة الطبيعة لا تسبقوا الله ونبيّه بالقول . واجعلوا أفكاركم وأخلاقكم وأعمالكم تابعة لأوامر الله ونبيّه وامشوا خلفهم ﴿ **لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إنّ الله سميع عليم** ﴾ وقال في الآية التي بعدها : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا**

ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ ـ وفي عهد جاهلية الشاهنشاهية أرادوا أن يبدّلوا التاريخ الشاهنشاهي بدل التاريخ الهجري ويقدّموه عليه ـ يقول القرآن : لا تجعلوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجعلوا نداءكم أعلى من شهرته ﷺ ، ولا ترجّحوا آثاركم القديمة وقوميتكم على دين الله ، اتركوا هذه جانباً . واجعلوا رسول الله ﷺ قدوتكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفهرس